جاكوب آبوت
صناع التاريخ
كليوباترا: ملكة مصر
ترجمة:
مها عبد الحليم القاضى
2206

يعد هذا الكتاب أحد حلقات سلسلة الإصدرات التى أطلقها المؤلف الأمريكى جاكوب آبوت تحت عنوان "صناع التاريخ". وتدور هذه السلسة حول أبرز الشخصيات التى عرفها التاريخ.

عمد المؤلف إلى اختيار الأسماء التى يشكل تاريخها مادة ثرية وفيضاً من المعرفة عند الإبحار داخل حيواتهم والوقوف على العوامل التى صنعت شخصيات أمثال هنيبال، الإسكندر، قيصر، كليوباترا، داريوس، زركيز، ألفريد، ويليم الفاتح، الملكة إليزابث، ومارى ملكة الأسكتلنديين. وقام بتقديم أبرز سماتهم وأهم أحداث حياتهم بلغة سهلة وأسلوب واضح.

ويتناول هذا الكتاب شخصية الملكة كليوباترا بدءاً من السمات والموروثات والخلافات والنزاعات التى دارت بين أسلافها وأجدادها، وعاصرتها حتى داخل أسرتها، مرورا بأهم الأحداث والشخصيات التى تفاعلت معها منذ ظهورها على مسرح الأحداث، بدءاً من والدها ومروراً بأنطونيو وقيصر، ومردود ذلك على تغيير مسار حياتها وطموحها الذى شكل سمة محورية فى شخصيتها تجلت فى رغبتها فى بسط نفوذها على العالم؛ حتى فضلت التخلص من حياتها بلغز حير العالم كى لا تصير أسيرة لأوكتافيوس بعد أن فقدت حلمها.

صناع التاريخ

كليوباترا: ملكة مصر

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2206
- صناع التاريخ- كليوباترا: ملكة مصر
- جاكوب آبوت
- مها عبد الحليم القاضى
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

History of Cleopatra: Queen of Egypt

By: Jacob Abbott

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

صناع التاريخ

كليوباترا: ملكة مصر

تأليف: جاكوب آبوت

ترجمة: مها عبد الحليم القاضى

2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أبوت، جاكوب.
صناع التاريخ: كليوباترا- ملكة مصر/تأليف: جاكوب أبوت،
ترجمة: مها عبد الحليم القاضى
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٢٤٠ ص، ٢٠ سم
١ – مصر القديمة – الملوك والحكام
٢ – كليوباترا السابعة – ٦٩ – ٣٠ق.م
٣ – مصر القديمة – تاريخ العصر اليونانى (٣٣٢ – ٣٠ق م)
(أ) القاضى، مها عبد الحليم (مترجم)
(ب) العنوان ٩٢٣,١٣٢

رقم الإيداع: ١٣٢٣٨ /٢٠١٢
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 216 - 182 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الخرائط والصور التوضيحية

ITALY
ILLYRICUM
Hæmus Mts
Philippi
THRACE
Amphipolis
EUXINE SEA
Sinope
ASIA MINOR
Drilo R.
MACEDONIA
Strymon
Apollonia
Sestos
Abydos
Rome
Tiber R.
Brundusium
EPIRUS
GREECE
THESSALY
ÆGEAN SEA
Samos
Ephesus
Tarsus
Cydnus R.
SYRIA
Actium
Corinth
Athens
Mt. Etna
SICILY
PELOPONNESUS
Tanarus
CRETE
RHODES
CYPRUS
Sidon
Tyre
Jerusalem
DEAD SEA
MEDITERRANEAN SEA
Alexandria
EGYPT
Pelusium
Mt. Hor
Isthmus of Suez
Mt. Sinai
LIBYA
Nile R.
LONG EAST FROM FERRO
SCENE OF CLEOPATRA'S HISTORY

مقدمة

يولد الإنسان على فطرة نقية. فعليه أن يعتنى بها، وينتقى لها غلافًا سميكًا من السمات الجيدة، ويصنع لها درعًا واقيًا قوامه العقل والحكمة، وألا يتركها عرضة لشوائب العالم من الفتن والأحقاد والضغائن وحب الذات، وغيرها مما يمكن أن يفسد نقاءها ويفقدها صفاءها.

فالشخصية الإنسانية تتألف من مزيج معقد من مجموعة مكونات يتوارثها الفرد أو يكتسبها من البيئة المحيطة، ولا يقتصر لفظ البيئة التى يعيش فيها الإنسان على العائلة والمجتمع والوطن فقط، بل كل ما يمكن أن يؤثر فى تكوين شخصية الفرد، وعليه تصبح البيئة هى العالم بأسره.

والفرد هو الذى يحد من عالمه أو يترك له العنان؛ فالعالم أو بيئة الفرد تكتسب فحواها من المضمون الذى يتيحه كل فرد لذاته عندما ينضج ويصبح قادرًا على إدراك ما يحيط به. فقد تكون بيئة الفرد محدودة بمحدودية أفقه وعدم رغبته فى الوقوف على حقائق الأشياء وتعقل الأمور واستيعاب مرجعيتها وعلاقتها بما سلف وما هو آت. وعليه يصير عالمه بمثابة حلقات زمنية مستقلة عن بعضها بعضًا.

وقد يجعل الفرد عالمه غير محدود بأن يصل حاضره بماضيه؛ ليستنبط منهما مستقبله فيصبح عالمه بمثابة حلقات سلسلة زمنية متصلة من الحقائق يؤول بعضها بعضًا. وبذلك يكون الفرد بمثابة عالم صغير يتحرك داخل العالم الكبير، ويبدأ عالم الفرد منذ ميلاده وينتهي بوفاته.

ويعرض لنا هذا الكتاب عالم الملكة كليوباترا منذ نشأتها، وكيف تشبعت فطرتها بموروثات الدم المقدونى، وبما اكتسبته من السمات والشوائب التى تسللت إلى نفسها من البيئة المحيطة، ورغبتها فى تحقيق حلمها ببسط نفوذها على العالم الكبير من حولها ليكون عالمها الذى اختارته لنفسها، واحتماؤها بدرع العقل والحكمة من أجل بلوغ هدفها بشتى السبل، حتى برزت شخصيتها التى استطاعت إدارة ذلك القسط الذى قدر لها أن تحياه من الحلقات الزمنية التى عاصرتها إلى أن فارقت الحياة وانتهى عالمها.

الفصل الأول

وادى النيل

من يتأمل تاريخ كليوباترا، يجد نفسه أمام سرد لأحداث ووقائع جريمة؛ حيث يجسد لنا تاريخها، الذى اتسم بالطابع الرومانتيكى المليء بالمغامرات والغرائب، صورة حية بالغة الدقة للحب غير المشروع، وما ترتب عليه من آثار مرتقبة؛ فيصور تأثيره وآثاره، ودوافعه الجامحة التى يتعذر كبحها، ونشواته الثملة، وسرعته الجنونية الطائشة، والندم الشديد وقمة اليأس والقنوط، والدمار الذى دائما وحتما ما يؤول إليه.

وقد ولدت كليوباترا بمصر؛ ولكنها انحدرت من جذور يونانية. وبالتالى، فبينما شكلت دلتا النيل والإسكندرية مسرحا لأهم الأحداث والوقائع فى تاريخ حياتها، كان الدم المقدونى ينساب فى عروقها بما يحويه من سمات ميزت شخصيتها وأفعالها بالعبقرية والشجاعة والإبداع والاندفاع. وعلى الجانب الآخر، رسمت الظروف والبيئة التى نشأت فيها أحداث تاريخها وشخصيتها المتميزة بحب المغامرة، ومعاناتها والآثام التى اقترفتها، إلى جانب تأثير العوامل التى اجتمعت معًا فى ذلك الجو الشهوانى السقيم الذى عاصرته فى المشاهد الأولى من حياتها.

ويرى علماء الطبيعة مصر أكثر البلدان تميزا على سطح الكرة الأرضية، فهى عبارة عن واد أخضر طويل وضيق يتميز بالخصوبة، وينعزل تماما عن باقي أجزاء العالم المأهول. بل هى، فى الواقع، أكثر عزلة مما يمكن أن تكون عليه أى جزيرة صغيرة، حيث يتعذر اجتياز الصحارى مقارنة بالبحار. فيعد موقع مصر فى ذاته ظاهرة فريدة قلما نجدها فى العالم. فإذا كان بمقدورنا التحليق فى جو السماء بجناحى عقاب، ورؤية ذلك المشهد، لكى نلاحظ هذه العملية الضخمة، رغم بساطتها، التى كونت هذا الوادى الطويل الرائع، الذى يعج بالكثير من الحياة النباتية والحيوانية التى تتجدد وتدب فيها الحياة كل عام، وسط الموت والقفر والسكون بالصحارى المحيطة، فلن نرفع أعيننا أبدًا، ونظل نحملق بها باستمتاع وإعجاب لا ينقطع.

فنحن لا نملك أجنحة العقاب، ولكن تمدنا القوانين العامة للعلم بشيء بديل. فقد أتاحت لنا السلسلة الطويلة من الملاحظة الحكيمة المتروية والدقيقة التى دامت لألفى عام حتى الآن، النتائج التى من شأنها، وبمعاونة قوى المفاهيم العقلية الموجودة لدينا، أن تمكننا من عمل مسح شامل للمشهد كاملاً، بما يشبه، إلى حد ما، ما يمكن أن تمدنا به الرؤية الواقعية المباشرة إذا ما نظرنا إليها من أعلى بعين العقاب. ومع ذلك، فهو عار على قدر العلم بأن نطلق على هذا البحث العلمى الطويل المتأنى والتقصى الفلسفى، بعد كل ذلك، فى مثل هذه الحالة، أنه مجرد شيء بديل للأجنحة. فإذا اتصل العقل البشرى بجناحى عقاب، لتمكن من حل لغز مصر فى غضون

أسبوع؛ بينما العلم والفلسفة والبحث بمحدوديتها على سطح الأرض انشغلت ما يقرب من العشرين قرنا لإنجاز المهمة.

وأخيرا، تبين أن موقع مصر فى ذاته وانعزالها العجيب وسط بقعة غير محدودة من الرمال القاحلة الجافة، يعتمد على بعض نتائج القوانين العامة للأمطار والتى يجدر بنا ملاحظتها. وهى أن المياه التى تتصاعد إلى جو السماء عن طريق التبخر من سطح البحر والأرض، تتساقط مرة أخرى، فى ظل ظروف معينة، على هيئة وابل من الأمطار. وتختلف كمية الأمطار المتساقطة فى غزارتها واستمراريتها من بقعة لأخرى على سطح الأرض؛ حيث تقضى القاعدة العامة بأن الأمطار تكون أكثر غزارة واستمرارية كلما اقتربنا من خط الاستواء عن المناطق المعتدلة، وتقل كلما اتجهنا نحو القطبين. وذلك هو المتوقع ؛ حيث إنه، فى ظل الشمس الحارقة لخط الاستواء، لابد أن يزداد تبخر المياه باستمرار وبسرعة أكبر عنه فى المناطق الباردة، ولابد أن تعود كل المياه التى تصاعدت لجو السماء إلى الأرض مرة أخرى.

ومع ذلك، ليس موقع المنطقة، التى يحدث فيها التبخر، بالنسبة لخط الاستواء هو وحده الذى يحدد كمية الأمطار المتساقطة عليها، حيث يعتمد ذلك بصورة أساسية على الظروف التى تتساقط فيها الأمطار مرة أخرى، وهى تبريد الطبقة الجوية التى تحمل المياه؛ ويظهر ذلك الأثر بطرق مختلفة، كما تعمل العديد من العوامل المختلفة على تعديله. ففى بعض الأحيان، يتم تبريد الطبقة الجوية

بمرورها فوق سلاسل جبلية، وأحيانا عن طريق مواجهتها أو امتزاجها بتيارات هوائية باردة، وفى أحيان أخرى، عن طريق تحركها فى اتجاه الرياح المتجهة لأعلى، وبالتالى فى نطاق أكثر برودة. وعلى الجانب الآخر، إذا ما انتقل الهواء من جبال باردة إلى سهول مشمسة ودافئة، أو من مناطق مرتفعة إلى أخرى منخفضة، أو إذا ما امتزجت، من بين التيارات الهوائية المختلفة التى تتساقط عليها، بهواء أكثر دفئا منها، فتزداد قدرتها على احتواء البخار المذاب، وبالتالى، فبدلا من إطلاق حمولتها من المياه التى تحتويها بالفعل، تصبح متعطشة للمزيد. وفى هذه الحالة، تمر كرياح جافة دافئة فوق البلاد. وفى ظروف معاكسة، قد تكون ضبابا ثلجيًا أو ربما وابلاً من الأمطار الغزيرة.

وعند أخذ هذه النقاط بعين الاعتبار، يتضح أن استمرار الهطول وغزارة الأمطار التى تتساقط على المناطق المختلفة من سطح الأرض، لابد أن تتأثر بعدة عوامل مثل دفء المناخ، وقرب الجبال والبحار واتجاهها، وطبيعة الرياح السائدة، وخصائص التربة. وبالفعل، وجد أن هذه العوامل وأخرى مشابهة، تسبب اختلافا كبيرا فى كمية الأمطار التى تتساقط على مناطق مختلفة. ففى الجزء الشمالى لأمريكا الجنوبية، حيث تحاط الأرض من كل جانب بالبحار المدارية الشاسعة التى تحمل الهواء الساخن المتعطش للبخار بالمزيد، وحيث ترتفع سلسلة جبال الإنديز الضخمة بقممها الثلجية التى تعمل على تبريد البخار وتكثيفه مرة أخرى، فتتساقط كمية من الأمطار

تقدر بارتفاع عمودى يزيد عن عشرة أقدام فى العام. بينمـــا، علـــى الجانب الآخر، تبلغ كمية الأمطار التى تتساقط بسانت بطرس بـــرج قدمًا واحدًا فى العام ، أو تتجاوزه قليلا، أما الأمطار الغزيـــرة التـــى تسقطها السحب على أمريكا الجنوبية، فإذا ما ظلت حيـــث ســـقطت فستغرق البلاد تماما. فعند انسيابها من الوديان إلـــى البحـــر، تتحـــد السيول معا، وتكون أكبر أنهار العالم - نهر الأمـــازون ؛ وتـــصبح الحياة النباتية، التى تحفزها الحرارة، ويغذيها الندى المتواصل الـــذى لا يتوقف، وافرة، وتغطى الأرض بالـــسوق المجدولـــة المتـــشابكة وأكاليل الزهور والكرمات الملتفة لدرجة أن الإنسان يستثنى من هذا المشهد تقريبا. فأصبحت الغابات غير المحدودة أدغالاً كثيفة لا يمكن اختراقها، وتركت للحيوانات البرية والزواحف البغيـــضة والطيـــور الجارحة الضارية والمفترسة.

وبالطبع، فلابد وأن مقاطعة مثل سان بطرس بـــرج، بـــشتائها الثلجى، وشمسها الواهنة الضئيلة، وأمطارها الحولية التى تبلغ اثنتـــى عشرة بوصة، تقدم، بكل ظواهرها من الحياة النباتيـــة والحيوانيـــة، تناقضًا مذهلاً للخصوبة الوافرة بنيو جرانادا. ورغم ذلك، فهى ليست النقيض تماما، وبالفعل، هناك مناطق محـــددة علـــى ســـطح الأرض تنعدم بها الأمطار ؛ وتلك هى التى تقدم لنا النقيض الحقيقـــى للحيـــاة النباتية الوافرة والخصوبة لبلاد الأمازون. ولابد أن هذه المناطق التى تنعدم فيها الأمطار يسودها السكون والقفر والموت. فلا يمكن لنبـــات أن ينمو، أو لحيوان أن يعيش، ومنع الإنسان أيضا من دخولها للأبـــد

ودون أمل. فإذا كانت وفرة الحياة النباتية والحيوانية هي التي وصدت الباب في وجهه، نوعا ما، ومنعته عن المناطق التي حولتها وفرة الحرارة والرطوبة لمناطق شديدة الخصوبة، فإن الغياب التام لهما مازال يحرمه، بقدر أكبر، موطن هناك. لذا، فهي أرض من الرمال القاحلة الجافة التي لا يمكن لجذر أن يجد غذاءه فيها، والصخور الموحشة التي لا يمكن لنبات أن يعلق بها.

وأشد المناطق التي تنعدم فيها الأمطار على سطح الأرض بدرجة ملحوظة، هي منطقة شاسعة تمتد عبر الجزء الشمالي داخل قارة أفريقيا والجزء الجنوبي الغربي لقارة آسيا. ويخترق البحر الأحمر هذه المنطقة من جهة الجنوب، فيقطع حدودها وشكلها دون أن يغير أو يعدل من خصائصها. ومع ذلك، فهو يقسمها إلى أجزاء مختلفة، ويطلق على كل جزء اسما يختلف عن الآخر. فالجزء الآسيوي يسمى بالصحراء العربية؛ والجزء الإفريقي يسمى صحاري (الصحراء الكبرى)؛ بينما يطلق على الجزء القاحل المحصور بينهما، بالقرب من مصر، الصحراء الغربية. ومع ذلك، تسود المنطقة بأكملها سمة عامة : هي غياب الحياة النباتية، وبالتالي، غياب الحياة الحيوانية بسبب انعدام الأمطار. وكان من الممكن، إذا كان يتوسطها سلسلة جبلية شاهقة، تسبب تكثيف الرطوبة بالهواء، أن تتحول المنطقة الشاسعة بأسرها إلى منطقة خضراء خصبة، ومأهولة كأي منطقة على سطح الأرض.

وكما هو الحال، فإنه لا توجد مثل هذه الجبال. وتعد المنطقة بأسرها مستوية تقريبا، وترتفع قليلا فوق سطح البحر، حتى أنه على بعد مئات عديدة من الأميال فى الداخل، ترتفع الأرض مئات قليلة من الأقدام فوق سطح البحر المتوسط، بينما بنيو جرانادا، ترتفع سلسلة جبال الإنديز إلى ما بين عشرة إلى خمسة عشر ألف قدم، على مسافة تقل عن الميل واحد من البحر. فهذا الارتفاع لمئات قليلة من الأقدام على بعد مئات الأميال يعد شيئًا ضئيلاً لا

يكاد يكون ملحوظًا؛ وبذلك، تعد أكبر المناطق غير الممطرة بإفريقيا وآسيا، كما تبدو للمسافر، عبارة عن سهل فسيح، يمتد بعرض ألف

ميل وطول خمسة آلاف ميل، ويقطعه فاصل واحد بارز يخفف من شدة الرتابة التى تهيمن على المنطقة، عدا هذا الاستثناء، فى كل مكان فى هذا الامتداد الهائل من السكون والعزلة. وهذا الفاصل الوحيد من الخصوبة والحياة هو وادى النيل.

ومع ذلك، وفى الواقع، هناك ثلاثة فواصل لامتداد هذا السهل، رغم أنه واحد منها فقط يشكل أى فاصل بارز لقحولتها. وجميعهما وديان تمتد من الشمال إلى الجنوب، وتقع جنبا إلى جنب. والوادى الشرقى منهم عميق جدًا لدرجة أن مياه المحيط تنساب بداخله من جهة الجنوب، مكونة خليجًا صغيرًا طويلاً يطلق عليه البحر الأحمر. وحيث إن هذا الخليج يتصل دون عقبة بالمحيط، فهو تقريبا بنفس المستوى، وحيث إن ما يتبخر منه ليس كافيا لإسقاط الأمطار، فهو لا يخصب حتى شواطئه. وحقا، إن وجوده يقتصرعلى مجرد تغيير المشهد الموحش للمنظر، حيث يمنحنا مشهدًا من المياه المتدفقة بدلا من الرمال المنتشرة بالمنطقة؛ وهذا هو كل دوره. باستثناء مشهد مرور الباخرة الإنجليزية، على فترات ليست متقاربة، وسط ذلك الامتداد الموحش، وبعض الآثار المتبقية من المدن القديمة على شاطئه الشرقى، والتى قلما تعكس أى مؤشرات للحياة. وبذلك فهو يلعب دورا متناهى الصغر فى التقليل من رتابة مشهد العزلة والقفر الذى يسود المنطقة التى يخترقها.

والجهة الغربية للأودية الثلاثة، السالفة الذكر، عبارة عن انخفاض طفيف لسطح الأرض يحده صف من الواحات. والمنخفض

ليس كافيًا لاستيعاب مياه البحر المتوسط، ولا توجد أية أمطار بأى جزء من الوادى الذى تكونه تكفى لجعله أساسًا لنهر. ورغم ذلك، تتبثق الينابيع هنا وهناك، فى كل مكان، من سطح الأرض، وتتخلل الرمال بامتداد الوادى، وتضفى خصوبة على الأودية الصغيرة، الطويلة والضيقة، والتى تبدو، بالتناقض الذى تشكله مع القفر المحيط، للمسافر، كأنها تمتلك خضرة وجمال الجنة. وينتشر صف من الواحات على امتداد هذا المنخفض الغربى، وبعضها على امتداد ملحوظ. وعلى بعد عدة أميال، تقع واحة سيوة التى يوجد على أرضها معبد جوبيتر آمون الذى ذاع صيته على مر العصور، وقيل أنها استوعبت ثمانية آلاف نسمة قديما. وعليه، بينما انخفض الجزء الشرقى للأودية الثلاثة، السالفة الذكر، ليتسع لمياه المحيط تتساب بداخله، انخفض الجانب الغربى انخفاضا طفيفا فاكتسب خصوبة محدودة من خلال الينابيع التى انبثقت من الأرض، فى الأجزاء المنخفضة منه. ويتبقى لنا هنا وصف الوادى الثالث - المركزى.

وعند الرجوع للخريطة مرة أخرى، سيلاحظ القارئ أنه يوجد، فى جنوب هذه المنطقة غير الممطرة التى نتحدث عنها، مجموعات وسلاسل جبلية بالحبشة يطلق عليها جبال القمر. وهى تقع بالقرب من خط الاستواء، ونظرا لقربها من البحار المحيطة، وتيارات الرياح التى تهب على ذلك الجزء من العالم، تقوم بجلب، وبصفة خاصة فى فصول محددة من العام، أمطار مستمرة وغزيرة. ولذلك، تغمر المياه المتساقطة جوانب الجبال وتغرق الوديان، وهناك

كم كبير منها لا يمكنه التدفق جنوبا أو شرقا ناحية البحر، لأن البلد بأسره، فى هذه الاتجاهات، يتألف من بقع ممتدة من أراضٍ مرتفعة. ولذلك، تتجه المياه المندفعة شمالا، لتشق طريقها عبر الصحراء خلال الوادى المركزى الذى أشرنا إليه أعلى، وأخيرا، تجد مصبا لها فى البحر المتوسط، على بعد ألفى ميل من ذلك المكان الذى جذبها به التكثف من جو السماء. وهكذا نشأ نهر النيل. ونوجز القول، إنه تكون من فائض مياه منطقة غزيرة الأمطار، أثناء اندفاعها عبر صحراء غير ممطرة، بحثًا عن البحر.

وإذا كان فائض المياه بجبال الحبشة مستمرًا ومتساويًا، لخلف النهر وراءه، أثناء مروره عبر الصحراء، قليلا من الخصوبة للرمال القاحلة التى يجتازها. وربما، قد تنعم ضفاف النهر الحالية بالخضرة، ولكن لن يمتد تأثير الرى أبعد ما يمكن أن تبلغه المياه نفسها، عن طريق تخللها للرمال. ولكن تدفق المياه ليس متساويًا وثابتًا. فتتواصل الأمطار فى فصل محدد من العام، وتتساقط بوفرة وغزارة لتغمر المناطق التى تتساقط عليها. وتنساب السيول على جوانب الجبل، وتغرق الوديان ؛ وتتحول السهول إلى مستنقعات، والمستنقعات تصبح بحيرات. فبإيجاز، إذا كان الممر ضيقا ويميل للانحدار تجاه البحر، فستغرق البلاد، وتتدفع كمية المياه المتراكمة بعنف وقوة شديدة عبر الوادى المركزى للصحراء، الذى يشكل مخرجها الوحيد. ومع ذلك، فهو ليس ضيقا، وانحداره قليل جدا. ويتراوح انخفاض سطح الصحراء، الذى تنساب فيه المياه، ما بين

خمسة إلى عشرة أميال عرضا، رغم أنها تبعد ألفى ميل تقريبا عن المنطقة الممطرة من الصحراء إلى البحر، ويعد البلد مستويا تقريبا بالنسبة للمسافة الكلية. وهناك انحدار كاف، للألف ميل الأخيرة على وجه الخصوص، ليحدد تدفقا معتدلا لمياه النهر جهة الشمال.

وفى ظل هذه الظروف، تمتد كمية المياه الهائلة التى تتساقط على المنطقة الممطرة فى صورة هذه السيول الغزيرة، لتغمر الوادى بأكمله وتكون بحيرة مؤقتة تمتد بعرض الصحراء، وتتراوح ما بين خمسة إلى عشرة أميال عرضا وألف ميل طولا. ومياهها ضحلة شفافة، تتدفق تدفقا قليلا تجاه الشمال. وتتوقف الأمطار، إلى حد كبير؛ ولكنها تتطلب بضعة أشهر لتنضب مياهها ويجف الوادى. وبمجرد نضوبها، تنبثق النباتات الغنية الوفيرة من سطح الأرض التى غمرتها المياه.

ولا بد أن هذه النباتات، التى نظمتها وحكمتها يد الإنسان الآن، كانت فى أصولها وبدايتها ذات طابع خاص. فلابد وأنها كانت تتألف من تلك النباتات التى تستطيع البقاء فى ظل هذه الحالة من استمرار التربة التى تنمو بها تغمرها المياه بصورة كلية ولمدة ربع عام. وربما هذه الظروف هى التى حالت دون تعرقل وادى النيل بالغابات، مثل باقى الأراضى الخصبة الأخرى، فى بداية تكونه. وللسبب نفسه، لم تستطع الحيوانات البرية أن تقطنه أبدا. فلم تكن هناك غابات لتؤويهم وليس لها ملجأ ولا ملاذا إلا الصحراء القاحلة الجافة، أثناء فترة السيول السنوية. ويبدو أن ذلك الوادى الرائع شكلته وحفظته

الطبيعة بنفسها ليكون من نصيب الإنسان. ويبدو أنها ادخرته له منذ بداية الخلق، وأبت دخول أى نبات أو حيوان قد يعوق أو يضر بوجود الإنسان وهيمنته. وإذا ما قدر له أن يهجره الآن لقرابة ألف عام ثم يعود إليه مرة أخرى، فسيجده كما تركه تمامًا، مؤهلاً لأن يقطنه على الفور. فلن يجد حيوانات برية عليه أن يقهرها أولاً، ولن تنمو به غابات متشابكة عليه أن يقتلعها بفأسه مسبقا. فالطبيعة هى البستانى الذى حفظ وهيأ هذه الجنة من العالم كله، وكانت وسائلها وآلياتها فى التنفيذ هى التبخر الكبير لأسطح البحار، وأشعة الشمس الاستوائية، وقمم جبال الحبشة الشاهقة الارتفاع، وكانت محصلة كل ذلك، أمطار موسمية غزيرة صيفا.

ولهذه الأسباب أو لأخرى، وطأ الإنسان أرض مصر منذ زمن بعيد. وذكرت أقدم التدوينات، التى سجلتها السلالة البشرية منذ ثلاثة آلاف عام، مصر منذ القدم وقت تدوينها. ولم يكن الحديث فقط صامتا، بل الخرافة نفسها لم تحاول أن تقص علينا أصل سكانها. وهنا تقف الآثار المصرية الأكثر قدما وخلودا، والتى أقامتها قوى البشر. ومع ذلك، فهو تقليل لقدر السلالة أن تبدو أرفع وأعظم، بالإضافة إلى، أشهر وأدق، الأعمال التى أنجزها الإنسان، مجرد أشياء عرضية وملحقات من طبقة رقيقة من رواسب خصبة، تركها فيضان مياه الامطار الصيفية الغزيرة على الرمال.

وأهم جزء من الرواسب النيلية هو الجزء الشمالى، حيث يتسع الوادى وينفتح تجاه البحر، مكونا سهلاً مثلث الشكل يبلغ طوله مائة

ميل لكل جانب من الجوانب الثلاثة، تتدفق خلاله مياه النهر فى عـــدد كبير من القنوات والجداول المنفصلة، وتشكل المنطقة بأكملهـــا بقعـــة خضراء فسيحة تتخللها الجداول المائية الجارية فى كل مكان، تبـــرز لنا مشهدا من أروع المشاهد الساحرة خصوبة ونماء وجمالاً. ويطلق على هذه المنطقة دلتا النيل.
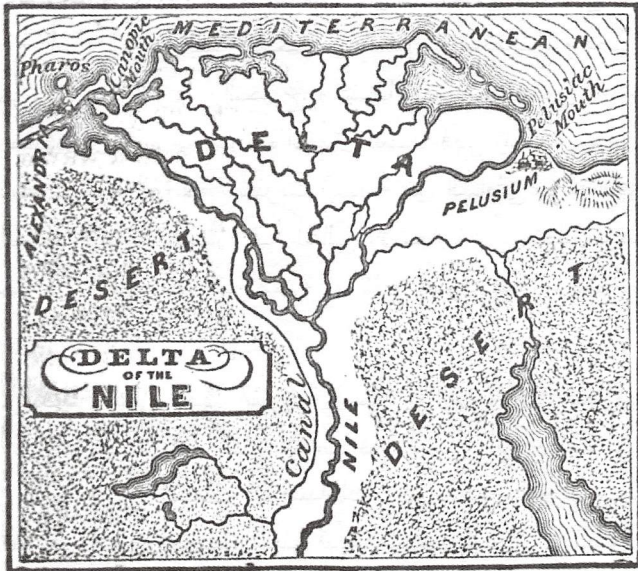
ولأن مياه ساحل البحر ضحلة، فيبدو البلـــد الخـــصب الـــذى كونته رواسب النهر ناتئا بعض الشىء إلى ما بعد حـــدود الـــساحل؛ ونظرا لأنه لم يحدث نتوء للأرض بدرجة ملحوظة فى الثمانى مائـــة

عام الماضية، فإنه قد يكون شيئا غير مؤكد ما إذا كان النتوء الظاهر بأكمله ليس بسبب التكوين الطبيعى للساحل، عن كونه بسبب أى تغييرات حدثت بفعل النهر.

وتتميز دلتا النيل بأنها مستوية السطح ترتفع قليلا فوق سطح البحر المتوسط، لدرجة أن اليابسة تبدو تقريبا وكأنها امتداد لسطح البحر نفسه، ثمة فارق واحد أنه بدلاً من المياه الزرقاء التى تعلوها الأمواج المزبدة، نجد بقعا فسيحة من الحبوب المتمايلة، وهضابا قليلة الارتفاع تتوجها القرى والنجوع. وعندما يدنو الملاح من الساحل فلا يرى مشهد كل هذه الخضرة والجمال بعيدا. فهى تنخفض جدا لدرجة أنها تمتد تحت الأفق حتى تقترب السفينة من الشاطئ. وحقا، فإن أول المعالم التى يميزها البحار هى أعالى الأشجار التى تتجلى بوضوح خارجة من المياه، أو قمة مسلة أو تاج عمود يسم موقعا لمدينة قديمة مندثرة.

ويطلق على الجهة الشرقية للمجارى المائية التى تجد مياه نهر النيل خلالها طريقا عبر الدلتا لتصب فى البحر، الفرع البلسمي. وهى تشكل تقريبا حدود المنطقة الخصبة للدلتا فى الجهة الشرقية. وكانت توجد، بالقرب من مصبها، مدينة قديمة تسمى بلسيوم. وبالطبع، كانت أول مدينة مصرية يطؤها من يصل برا من جهة الشرق، عند السفر عبر شواطئ البحر المتوسط. وبسبب تمييزها للحدود الشرقية للبلاد، أصبحت موقعا ذا أهمية قصوى، غالبا ما يتأتى ذكرها فى تاريخ العصور القديمة.

وعلى الجانب الآخر، كان يطلق على المصب الغربى للنيل اسم المصب الكانوبي. وهو يبعد عن مدينة بلسيوم ما يقرب من مائة ميل على امتداد الساحل الذى كان، ولا يزال، يتخذ شكلا غير منتظم وضحل المياه. وتتنأ المنحدرات الرملية الطويلة داخل البحر وكما لو أن البحر يثأر لنفسه فيكون الروافد والجداول والبحيرات الضحلة فى اليابسة. وعلى امتداد هذه الحدود المتقلبة غير المنتظمة لمياه النيل وأمواج البحر المتوسط، دامت حرب أبدية، بقوى متعادلة تقريبا، حتى أنه الآن، وبعد انقضاء ثمانى مائة عام منذ أن بدأ رصد الصراع، لم يسجل أى من الجانبين تميزا ملحوظا على الآخر. فالنهر يجلب الرمال، والبحر يعيدها مرة أخرى، محتفظا بشكل الشاطئ بهذه الحالة حتى يجعله صعبًا وخطيرًا على الإنسان، إلى حد بعيد، أن يدنو منه.

ويتضح، من ذلك الوصف لوادى النيل، أنه كون بلدة كانت منعزلة وبعيدة فى العصور القديمة، بصورة مذهلة، عن باقى أجزاء العالم. فانحصارها بين الصحارى من كل جانب من البر؛ والمياه الضحلة والامتدادات الرملية المرتفعة، وأخطار الملاحة الأخرى التى ميزت سواحلها، حالت دون الاقتراب منها بحرًا. ومن هنا ظلت، لعدة عصور، تحت هيمنة حكامها المصريين القدماء. وكان سكانها آمنين كادحين. وذاع صيت علمائها فى التعليم والعلوم والفلسفة فى جميع أنحاء العالم. وفى هذه العصور، قبل تدخل الأمم الأخرى فى عزلتهم الآمنة، بنيت الأهرامات، ونحتت المسلات الهائلة، وبنيت

المعابد الضخمة، التى أذهلت بقايا أعمدتها المندثرة البشرية الآن. وفى هذه العصور السحيقة، أيضا، كانت مصر، كما هى الآن، أرض الخصب والنماء السرمدى. فدائما ما توجد بها الحبوب، تحسبا لحلول مجاعة. وكانت الدول المجاورة، والقبائل، بالجزيرة العربية وفلسطين وسوريا، تقصد مصر من الجهة الشرقية عبر الصحراء طلبا للمعونة، وبذلك، تم فتح طريق للاتصال. وبعد ذلك، وجد ملوك الفرس مدخلا لمدينة بلسيوم من نفس الطريق، عقب توسع إمبراطوريتهم غرب البحر المتوسط، وقاموا بغزو البلاد وفتحوها. وأخيرا، وقبل حلول عصر كليوباترا بما يقرب من مائتين وخمسين عاما، عندما قهر، الإسكندر الأكبر، الإمبراطورية الفارسية، استولى على مصر، وأخضعها لسطوته ضمن مقاطعات فارسية أخرى. وعند تقسيم إمبراطوريته، عقب وفاته، آلت مصر لأحد قادته، ويدعى بطليموس. فجعلها مملكته، وتركها لورثته عقب وفاته. وخلفه سلسلة من الحكام، ذكرهم التاريخ بأسرة البطالمة - أمراء إغريق، يحكمون المملكة المصرية. وكانت كليوباترا ابنة الملك الحادى عشر من سلسلة الحكام.

وكانت الإسكندرية عاصمة البطالمة. وحتى فتح الإسكندر لمصر، لم يكن بها ميناء بحرى. وكان هناك العديد من الأماكن تصلح لإرساء السفن على امتداد الساحل، ولكن لم يكن هناك مرفأ مميز. ففى الواقع، كانت معاملات مصر التجارية مع باقى العالم قليلة آنذاك، حتى إنها قلما احتاجت لأى ميناء. ومع ذلك، وجد

مهندسو الإسكندر، عند تفقدهم للشاطئ، موقعًا ليس بعيدًا عن المصب الكانوبى للنيل، حيث كانت المياه عميقة، وتوجد أرض مخصصة للإرساء تحميها جزيرة. فأقام الإسكندر مدينة هناك أطلق عليها اسمه. وأكمل المرسى بعمل أنفاق وجسور صناعية. وأقيم فنار شاهق، ظل معلمًا بارزًا فى النهار، ونجمة متوهجة ليلا تستدل به السفن الشراعية الكبيرة التى تمر بالبحر المتوسط. وتم حفر قناة تربط الميناء بالنيل. وأقيمت المستودعات لتستوعب مخزون البضائع. ونوجز القول، أن الإسكندرية صارت عاصمة تجارية كبرى فى التو. وظلت، لعدة قرون، مقر الحكم البطلمى الرائع؛ وكان اختيار موقعها موفقًا بدرجة شديدة لتحقيق الأهداف المنشودة، حتى أنها ما زالت، بعد انقضاء عشرين قرنًا من الثورة والتغيير، أحد مراكز التجارة الأساسية فى الشرق.

الفصل الثانى

البطالمة

إن مؤسس أسرة البطالمة والحاكم الذى وقعت بيده المملكة المصرية، كما ذكرنا، عقب وفاة الإسكندر الأكبر، هو قائد مقدونى فى جيش الإسكندر. واتخذت ظروف ميلاده والأحداث التى أدت لالتحاقه بالخدمة فى جيش الإسكندر طابعًا مميزًا. فكانت والدته وتدعى أرسنوى، رفيقة وصديقة شخصية للملك فيليب، ملك مقدونيا، والد الإسكندر الأكبر. وقام بعقد قرانها على أحد رجال حاشيته ويدعى لاجوس، وبعد فترة وجيزة من الزواج، أنجبت بطليموس. وأولاه الملك فليب نفس القدر والرعاية كما كان يكنهما لوالدته. وكان الولد ينسب إلى والده لاجوس، ولكنه يحظى بمكانة رفيعة وشريفة بالبلاط الملكى، ويتمتع بقدر كبير من الاهتمام كان من الممكن أن يناله إذا كان حقا ابن الملك. وعندما كبر، تقلد مناصب رسمية ذات مسؤلية كبيرة ونفوذ.

وفى غضون ذلك، قام بطليوس باتخاذ إجراء أدى إلى وضعه فى حرج بالغ مع الملك فيليب، رغم أنه وبالوسيلة نفسها وطد صداقته بالإسكندر. فكانت هناك مقاطعة بالإمبراطورية الفارسية تسمى كاريا، تقع فى الجزء الجنوبى الغربى لآسيا الصغرى. وقد

عرض حاكمها أن يزوج ابنته لأحد أبنـــاء الملـــك فليـــب ويـــدعى أريديوس، وهو أخ غير شقيق للإسكندر. فأثار ذلك العـــرض غيـــرة والدة الإسكندر، التى لم تكن والدة أريديوس، واعتقدت أن ذلك جـــزء من مخطط لإظهار أريديوس على الساحة، ومن ثم إعلانـــه وريثـــا لعرش فيليب ؛ بينما كانت تحرص على أن يؤول هذا الإرث العظيم لولدها الإسكندر. وعليه، اقترحت على الإســـكندر أنهـــم ينبغـــى أن يبعثوا برسول للحاكم الفارسى سرا، ليوضح له أنـــه ســـيكون مـــن الأفضل، له ولابنته، أن تتزوج من الإسكندر بدلا مـــن أريـــديوس ويقنعه، إذا استطاع، أن يطلب من الملك فليب أن يقوم بالتعديل.

وسرعان ما انضم الإسكندر للخطـــة، وتعهـــد آخـــرون مـــن الحاشية الملكية، من بينهم بطليموس، بمعاونته فى تنفيـــذها. وذهـــب الرسول. وأسعد حاكم كاريا التعديل الذى أشاروا عليه بـــه. وبـــدت الخطة تسير فى طريق التنفيذ بنجاح، إلى أن اكتشف الملـــك فليـــب، بطريقة أو بأخرى، المكيدة. وعلى الفور، اتجه لغرفة الإسكندر وهو يشتاط غيظا وغضبا. فلم يكن يعتزم أن يرفع أريـــديوس. المجهـــول والوضيع المولد من جهة والدته، على العرش، وعنف الإسكندر بأشد العبارات اللاذعة لتقليله من قدر ذاته برغبته فى الزواج مـــن ابنـــة حاكم فارسى؛ رجل كان، فى أصله، كما قـــال، مجـــرد عبـــد لملك بربرى.

وهكذا باءت خطة الإسكندر بالفشل ؛ وعضب والده بشدة من الجنود الذين تعهدوا بمعاونته فى تنفيذها، فقام بنفيهم جميعـــا خـــارج

المملكة. وكان نتيجة ذلك القرار أن مكث بطيموس بعيدا عن بلده فى المنفى بضع سنوات، حتى تمكن الإسكندر من إعادته، عقب وفاة والده الملك فيليب. وخلف الإسكندر والده ملك على مقدونيا، وعلى الفور، جعل بطليموس أحد أهم قادته. وارتقى بطليموس لينال أرفع الدرجات فى الجيش المقدونى، وأبلى بلاء حسنا فى جميع الحملات الشهيرة اللاحقة للفاتح. وأثناء الغزو الفارسى، تولى قيادة أحد الثلاثة فيالق الكبيرة بالجيش، وقدم مرارا الخدمات الجلية لنصرة سيده. وكان يسند إليه أخطر الأعمال وأشدها، وغالبا ما يقوم بإدارة الشئون ذات الأهمية القصوى. وكان يؤدى كافة مسئولياته بنجاح شديد. فهزم جيوشا، وحطم حصونا، وأجرى معاهدات، ونوجز القول إنه أثبت أعلى درجات المهارة والقوة العسكرية. وذات مرة، أنقذ حياة الإسكندر باكتشاف مؤامرة خطيرة وإفشائها تم إعدادها ضد الملك. وسنحت الفرصة للإسكندر برد الجميل، عن طريق الإلهام الذى منحه الله إياه، كما قيل، لغرض بعينه حتى يتمكن من أن يبدى إقراره بالفضل. وكان بطليموس قد أصيب بجرح إثر سهم مسموم، وعندما عجزت أدوية الأطباء وترياقهم عن شفائه، وأشرف المريض على الموت؛ ترياقهم للإسكندر فى منامه السبيل الفعال لشفائه، والذى بدوره أنقذ حياة بطليموس.

وفى غضون الابتهاج الذى غمر سوزا عندما أتم الإسكندر فتوحاته، تم تكريم بطليموس بمنحه تاجا ذهبيا، وتزوج، فى حفل كبير وموكب عظيم، من ارتكاما، ابنة أحد أشهر قواد الفرس.

وتوفى الإسكندر فجأة، صباح ليلة من الشراب والمرح الصاخب ببابل. ولم يكن له ولد راشد بما يكفى يخلفه فى عرشه، وتقسمت إمبراطوريته الهائلة بين قادته. وكانت مصر من نصيب بطليموس. فتوجه، على الفور، إلى الإسكندرية، على رأس جيش كبير وجمع غفير من الخدم والأتباع، وبدأ عهدا استمر، فى ازدهار وروعة، قرابة أربعين عاما. وخضع أهل مصر للرق والاستعباد. وكان الإغريق هم من يشغل المناصب بالجيش وجميع المراكز الرفيعة والمسئولية بالحياة المدنية. وصارت الإسكندرية مدينة إغريقية، وأصبحت أحد أهم المراكز التجارية البحرية. والآن، وجد الرحالة الرومان والإغريق لغة بمصر يمكنهم فهمها، واستطاع العلماء والفلاسفة إشباع فضولهم الذى شعروا به طويلا، فيما يتعلق بالمنشآت والآثار وخصائص البلاد الطبيعية، بمتعة وأمان. ونوجز القول، إن تأسيس حكومة إغريقية بمملكة عريقة، وإقامة العلاقات التجارية العظيمة بمدينة الإسكندرية، عمل على إخراج مصر من عزلتها وانعزالها إلى الاتصال، إضافة إلى وقوعها تحت أنظار باقى العالم.

وفى الواقع، جعلها بطليموس مركزا خاصًا لسياسته لتحقيق هذه الغايات. فدعا جموعا غفيرة من العلماء والفلاسفة والشعراء والفنانين للمجيء للإسكندرية، وجعل العاصمة مقاما لهم. كما قام بجمع مكتبة هائلة أصبحت فيما بعد، تحت عنوان مكتبة الإسكندرية، واحدة من أشهر جموع الكتب والمخطوطات التى لم يسبق لها مثيل. وسنتحدث عنها بصفة خاصة فى الفصل التالي.

وإلى جانب حرصه على تنفيذ هذه الخطط الرائعة لتعظيم شأن مصر، فقد انهمك بطليوس، أثناء فترة حكمه كلها تقريبًا، بشن الحروب المستمرة على الدول المحيطة. وكان انشغاله بتلك الحروب بغرض توسعة حدود إمبراطوريته من جانب، والدفاع عن نفسه ضد هجمات القوى الأخرى وتعدياتهم ونجح أخيرا في تأسيس مملكته على أساس ثابت ومستقر، وعندما بلغ من العمر ما بعد الثمانين عاما، وأوشك على مفارقة الحياة، تنازل عن عرشه لأصغر أبنائه، وكان يسمى بطليموس هو الآخر. وذكر التاريخ بطليموس الأب، مؤسس أسرة البطالمة، باسم بطليموس سوتر. وأطلق على ولده بطليموس فيلاديلفس. ورغم أن هذا الابن أصغر أبنائه، فإنّه كان يعد أفضل إخوته كوريث للعرش لأنه ابن لأكثر زوجات الملك قربا وحبا. ولكي يضمن سوتر العرش لهذا الابن من بعده، قرر التنازل له عنه قبل وفاته، حتى يمنع النزاع بين إخوته على من يخلفه. وأقيم حفل تتويج من أروع وأجل الاحتفالات التي لم يسبق أن نظمتها العروض والمواكب الملكية. وبعد عامين توفي بطليموس الأب، وشيعه ولده بنفس روعة المراسم التي توجه بها والده، وأودع جثمانه بضريح رائع كان قد تم تشييده للإسكندر. وشعرت البشرية بتوقير بلغ ذروته لمآثره البطولية وحكمه الرائع، ودام بذاكرتها هذا الشرف السامي. وكان ذلك هو أصل السلالة البطلمية العظيمة.

وحذا بعض من طابور الحكام الذين جاءوا من بعده حذو هذا المثال الرائع لمؤسسهم المتميز الذي انحدروا من سلالته؛ ولكن

سرعان ما اندثر هذا المثال وخلفه من يشوبهم التفسخ والانحطاط، وبدأ الحكام اللاحقون يعيشون ويحكمون لأنفسهم ولإشباع أهوائهم وميولهم الحسية. فأحيانا ما يبدأ الانغماس فى الشهوات بهدوء، ولكنه دائما ما ينتهى بوحشية مفرطة لا يمكن كبحها. وفى النهاية، أصبح البطالمة أبغض الطغاة وأشدهم الذين لم يسبق للسلطة المطلقة اللامسئولة أن أنجبت أمثالهم. وكانت تشوبهم رذيلة واحدة، على وجه الخصوص، يبدو أنهم اكتسبوها من الدول الآسيوية بالإمبراطورية الفارسية، والتى نجم عنها أبشع الآثار. وهى سفاح القربى (غشيان المحارم).

فشريعة الله، ليس فقط فى الكتاب المقدس، بل فى النزعة الفطرية للنفس البشرية، تحرم الزواج بين هؤلاء ممن تربطهم صلة قرابة. وترتكز حتمية هذا القانون على اعتبارات لا يمكن الاستفاضة فى تفسيرها كاملة هنا. ولكنها اعتبارات نشأت عن أسباب تتعلق بطبيعة الإنسان الحقيقية ككائن اجتماعى، وهى ذات قوة كونية سرمدية لا يمكن تجاوزها. ليقى مخلوقاته من العواقب البائسة، بدنيا وأخلاقيًا، التى قد تنجم عن تلك الممارسات لمثل هذا الزواج. فرسخ خالق الكون العظيم فى عقولنا شعورًا غريزيًّا بجرمها، قويًا بما يكفى لإعطاء الإنذار بخطورتها، وكونيًا ليبعث على إدانة بينة لها، حتى يتسنى إدراجها فى كل دستور لقانون مدون سبق أن ذاع بين الجنس البشرى. ولكن ملوك الفرس سحقوا بأقدامهم كل القوانين، ومارسوا كافة أشكال زواج المحارم دون خجل. وحذا البطالمة حذوهم.

وتتجلى أحد أبرز المشاهد لطبيعة الحياة العائلية لسفاح القربى التى تقدم لنا بانوراما شاملة موحشة بغيضة للجريمة والرذيلة الوثنية، فى تاريخ الجد الأكبر لكليوباترا الذى يعد الموضوع الرئيسى لهذه القصة. وهو بطليموس فيسكون، السابع فى طابور الحكام. ومن الضرورى أن نسرد بعضًا من مفردات تاريخه، وأخرى من تفاصيل حياته العائلية، من أجل شرح الظروف التى ظهرت فيها كليوباترا على مسرح الأحداث. وأطلق عليه اسم فيسكون أساسا، الذى صار، فيما بعد، لقبه التاريخى، كنوع من الازدراء والسخرية. وكان قصير القامة، ولكن نهمه وانغماسه فى الشهوات جعله بدين الجسد بدرجة كبيرة، حتى بدا أقرب للمسخ فى هيئته عن الإنسان. وفيسكون كلمة إغريقية، تدل على ازدراء الشكل السخيف الذى كان عليه.

ولا تشير الظروف التى ارتقى بها بطليموس فيسكون العرش إلى شخصيته فحسب، بل هى تجسيد بليغ، رغم بشاعته، للسلوكيات والأخلاق التى سادت تلك الفترة. فقد خاض حربًا شعواء طويلة ضد أخيه، الذى كان ملكًا من قبله، ارتكب فيها كل ما يمكن تخيله من بشاعة، وعندما توفى أخوه، خلفته زوجته، التى كانت أخته أيضا، وولده الذى كان لايزال طفلا. وكان هذا الولد هو الوريث الشرعى للعرش، ولم يكن لفيسكون نفسه، كشقيق، الحق فى المطالبة بالعرش فى وجود ولد أخيه الملك المتوفى. وكانت زوجته الملكة تدعى كليوباترا، ذلك الاسم الذى شاع بين أميرات البطالمة، وكان لها، إلى جانب ابنها، ابنة جميلة وصغيرة فى تلك الفترة تدعى كليوباترا

هى الأخرى. وكانت، بالطبع، ابنة الأخت، حيث كانت والدتها الأخت، لفيسكون.

وبعد وفاة زوجها، خططت كليوباترا لأن ترفع ولدها على عرش مصر، وأن تتولى هى إدارة شئون البلاد، كوصية عليه، حتى يبلغ سن توليه العرش. ومع ذلك، كون أصدقاء فيسكون وأعوانه حزبا قويا لمؤازرته. وأرسلوا إليه للمجيء للإسكندرية من أجل المطالبة بحقه فى العرش. وجاء، وأوشكت حرب أهلية جديدة على الاندلاع بين الأخ وأخته، حتى هدأ الصراع بعقد معاهدة، تنص على أن يتزوج فيسكون من كليوباترا، ويصبح ملكا ؛ على أن يجعل ابن كليوباترا من زوجها السابق وريثا له. وجرت المعاهدة مجرى التنفيذ فيما يتعلق بحفل الزواج من الأم، وتنصيب فيسكون على العرش. ولكن بدلاً من الإخلاص للصبى، اعتزم المسخ الغادر قتله ؛ وكانت أفعاله شديدة الوْحشية وغير مقيدة بضوابط فى العنف والقسوة، حتى أنه أقدم على ارتكاب فعلته بنفسه، فى يوم هادىء، وفر الولد وهو يصرخ، واحتمى بأحضان والدته، فطعنه فيسكون وقتله وهو بين ذراعيها، ليقدم لنا مشهدا لزوج حديث الزواج، يقتل ولد زوجته بين ذراعيها!.

وليس صعبا علينا أن نتخيل طبيعة المشاعر التى يمكن أن توجد بين زوج وزوجه بعد مثل هذا الصنيع. ففى الحقيقة، لم يكن بينهما حب منذ البداية. وكان زواجهما مجرد ترتيب سياسي. فكره فيسكون زوجه، وقتل ولدها، وبعد ذلك، وكما لو أنه أراد أن يكمل

عرض انعدام المعايير الوحشى لنزواته ورغباته، بأن وقع فى حـب ابنتها. ونظرت الفتاة الجميلة إلى ذلك المسخ القاسى الفؤاد، الذى كان قبيحا مشوها فى جسده كما كان فى عقله، بذعر تام. ولكنها كانت فى قبضته، فأكرهها، بالعنف، على المثول لرغباتـه. وتبـرأ مـن الأم، وأجبر الابنة على أن تصبح زوجته.

وأبدى فيسكون خصال القسوة والطغيان الوحشى نفـسها فـى معاملة رعاياه كما أبداها فى علاقاته الأسرية. ولا يمكننا الخوض فى التفاصيل هنا، ولكن يمكننا القول بأن وحشيته أصبحت لا تغتفر على الإطلاق، واندلعت ثورة هائلة أدت إلى فراره من البلاد. ونجا بنفسه، عندما حاصر عامة الشعب القصر وأشعلوا به النيران، رغبـة فـى إحراق الطاغية وكل من شاركه فى جرائمه معا. وجاهـد فيـسكون ليتمكن من الفرار. واتجه إلى جزيرة قبرص، واصطحب معه ولـدا جميلا، ولده من كليوباترا التى طلقها؛ فقد تزوجا لوقت طويل وأنجبا غلاما. وكان يدعى ممفيتيس. ونظرا لتعلـق والدتـه الـشديد بـه، اصطحبه معه فيسكون، حتى يضمن حسن تصرف والدتـه. حيـث ظن، عند فراره، أنها قد تحاول الاستحواذ على العرش. .

وصدق ظنه فى ذلك الشأن. حيث احتشد أهـالى الإسـكندرية حول كليوباترا وطالبوها أن تأخذ تاج الملك. وفعلت ذلـك، وعندئـذ انتابتها بعض الظنون، بشأن الخطر الذى قد تجلبه مثل هذه الخطـوة على ولدها الغائب. ومع ذلك، طمأنت نفسها بأن ولـدها بـين يـدى والده، ولا يمكن له أن يقدم على إيذائه.

وبعد انقضاء القليل من الوقت، بدأت كليوباترا تمسك بزمام السلطة العليا بالإسكندرية، واقترب عيد ميلادها، وبدأ الإعداد للحفل بأروع الوسائل. وعندما جاء اليوم، احتفت المدينة بأسرها بسعادة وسرور، وأقيمت الاحتفالات الكبيرة بالقصر، وتم عرض الألعاب والعروض والمشاهد المسرحية المتنوعة فى كافة ربوع المدينة. واستمتعت كليوباترا نفسها بالحفلات الرائعة التى أقيمت للوردات ونساء الحاشية وقواد الجيش، فى أحد القصور الملكية.

ووسط هذا المشهد من الابتهاج والمتعة. جاءت أخبار للملكة عن وصول صندوق كبير لها. وقاموا بإحضاره إلى الغرفة. وكان مظهره يوحى بأنه يحمل هدية عظيمة داخله، قام صديق ما بإرسالها فى ذلك الوقت كهدية بمناسبة عيد ميلادها. وأثار الصندوق المزركش الغامض فضول الملكة للتعرف على ما بداخله. فأمرت بفتحه؛ والتف الحضور حوله، وكل منهم شغوف لأن يكون أول من يرى ما بداخله. وتم نزع الغطاء، ورفع القماش الذى أسفل منه، عندئذ ساد ذعر لا يوصف كل من رأى المشهد، فكان الصندوق يحتوى على رأس ولد كليوباترا الجميل ويديه، وسط كتل من اللحم لباقى أجزاء جسده الممزق إربا. وتركت الرأس كاملة حتى يمكن لوالدته البائسة أن تتعرف عليه من ملامح وجهه الميت الشاحب. وكان فيسكون قد أرسل الصندوق إلى الإسكندرية، وأوصى بأن يبقى حتى مساء عيد الميلاد، وأن يقدم لكليوباترا على الملأ، وسط مشهد اللهو والمرح. ويبرز الصراخ والبكاء الذى ملأ غرف القصر، عند نظرتها الأولى للمشهد
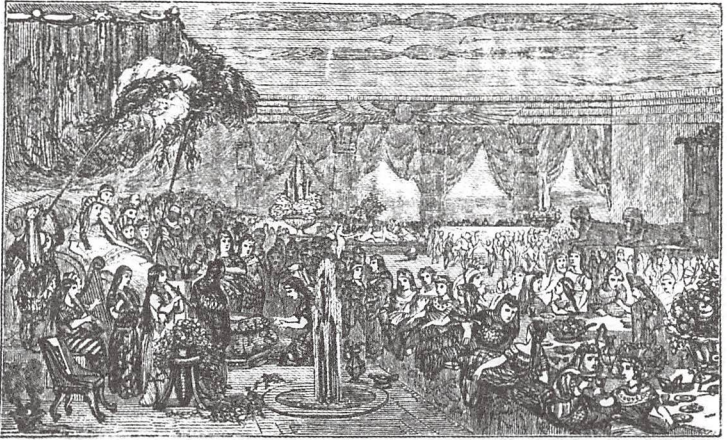
THE BIRTH-DAY PRESENT

هدية عيد الميلاد

المروع، وآلام الحزن الطويل الذى لا يتعزى عنه عقب ذلك، كيف أتقن الطاغية حيلته الوحشية لتحقق ما يصبو إليه.

ولا توجد متعة فى سرد هذه الأحداث، ونحن على يقين أن قراءنا لا يجدون متعة فى قراءة مثل هذه القصص المروعة بوحشيتها الدموية. ومع ذلك، فهو أمر ضرورى من أجل تقييم عادل للشخصية الرئيسية لموضوع هذا التاريخ، فكان لابد أن ندرك طبيعة المؤثرات الأسرية التى سادت العائلة التى انحدرت منها. وحقا، إنه أمر ضرورى، كشىء من أبسط صور العدل عند الحكم عليها، أن نعرف ماهية هذه المؤثرات، وما هى النماذج التى تعرضت لها فى

طفولتها؛ لأن الامتيازات والحسنات التى يستمتع بها الصغار منذ بداية حياتهم من ناحية والمؤثرات الذميمة التى يقعون تحت وطأتها من ناحية أخرى، تؤخذ جديا بعين الاعتبار عند الحكم على الحماقات والخطايا التى يقعون فيها لاحقا.

نعم، لقد عاش المسخ فيسكون قبل كليوباترا العظيمة بما يقرب من جيلين أو ثلاثة أجيال ؛ ولكن شخصية الجيل الوسط، وحتى ميلادها، دامت على نفس المنوال. وفى الواقع، لم تندثر الوحشية والفساد والرذيلة التى سادت كل فروع العائلة المالكة، بل ازدادت. فالفتاة الجميلة، ابنة أخت فيسكون، والتى أبدت، وقت إكراهها على الزواج منه، البغض الشديد له، تحولت، عقب وفاة زوجها، إلى مسخ كبير من الطموح والأنانية والوحشية كما كان هو. وكان لها غلامان لاثروس والإسكندر. وعند وفاة فيسكون، ترك لها مملكة مصر بوصية، ومنحها لها الحق فى مشاركة أى ممن تختاره من الغلامين فى الحكم. وكان الابن الأكبر هو الأصلح، لأسبقيته فى المولد ؛ ولكنها اختارت الأصغر، اعتقادا منها أنها ستستمتع بسلطة مطلقة عند مشاركته فى الحكم، لأنه سيكون خاضعا لسيطرتها التامة. ولكن السلطات القيادية بالإسكندرية قاوموا هذه الخطة، وأصروا على مشاركة كليوباترا لابنها الأكبر لاثروس فى حكم المملكة. واضطروها لإعادة لاثروس من المنفى الذى كانت قد أرسلته إليه، ورفعه على العرش. وأذعنت كليوباترا لهذا الإلحاح، ولكنها أرغمته على تطليق زوجته والزواج بأخرى، ظنت أنها ستكون خاضعة لإرادتها. ومضت الأم والابن معا فى الحكم لفترة من الوقت، ونظرا

لأن لاثروس ملكا بالاسم، رغم إصرارها على أن تكون هى من يدير شئون البلاد، وصراعه لمجابهة طغيانها المفـرط، صـارت حيـاة الأسرة مشهدًا للمشاحنات البشعة المستمرة.

وأخيرًا، ألقت كليوباترا القبض على عدد من أتباع لاثـروس المخلصين الذين كانوا يعملون بمراكز مختلفة بالقصر، وبعد طعـنهم والتمثيل بهم بطريقة بشعة، أظهرتهم للعامة وأخبرتهم أن لاثـروس هو من أنزل بهم هذه الإصابات الوحشية، وطالبتهم بـالنهوض مـن أجل معاقبته على جرائمه. وبهذه الطريقة وأخرى مشابهة، أيقظـت روح العداء ضد لاثروس بين رجال الحاشية وأهل المدينة، فطـردوه من البلاد. وترتب على ذلك سلسلة طويلة مـن الحـروب الوحـشية الدامية بين الأم والابن، ارتكب فيها كل منهما كل ما يمكن تخيله من الجرائم والأعمال الوحشية ضد الآخر.

وكان الإسكندر، الابن الاصغر، خائفا جدا من والدته البـشعة، فلم يحتمل بقاءه معها بالإسكندرية فذهب بإرادته إلى ما يشبه المنفى. ولكنه عاد إلى مصر فى النهاية. وظنت والدتـه أنـه يرغـب فـى زعزعة سلطتها فى الحكم، وقررت أن تقضى عليه. فعلـم بمكرهـا وبسبب يأسه من الضغط الذى لا ينتهى بسبب طغيانها الشديد، قـرر أن يقتلها حتى يضع نهاية للقلق والفزع الذى يعيش فيه، وقتلها ثم فر من البلاد. وعندئذ عاد أخوه لاثروس وحكم ماتبقى من عمره بدرجة سمحة من الهدوء والسلام. ومات لاثروس، وتـرك المملكـة لولـده بطليموس أوليتس، والد كليوباترا العظيمة.

ولا يمكننا تهذيب الصورة التى عرضت على أذهاننا فى تاريخ هذه الأسرة الشهيرة، عند النظر إلى والدة أوليتس، بالسمات الرجولية القاسية. والمعتقدات التى أبدتها بشدة طوال حياتها البغيضة، كاستثناء للسمات العامة التى ميزت الأميرات التى كانت تظهر على الساحة من وقت لآخر فى صف الحكام. فقد كانت فى طموحها وأنانيتها ووحشيتها الطائشة غير الطبيعية وتغاضيها المطلق عن كافة مبادئ الفضيلة. فى كل علاقاتها الأسرية ليست سوى نموذج ومثال لكل الباقين.

فعلى سبيل المثال، كان لهذه الأم ابنتان يتمسكان بمبادئها ويتبعان سبيلها. وعند المرور بحياتهم، تتضح لنا ماهية المشاعر الأخوية التى سادت أسرة البطالمة. فكان الحال كالتالي:

كان هناك أميران من سوريا، وهى بلدة تقع شمال شرق البحر المتوسط، وليست بعيدة عن مصر، ورغم أنهما أخوان، إلا أنهما يكنان لبعضهما العداء الشديد. فقد حاول أحدهما أن يدس السم للآخر، وبعدها اندلعت الحرب بينهما، وعانت سوريا بأسرها من تخريب جيوشهما. وتزوجت إحدى الأختين، اللتين تحدثنا عنهما، من أحد هذين الأخوين. وكانت تدعى تريفينا. وبعد فترة من الوقت، ولكن رغم أن الحرب كانت مشتعلة بين الأخوين، تزوجت شقيقتها كليوباترا - وهى نفسها التى طلقت من زوجها لاثروس بناء على طلب والدته - من الأخ الآخر. وأثارت كليوباترا غضب تريفينا الشديد بزواجها من خصم زوجها الأبدى، ومن هنا أضيف عداء ومقت الأختين لبعضهما إلى ذلك الذى يكنه كلا الأخوين لبعضهما

ليكتمل مشهد الميول العدوانية غير الطبيعية بين الأقرباء والذى قدمه هذا الصراع للعالم.

ومنذ ذلك الحين، بدأت تريفينا تشعر بميول جديدة لم تكن لديها من قبل تجذبها للصراع، كانت قد نشأت عن رغبتها فى الثأر لنفسها من أختها. فتابعت تطوراته واتخذت دورا فعالاً فى دفعه للأمام حتى اندلعت الحرب. وبدا جانب زوجها، لهذا السبب أو لآخر، أن يربح. وشق زوج كليوباترا طريقه من مكان إلى آخر من البلاد، وأخيرا، ولكى يضمن سلامة زوجته تركها فى أنتيوتش، وهى مدينة كبيرة وحصينة، حيث ظن أنها ستكون بأمان هناك، بينما انهمك هو فى الحرب بمكان آخر، حيث استدعى الأمر تواجده.

وعندما علمت بوجود أختها فى أنتيوتش، حثت تريفينا زوجها على مهاجمة المكان. وعلى الفور، توجه على رأس كتيبة قوية من الجيش، وحاصر المدينة واستولى عليها. وبالفعل، كادت كليوباترا أن تقع فى الأسر، ولكن لكى تفر من ذلك القدر، آوت إلى معبد. وكان المعبد، فى تلك الآونة، مكانا مقدسًا لا تنتهك حرمته. فتركها الجنود هناك. ومع ذلك، طالبت ترفينا زوجها بأن يسلم الهاربة البائسة إليها. وكانت قررت، كما قالت، أن تقتلها. فاحتج زوجها على ذلك العرض الوحشى. وقال: " إن قتلها سيكون عملاً وحشيًا لا جدوى منه، فهى لن تسبب لنا ضررا أثناء الحرب القادمة، بينما سيخلف قتلها، فى ظل هذه الظروف، سخط زوجها وأصدقائها علينا، ويشد من عزمهم ما تبقى من الحرب. إلى جانب احتمائها بمعبد إذا

ما انتهكنا قدسيته سينالنا غضب من السماء بتلك الفعلة. ولا تنسى أنها أختك، وإذا ما قمت بقتلها فسترتكبين جريمة غير سوية ولا تغتفر".

وبقوله ذلك، طالب تريفينا أن تكف عن الحديث فى هذا الموضوع، فلن يقبل، لأى سبب، أن ينال كليوباترا ضرر.

وأثار زوج تريفينا غضبها الجنونى وحنقها الشديد لرفضه الامتثال لطلبها. وأشعل موقفه لمناصرة أختها، واهتمامه بمصيرها غيرتها. وتراءى لها، أو ادعت أنه تراءى لها، أن دفاع زوجها الحار عن شقيقتها إنما ينبعث بدافع مشاعر الحب الذى يكنه لها. والآن تحول البغض من مجرد عدو إلى خصم، وقررت أنه لابد من قتلها فى جميع الأحوال. وعلى الفور، أمرت مجموعة من الجنود أن يقوموا باقتحام المعبد، ويمسكوا بها. ففرت كليوباترا إلى المذبح فى ذعر، وتشبثت به بقوة شديدة، فاضطرت الجنود لقطع يديها قبل أن يشدوها، فجن جنونها بمقاومتها لهم ورؤية الدم، فطعنوها مرارا على أرض المعبد حيث سقطت. وكانت الصرخات المدوية التى ملأت بها الضحية البائسة الأجواء، فى اللحظات الأولى من فرارها وذعرها، قد خمدت عندما خمدت روحها بأشد اللعنات التى حلت من السماء على رأس الأخت غير السوية التى دمرتها كراهيتها المضمرة.

ورغم هذه النماذج التى عرضناها لسمات هذه العائلة وصنيعها، غير السوى، فيعد حكم هذه الأسرة، ممتدا، مرورًا بحكم ثلاثة عشرة حاكما فيما يقرب من ثلاثة مائة عام تقريبًا، من أكثر الحكومات تحررًا وتثقيفا وازدهارًا فى العصور القديمة. وسوف

نعرض فى الفصل التالى الأحوال الداخلية للبلاد عندما اعتلى هؤلاء الأناس، الذين اتسموا بالعنف، العرش. ونضيف هنا، أنه كل من ينزع، عند مشاهدة الطموح والأنانية والروح الفردية والمكائد الوضيعة والسلوك الأخلاقى غير السوى الذى يظهره رجال الدولة والحكام الجدد فى حياتهم السياسية والخاصة، أن يؤمن بانحطاط وانحلال الشخصية القومية بمرور الزمن كلما تقدم العالم، فسيكون جليا تماما، من قراءة التاريخ الكامل لهذه الأسرة بيقظة وتدبر، أن القصة تقدم لنا، عموما، عرضًا صادقا وعادلاً للشخصية العامة للأناس الذين حكموا العالم، فى العصور القديمة.

الفصل الثالث

الإسكندرية

لا يمكن للقارئ أن يتخيل أن مشاهد الانغماس في الـشهوات الآثمة، والوحشية الطائشة والجريمة، التي عرضت بهـذا التكـرار المروع، وانتقلت لهذا الإفراط الهائل في قصور الملوك المـصريين، تفشت بنفس القدر بين أفراد المجتمع أثناء فترة حكمهم. فكانت الإدارة الداخلية للحكومة، والقوانين التي نظمت المهـن الـصناعية لعامـة الشعب، وحفظ الأمن والنظام، والعدالة بين رجل وآخر، بتلك الآونة، بأيدي رجال مؤهلين، بصورة كلية، للمناصب المسئولة منهم ؛ وعلى درجة جيدة من الإخلاص في أداء واجباتهم ؛ وبذلك جرت الـشئون المعتادة للحكومة والروتين العام للحياة الاجتماعية والعائليـة، رغـم إسراف الملوك، في طريق الأمن والازدهار والسعادة . وفي كل مائة عام من المئات الثلاثة التي امتد خلالها تـاريخ البطالمـة، يعـرض الطول والعرض الكامل لأرض مصر، مع بعض الفواصل القليلـة، مشهدًا واسع المدى من الكد الدءوب. فيأتي الفيـضان فـي موسـمه المنتظر، ويعود بانتظام. وتزرع الحقول اللامتناهية التـي خـصبتها المياه في كل مكان. وتحرث الأرض؛ وتبذر البذور؛ وتفتح أو تغلـق القنوات والمجاري المائية التي خلفها النهر بكل اتجاه علـى سـطح

الأرض، حسب الاحتياج، من أجل تنظيم الري. فالسكان منشغلون، وبالتالى، هم فاضلون. ولأن السحب والعواصف قلما، أو قد لا، تغزو جو السماء بمصر أبدا، فيبدو المشهد للعين بالسمة نفسها التى لا تتغير من الخضرة والجمال الدائم يوما بعد يوم، وشهرا بعد شهر، حتى تنمو الحبوب، وتجمع داخل المخازن، وتهيأ الأرض لفيضان آخر.

ونقول إن الشعب تمتع بالفضيلة بسبب انشغاله ؛ حيث إنه لا توجد قاعدة فى الاقتصاد السياسى راسخة وأكثر ثباتا من أن الرذيلة فى المجتمع هى نتيجة وعرض من أعراض البطالة. فهى دائمًا ما تتفشى بين تلك الطبقات الكثيفة السكان الذين إما أنهم تم انتشالهم من الفقر والعوز بامتلاك ثروة ثابتة لا تتبدد، أو تم استبعادهم بفقرهم وانحطاتهم من التميز، من العمالة النافعة. فالثروة غير الخاضعة لرقابة، وتخضع لسيطرة من يمتلكها، حتى إنه يستطيع، إذا أراد، أن يشغل نفسه بإدارتها، بينما قد تصنع أفراذا فاسدين أحيانا، فهى عامة لا تفسد طبقات من الناس، حيث لا تجعلهم عاطلين. ولكن حيث إن مؤسسات البلاد هى التى تنشئ طبقة أرستقراطية، يعتمد دخلها على الأملاك الموقوفة أو السناهية الدائمة، لذلك لا يمكن أن يمنحهم المال الذى يعيشون عليه أى انشغال ذهنى، فحكم عليهم بالكسل والتراخى الحتمي. فتكون المتع الفاسدة والانغماس فى الشهوات، فى مثل هذه الطبقة بأسرها، هى النتيجة الحتمية المؤكدة ؛ حيث أعد خالق الكون المتع المباحة للإنسان، ونظمها لتكون فى فترات الراحة والاسترخاء

من حياة العمل. ودائمًا ما تكون غير كافية على الإطلاق لإرضاء من يجعل المتعة هى الغاية والهدف من وجوده.

وبالطريقة نفسها، إذا ما كان هناك، إما بفعل المؤسسات الاجتماعية للبلاد أو من جراء الأسباب الطبيعية التى لا تخضع لسيطرة قوى البشر، فئة دنيا ومنحطة وبائسة من الناس لدرجة أنه لا يمكن إقناعهم بالوسائل المعتادة واستمالتهم للكد اليومى، فبالتأكيد سيصبحون فاسدين ومنحلين، حيث إن لفظة انحطاط أصبحت مرادفة تقريبًا للرذيلة فى كل اللغات. وبالفعل، هناك العديد من الاستثناءات لهذه القواعد العامة. فالعديد من الرجال العاملين ببراعة أشرار؛ وهناك أمثلة متعددة لأعلى درجات الفضيلة بين الملوك والنبلاء. ولا تزال القاعدة العامة، بلا ريب، تؤكد أن الرذيلة هى فعل البطالة؛ وأن نطاق وجودها فى قمة المجتمع وفى قاعه- وتلك هى المناطق التى يهيمن عليها التبطل. وأفضل علاجات الرذيلة هى العمل. ولكى نصنع مجتمعًا فاضلاً، لابد وأن يجد كافة فئاته وطبقاته، من الأعلى إلى الأدنى، شيئًا يفعلونه.

وطبقًا لهذه القواعد، نلاحظ أنه بينما بدت أقصى درجات الفساد البغيضة تهيمن بصورة مطلقة ومستمرة على قصور البطالمة، وبين أشراف حاشيتهم، ووزراء الدولة العاملين، ومن ألقى على عاتقهم الوظائف الحكومية الفعلية، فقد قاموا بأداء واجباتهم بحكمة وأمانة، وساد قدر كبير من الكد والازدهار والسعادة بين كافة الفئات والدرجات المألوفة للمجتمع عامة، ولم يعم هذا الرخاء المناطق

الريفية بالدلتا وعلى امتداد وادى النيل فقط، بل انتشر بين التجار والملاحين والحرفيين بالإسكندرية أيضا.

وبعد انقضاء وقت يسير على تأسيس الإسكندرية، صارت مدينة كبيرة دائمة الحركة. واجتمعت عدة أشياء معا لتجعل منها مركزا تجاريا كبيرا. ففى بادئ الأمر، كانت مستودعا للصادرات لجميع فائض الحبوب والحاصلات الزراعية الأخرى التى كانت تجمع بوفرة على امتداد الوادى المصري. وكانت هذه الحاصلات تأتى فى قوارب إلى أعلى موقع بالدلتا حيث يتفرع النهر، ثم عبر الفرع الكانوبى إلى المدينة. ولم تكن المدينة تقع على هذا الفرع مباشرة بل على لسان ضيق من اليابسة، على مسافة قليلة منه، بالقرب من البحر. ولم يكن من السهل الدخول للقناة مباشرة، بسبب المنحدرات والحواجز الرملية عند مصبها، والتى نشأت عن الصراع الدائم بين مياه النهر وأمواج البحر. ومع ذلك، وكما اكتشف مهندسو الإسكندر، كانت المياه عميقة فى المكان الذى أقيمت به المدينة، وعن طريق إقامة الميناء هناك، وحفر قناة إلى النيل، تمكنوا من توصيل النهر بالبحر بيسر وسهولة.

وهكذا، كانت تأتى حاصلات الوادى عبر النهر إلى القناة ومنها إلى المدينة. حيث أقيمت المستودعات والمخازن لاستقبالها، حتى يمكن حفظها بأمان لحين إعداد السفن التى تأتى إلى الميناء لنقلها. وكانت هذه السفن تأتى من سوريا وكافة سواحل آسيا الصغرى واليونان وروما. وكانوا يجلبون معهم الحاصلات الزراعية

من بلادهم، بالإضافة إلى أدوات تصنيع الأنواع المختلفة؛ ويقومــون ببيعها لتجار الإسكندرية؛ ويشترون الحاصلات المصرية فى المقابل.

وهكذا جسد ميناء الإسكندرية صورة للحياة والحركة الدءوبة. فكانت سفن التجار تجيء وتروح، أو تنتظر بمرسى بالمكلأ. وكــان البحارة يرفعون الأشرعة، ويقومون بإرساء السفن، أو يرتبون سفنهم الشراعية الكبيرة داخل صف في المياه، ويغنــون، وهــم يــسحبون، لحركة المجاديف. وكانت الحركة الداخلية للمدينـــة لا تتوقــف هـــى الأخرى، حيث يوجد جماعات يقومون بتفريغ حمولات القوارب التى تصل من النهر عبر القناة، وهناك حمالون ينقلون بآلات من البضائع وشكائر من الحبوب من المستودعات إلى الجسور الممتدة فى البحر، أو من رصيف مرفأ إلى آخر. وكانت مواكــب حــراس الملــك، أو مجيء وذهاب السفن الحربية ترسو أو تأخــذ قــوات مــن الجنــود المسلحين، أحداث وقتية تخترق مشهد الكد الرائع أحيانا لتستوقفه، أو لتزركشه، كما كان يقول الناس حينئذ، ومن آن لآخر، ولفترة وجيزة، تتوقف هذه المهنة الآمنة تماما وتتنحى جانبا بسبب ثــورة أو حــرب أهلية، يشنها إخوة أعداء ضد بعضهم، أو ادعاءات متضاربة بــين أم وولدها. ومع ذلك، كانت هذه التوقفات قليلة نسبيا وغيــر مــستمرة عادة. فكان من مصلحة كافة فروع الصفوف الملكيـــة التقليــل مــن الأضرار بالعمليات الزراعية والتجارية بالمملكة قــدر المــستطاع. حيث اعتمد دخل البلاد على هذه العمليات. وكان الحكام على درايـــة كاملة بذلك، ولهذا، ورغم وجود أميرين متنازعين يكرهان بعضهما،

ورغم مجابهة كل طرف لتدمير جميع المقاتلين النشطاء الذين قد يتكاتفون ضدهم، كان كلاهما، وفى ظل كل الإغراءات، يستثنون الممتلكات الخاصة وأرواح الناس الآمنة. فهؤلاء الناس انهمكوا فى عملهم، وأنشؤوا بفضل كدهم الممتلكات التى كان يتصارع عليها هؤلاء المقاتلون.

ومن هذا المنظور، نرى أن الحكام المصريين، وعلى رأسهم الإسكندر والبطالمة الأوائل، بذلوا قصارى جهدهم للارتقاء بعظمة الإسكندرية من الناحية التجارية. فشيدوا قصورا، ولكنهم أنشؤوا مستودعات للتخزين أيضا. واعتبر فنار الإسكندرية، الذى أشرنا إليه من قبل، واحدًا من أروع وأشهر الصروح التى شيدوها. فكان عبارة عن صرح شاهق الارتفاع من الرخام الأبيض، يقع على جزيرة فاروس فى مواجهة المدينة، على مسافة قليلة منها. وكان هناك برزخ من المياه الضحلة والكتل الرملية يربط الجزيرة بالشاطئ. وتم بناء جسر أو ممر فوق هذه المياه الضحلة، وأصبح مكانا شاسعا مأهولاً فيما بعد. ومع ذلك، كان أهم جزء فى المدينة القديمة هو الجزء الرئيسى(*).

ونظرًا للانحناء الموجود بسطح الأرض، كان لا بد من ارتفاع معين من أجل إقامة فنار على الساحل، وإلا فلن تلوح قمته فى الأفق، إلا اذا كان البحار على مقربة منه. وللوصول إلى الارتفاع المطلوب،

(*) انظر إلى خريطة دلتا النيل ص : ٢١ ؛ وايضا مشهد الإسكندرية ص : ١٣٠.

كان على مهندسى المعمار اختيار موقع مرتفع أو منحدر صخرى شاهق بالقرب من الشاطئ. ومع ذلك، لم تكن هناك فرصة لعمل ذلك بجزيرة فاروس؛ حيث كانت الجزيرة، مثل الجزء الرئيسى للمدينة، مستوية ومنخفضة. ولذلك، كان السبيل الوحيد للوصول للارتفاع اللازم عن طريق تشييد صرح شاهق، وكانت قوالب الرخام اللازمة لإتمام العمل تنقل من مسافة كبيرة. وبنى فنار الإسكندرية فى عهد الملك فيلاديلفس، ثانى ملوك البطالمة. ولم يدخر مالا ولا جهدا فى تشييده، وعند الانتهاء من هذا الصرح، أصبح أحد عجائب الدنيا السبع. ومع ذلك، فهو يدين بشهرته، إلى حد ما، بلا شك لموقعه المميز حيث يرتفع عاليا، كما كان، فى مدخل أكبر مركز تجارى آنذاك، منتصبا هناك، كالسحاب نهارا والشعلة ليلا، ليلقى نظرة الترحاب على كل بحار تلوح سفينته فى الأفق، ويبدى امتنانه بإرشاده له وتخليصه من مخاوفه.

ويصدر الضوء المنبعث من قمة الفنار عن الوهج الصادر من اشتعال المواد القابلة للاحتراق. وكانت تحترق ببطء أثناء النهار، ثم تضاء مرة أخرى عندما تغيب الشمس، وتزود باستمرار بوقود جديد طوال الليل. وفى العصر الحديث، تم التوصل إلى طريقة اقتصادية وملائمة لإنتاج الإضاءة اللازمة. فكان هناك مصباح يسطع وسط مشكاة الفنار، وكان كل ذلك الاشعاع المنبعث من التوهج والذى كان يضيء أعلى وأسفل وجانبًا وخلفًا باليابسة، يدار بنظام دقيق من العواكس والعدسات المتعددة الاتجاهات، وقد تم استنباطه ببراعة

وضبطه بدقة متناهية، ليلقى شريحة عريضة ساطعة وثاقبة من الضوء أمامًا أينما اتجه حيث المكان الذى يحتاج إضاءة، من سطح البحر. وقبل إتمام هذه الاكتشافات، كان الكم الأكبر من الضوء المنبعث من الفنار إما أن يفقد فى البر، أو يتيه بين النجوم .

وبالطبع، كان إنشاء صرح مثل فنار الإسكندرية، واستمراره فى أداء مهمته، مجدًا رائعًا، ومع ذلك، فهناك سؤال قد يطرح نفسه بطبيعة الحال، إذا ما كان المجد يعود إلى المهندس الذى أتم العمل بمهارته العلمية، أم إلى الحاكم الذى كان يدعم المهندس بموارده وسلطته. فكان المهندس إغريقيا ويدعى سوسطراتس، أما الحاكم، كما ورد إلينا، هو بطليموس الثانى ويدعى فيلاديلفس. وكان بطليموس قد أمر أن تبنى لوحة من الرخام على جدارالصرح، عند الانتهاء منه، بمكان مناسب بالقرب من قمته، وأن ينقش عليها اسمه بوضوح بصفته منشئ هذا الصرح. وفضل سوسطراتس كتابة اسمه هو. وعليه، قام بصنع اللوحة ووضعها بمكانها. وكان قد نقش عليها اسمه بحروف إغريقية. وفعل ذلك سرًا، ثم قام بتغطية سطح اللوحة بمادة من الجير حتى تعطى الشكل الطبيعى للرخام. وعلى السطح الخارجى لها، قام بنقش اسم الملك. وبمرور الوقت تلاشى الجير، واختفى اسم الملك، وظهر اسمه الذى خلد بخلود البناء.

وقيل إن ارتفاع الفنار بلغ أربعمائة قدم. وذاع صيته فى جميع أنحاء العالم لعدة قرون؛ ومع ذلك، لم يتبق منه الآن سوى ركام من أطلال ليس لها معنى ولا جدوى.

فإلى جانب الضوء الذى كان ينبعث من قمة هذا الصرح الشامخ، كان هناك مصدر إشعاع وتنوير آخر بالإسكندرية القديمة، ولايزال، إلى حد ما، بارزًا ومعروفًا، ويتمثل فى متحف ومكتبة ضخمة أقامهما وأبقى عليهما البطالمة. ولم يكن المتحف الذى تأسس أولاً، بالاسم الذى يعنيه الآن، مجموعة من التحف النادرة، ولكن مؤسسة للتعلم، تتألف من مجموعة من المتعلمين الذين كرسوا أنفسهم للسعى وراء العلم والفلسفة. وكان للمؤسسة مواردها، وأقيمت أبنية رائعة للاستفادة منها واستخدامها. وبدأ الملك الذى أقامها فى جمع الكتب التى تفيد أعضاءها. وتكلف ذلك نفقات عالية، حيث كان كل كتاب يضاف للمجموعة يحتاج لأن يدون على قطعة من الجلد أو ورق البردى بعناية واهتمام منقطع النظير. وتم تكليف عدد كبير من الناسخين للقيام بهذا المهمة داخل المتحف. وكان الملوك الذين اهتموا بتكوين هذه المكتبة يصادرون الكتب التى يمتلكها أفراد من العلماء، أو تلك التى تم إيداعها بالمدن المختلفة الخاضعة لهيمنتهم، ثم يكلفون الناسخين بالمتحف بإعداد نسخ جيدة منها، ويحتفظون بالنسخ الأصلية بمكتبة الإسكندرية العظيمة، ويعيدون النسخ إلى الأفراد أو المدن التى قد سلبوها منها. وعلى نفس المنوال كانوا يستعيرون من كل المسافرين الذين يزورون مصر أى كتب قيمة فى حوزتهم ويحتفظون بالأصول ويعيدون إليهم النسخ.

وبمرور الوقت، ازدادت المكتبة لتضم أربعمائة ألف مجلد. ولم تكن هناك غرف بمبانى المتحف للمزيد من المجلدات. ورغم

ذلك، كان هناك، بمكان آخر بالمدينة، معبد يسمى سرابيون، وكـان صرحًا فائق الروعة، بل مجموعة من المبانى كرست للإله سرابيس. ولهذا المعبد أصل وتاريخ بارز. والأسطورة كما يلـي: كـان أحـد الآلهة القديمة الممجدة لدى المصريين إله يدعى سرابيس وكان يعبد، ضمن آلهة أخرى، منذ القدم قبل بناء الإسكندرية أو حكم البطالمـة. وبالصدفة البحتة، كان هناك تمثال يطلق عليه نفـس الاسـم أيـضا بمدينة تجارية تسمى سينوب، وتقع على حافة قنة جبلية تنتأ من آسيا الصغرى لبحر أوكسين(*)، وتعد سينوب إسكندرية الـشمال، لكونهـا مركزًا وقاعدة لقدر كبير من التجارة بذلك الجزء من العالم.

وكان الإله سرابيس بمدينة سينوب هو من يحمـى البحـارة، ويقوم الملاحون الذين يجيئون ويذهبون من وإلـى المدينـة بتقـديم القرابين والذبائح والصلوات له، معتقدين أنه، إلى حد كبيـر، يمتلـك قوة غامضة خفية تقوم بتأمينهم من العواصف. وكانوا يحملون معهم اسمه، ومعرفتهم به، وقصص توسطه الخرافى لحمايتهم، إلى كافـة الأماكن التى يرتادونها ؛ وهكذا ذاع صيته فى بادئ الأمر إلى كـل سواحل بحر أوكسين، ثم إلى المقاطعات والممالـك البعيـدة. وسـاد الاعتقاد بأن سرابيس هو الإله الحافظ للبحارة.

ولذلك، عندما قام أول البطالمة بإعداد الخطط المختلفة لتجميل وتوقير الإسكندرية، رأى ذات ليلة فى منامه إشارة سماوية أنه لابـد

(*) انظر إلى خريطة المقدمة.

من أن يحضر تمثال سرابيس من مدينة سينوب، ويقوم بوضعه بالإسكندرية، فى معبد ملائم عليه أن يقيمه فى وقت يسير تشريفا للإله. وسيعود ذلك الإجراء على المدينة بالخير الوفير. ففى المقام الأول، سيكون وجود معبد للإله سرابيس تمييزا جديدًا لها لدى أصحاب العقول البسيطة من العامة اللذين قد يعتقدون أنه تشريف لإلاههم القديم. ثم سيتحول الاهتمام البحرى والملاحى للعالم بأسره، الذى اعتاد عبادة الإله سينوب، إلى الإسكندرية كمركز دينى عظيم، إذا تم نقل الإلاهم الموقر ووضعه بمعبد رائع حديث تم تشييده له خصيصا. ولن تصبح الإسكندرية أبدًا الميناء والموقع البحرى الرئيسى بالعالم، إذا لم تحتو على ضريح مقدس لإله البحارة.

وبعث بطليموس إلى ملك سينوب يطلب منه شراء الإله. وخاب رجاؤه فى المبعوث . ورفض الملك التخلى عن الإله. واستمرت المفاوضات بينهما لمدة عامين، ولكنها باءت بالفشل. وبعد مضى وقت طويل، وبسبب بعض الاضطرابات فى المسار المعتاد للفصول الموسمية على ذلك الساحل، حدثت هناك مجاعة بلغت ذروتها، لدرجة أقنعت أهل المدينة بالموافقة على التنازل عن إلاههم للمصريين مقابل إمدادهم بالحبوب. وبالفعل، أرسل بطليموس الحبوب وحصل على الإله. ثم بنى المعبد الذى، عند الانتهاء منه، فاق تقريبا كل الأبنية المقدسة على مستوى العالم فى الروعة والجمال.

وفى هذا المعبد، تم إيداع الملحقات التالية لمكتبة الإسكندرية، عندما امتلأت غرف المتحف. وفى النهاية، صار هناك أربعمائة ألف

مجلد بالمتحف وثلاثة مائة ألف أخرى بسرابيون، وسميت الأولى بالمكتبة الرئيسية. والثانية الفرعية، أو كما يقال لها الابنة.

وكان فيلاديلفس، الذى شغل نفسه إلى حد كبير بتجميع هذه المكتبة، يرغب فى أن يجعلها مجموعة متكاملة لكل الكتب الموجودة فى العالم. فكلف علماء للقراءة والاطلاع، ورحالة لعمل جولات شاملة، بغرض التعرف على الكتب الموجودة بين كافة الدول المحيطة ؛ وعندما كان يعلم بوجودهم، فلا يدخر مالا ولا يألو جهدا فى محاولة الحصول إما على الأصول نفسها، أو أدق وأصح النسخ منها. فأرسل إلى أثينا وحصل على أعمال أشهر المؤرخين الإغريق، وقام بإصدار أفضل النسخ منها، ثم أعاد النسخ المطابقة إلى أثينا، ومعها مبلغ كبير جدًا من المال تعويضًا عن اختلاف القيمة بين الأصل والنسخة فى مثل هذا التبديل.

وأثناء تمحص بطليموس فى آداب الدول المحيطة من أجل إثراء مكتبته، نما إلى علمه احتفاظ اليهود ببعض الكتب المقدسة فى معبدهم بالقدس، وأنها تضم تاريخًا مفصلاً وهامًّا عن أمتهم منذ القدم، والعديد من الكتب الأخرى عن الوحى الإلهى المقدس وبعض القصائد. ولم تكن هذه الكتب، كتب العهد القديم العبرية المقدسة، معروفة لأى من الأمم سوى اليهود آنذاك، ومن بين اليهود الكهنة والعلماء فقط. وتم الاحتفاظ بها فى القدس. واعتبر اليهود أن اطلاع الأمم الوثنية عليها تدنيس لها. وفى الواقع، لم يكن لدى رجال العلم فى الدول الأخرى القدرة على قراءتها ؛ حيث عزل اليهود أنفسهم

تقريبا عن باقى الجنس البشرى، حتى إنه نادرا ما كانت تسمع لغتهم أبعد من حدود المصلى.

ورأى بطليموس أن وجود نسخة من هذه الكتب المقدسة بمكتبته سيكون إضافة عظيمة. فهى، فى الواقع، تمثل الآداب الكاملة لأمة تعد من أكثر الأمم التى وجدت على سطح الأرض إثارة للجدل. وأدرك بطليموس أيضا فكرة أنه لن يضيف لمكتبته نسخة من هذه الكتب باللغة العبرية فقط، بل لابد من ترجمتها إلى اللغة الإغريقية لكى يفهمها علماء الإغريق والرومان الذين جاءوا بأعداد كبيرة لعاصمته من أجل المكتبات والمؤسسات التعليمية التى أقامها هناك. ولكى يتمكن من إنجاز أى من هذه الخطط، كان عليه أولا أن يحصل على موافقة السلطات اليهودية والتى سترفض بالتأكيد التخلى عن أى نسخة من كتبهم المقدسة على الإطلاق .

وهناك حادثة وقعت، فى هذه الأثناء على وجه التحديد، جعلت بطليموس يتخيل أن اليهود لن ينصاعوا لأى طلب من هذا القبيل، يأتى من ملك مصري. حيث إنه أثناء بعض الحروب التى دارت فى فترات حكم سابقة، قام المصريون بأسر عدد كبير من السجناء، وجاءوا بهم إلى مصر كأسرى، حيث تم بيعهم لأهالي البلدة، وصاروا عبيدًا فى جميع أنحاء البلدة. وعملوا كرقيق فى حرث الأرض، أو فى إدارة السواقى الضخمة لضخ المياه من النيل. وتخيل أسياد هؤلاء العبيد أن لهم حق ملكيتهم . وهذا صحيح إلى حد ما، لأنهم قاموا بشرائهم من الحكومة عند نهاية الحرب نظير مقابل

مادى؛ ورغم أنهم فى هذه الواقعة لم يحصلوا بشكل واضح على حق المالك أو حق الادعاء ضد الأشخاص أنفسهم، ولكن يبدو أنه كان لهم حق الادعاء ضد الحكومة التى ابتاعوهم منها، فى حالة تحريرهم.

وقرر بطليموس أو وزيره المفوض، حيث لا يمكننا أن نعلم من كان المسئول عن أداء هذه المهمة على وجه التحديد آنذاك، تحرير هؤلاء العبيد وإعادتهم إلى وطنهم الأم، كوسيلة لاسترضاء اليهود واستمالتهم من أجل الإنصات إلى الطلب الذى أوشك أن يعطيه الأولوية من أجل الحصول على نسخة من كتبهم المقدسة. ومع ذلك، قام بدفع مبلغ ضخم من المال لمن يملكون الأسرى من أجل عتقهم. ويقول المؤرخون القدماء، الذين لن يسمحوا لرواياتهم أن تعانى من نقيصة فى مبالغة القول، من جهتهم، فى المعايير التى تقوم عليها الأعمال التى يسجلونها، أن عدد العبيد الذين تم تحريرهم فى هذه الواقعة بلغ مائة وعشرين ألف، ويقدر مبلغ التعويض الذى تم دفعه لمواليهم بستمائة، أى ما يعادل ستمائة ألف دولار(*). ومع ذلك، كانت هذه تكلفة مبدئية لتمهيد الطريق من أجل الحصول على سلسلة فريدة من الكتب، لإضافتها للمجموعة المتنوعة الهائلة.

(*) يكفى أن يعى القارئ أن الطالين الإغريقى، المشار اليه فى هذه الصفقة، يعادل مائتين وخمسين جنيها إنجليزى، وألف دولار أمريكى. ومن الدقيق أن نلاحظ أن، بقدر ما كان إجمالى المبلغ الذى تم دفعه لتحرير هؤلاء العبيد كبير، كان المبلغ الذى تم دفعه لكل فرد منهم على حدة، حوالى خمسة دولارات فقط.

وبعد تحرير الأسرى وعودتهم، بعث بطليموس برسول بارع للقدس بخطابات ودية للكاهن الأعلى ومعه هدايا رائعة. وتم استقبالهم بحفاوة. ونال طلب بطليموس الاستحسان فى السماح له بالحصول على نسخة من الكتب المقدسة لإيداعها بمكتبته.

وقام الكهنة بتجهيز نسخ من كل الكتب المقدسة، وتم إعدادها بأروع الأساليب وإضاءتها بحروف من الذهب. وقامت الحكومة اليهودية، بناء على طلب بطليموس، بحشد مجموعة من علماء العبرية بعدد ستة من كل قبيلة - رجال يجيدون كل من اللغة الإغريقية والعبرية - ليتجهوا إلى الإسكندرية ومنها إلى المتحف من أجل إعداد ترجمة دقيقة للكتب من اللغة العبرية إلى الإغريقية. وحيث كان عدد القبائل اثنى عشر قبيلة وتم اختيار ستة مترجمين من كل واحدة منهم، فبلغ إجمالى عدد المترجمين اثنين وسبعين مترجما. وقاموا بإجراء الترجمة، وسميت بالسبعونية نسبة إلى الاثنين وسبعين مترجما الذين أتموا الترجمة فى اثنين وسبعين يوما.

ومع ذلك فبعيدا عن المصلى، لم يكن هناك شعور بتوقير هذه الكتب العبرية المقدسة ككتب سماوية، وكان لا يزال هناك اهتمام شديد بها لدى كافة علماء الإغريق والرومان الذين يأتون للإسكندرية للدراسة بالمتحف كأعمال تاريخية ممتعة ونادرة الوجود. وعليه تم عمل نسخ من الترجمة السبعونية، ونقلها إلى دول أخرى ؛ وهناك وبمرور الزمن، تم عمل نسخ من النسخ حتى انتشر العمل بين العالم المتعلم بأسره. وأخيرا، عندما انتشرت المسيحية بأرجاء

الإمبراطورية الرومانية، ازداد اهتمام القديسيين والرهبان عن العلماء القدماء بتلك الترجمة القديمة كجزء هام من الكتب المقدسة. وقاموا بعمل نسخ جديدة للكنائس والأديرة والمجمعات؛ وعند اكتشاف فن الطباعة، كانت هى من أوائل الأعمال التى أجريت عليها تجربة القوة السحرية للطباعة. أما المخطوطة الأصلية التى صنعها الاثنان وسبعون ناسخا، وكل النسخ القديمة التى صنعت منها، فقد فقدت أو تدمرت على المدى الطويل. ونجد الآن بدلا منها مئات الآلاف من النسخ فى صورة مجلدات مطبوعة منتشرة بين المكتبات النصرانية العامة والخاصة. فالآن، وبعد انقضاء ألفى عام، يمكن اقتناء نسخة من سبعونية البطالمة من أى متجر كتب كبير فى أى بلدة من العالم المتمدن؛ رغم أنها تطلبت سفيرا بارعا، ونفقات، إذا كانت الرواية صادقة، تفوق المليون دولار من أجل الحصول عليها، فيمكن اقتناؤها الآن دون مشقة وبقدر مالى يعادل أجر يومين عمل للعامل المتوسط.

فإلى جانب بناء الفنار، والمتحف، ومعبد سرابيس، قام البطالمة الأوائل بإنشاء وتنفيذ عدد كبير من المشروعات الأخرى بنفس الهدف التى صممت لأجله تلك الصروح الرائعة، وهو تركيز كافة وسائل الجذب الممكنة سواء كانت تجارية أم أدبية أم دينية بالإسكندرية، لتجعل من المدينة أكبر مركز إشعاع وجذب للبشرية جمعاء. وعليه قاموا بجمع مبالغ طائلة من المال لهذه الأغراض وغيرها، عن طريق فرض ضرائب هائلة على كل المحاصيل الزراعية بوادى النيل. فكان الفيضان وما يخلفه وراءه من خصوبة

الأراضى سنويًا، يزود الملوك بالكنوز. وهكذا، شيدت أمطار الحبشة من منبع النيل الفنار عند مصبه، ووهبت مكتبة الإسكندرية.

وفى الواقع، كانت الضرائب التى فرضها البطالمة على أهل مصر لإمدادهم بالمال ضخمة، لدرجة أنه لم يتبق للمزارعين البسطاء سوى وسائل العيش المجردة. فعند الإعجاب بعظمة المدينة ومجدها، يجب أن نتذكر أن هناك جانبًا مظلمًا لذلك الإشراق يتمثل فى انتشار العوز والفقر المدقع الذى قدر لعامة الشعب فى كل مكان. فكانوا يعيشون فى قرى صغيرة داخل أكواخ متواضعة الحال على امتداد ضفاف النهر، كى يتم تجميل العاصمة وتزيينها بالمعابد والقصور. وقضوا حياتهم فى ظلام وجهل، من أجل تدوين سبعمائة ألف مجلد باهظ الثمن ووضعها بالمتحف ليستخدمها العلماء والفلاسفة الأجانب. فقد تبدو سياسة البطالمة أفضل السياسات التى كان يمكن اتباعها فى ذلك العصر الذى عاشوا فيه، للوصول إلى التقدم والرفاهية المطلقة ؛ ولكن عند التصفيق للنتائج التى حققوها، يجب ألا ننسى الثمن الذى دفعوه للوصول إليها. فبنفس هذه التكلفة كان يمكننا، فى هذا العصر، أن نفوقهم بمراحل. فإذا استغنى شعب الولايات المتحدة عن الراحة ووسائل الرفاهية التى ينعمون بها كأفراد، وإذا تنازل المزارعون المتناثرون فى بيوتهم المريحة على جوانب التلال وفى السهول عن منازلهم والأثاث والمفروشات والكتب التى بحوزتهم وحقوق أبنائهم، ثم يحتفظون بقدر يسير من حصيلة كدهم طوال العام ليعينهم وأسرهم

على العيش طوال العام، فى حياة كهذه كالحيوان يحمل أثقالاً، للعيش فى كوخ مكشوف بائس، ويرسلون الباقى إلى الحاكم بالوراثة الــذى يقطن على ساحل الأطلنطى، ليقوم بتشييد عاصمة رائعة بكــل مــا سبق، فسيكون لديهم الآن إسكندرية تفــوق روعــة وشــهرة مدينــة البطالمة القديمة بصورة هائلة. وفى مثل هذه الحالة، ســتدفع البلــدة أيضا للعاصمة نفس الثمن الذى دفعه المصريون القدماء لمدينتهم.

وأنفق البطالمة الأموال التى جمعوها عن طريــق الــضرائب بطريقة عقلانية مستنيرة، من أجل إنجاز الأهداف التــى وضــعوها. فكان تشييد فنار الإسكندرية، ونقل تمثال سرابيس، ووقف مال علــى المتحف والمكتبة أفكارا عظيمة، وجرى تنفيذها على أتم وأكمل وجه. وكذا تم إنجاز كافة المشروعات التى ابتكروها وقاموا بتنفيــذها مــن أجل تطوير وتعظيم شأن المدينة بــنفس الــروح العلميــة والعقــل المستنير. فقاموا بتمهيد الشوارع، وتشييد القصور، وإقامة الأرصفة، والجسور، وحواجز الأمواج، وقاموا بتحــصين الأبــراج والقــلاع، واستخدموا كافة الوسائل لجذب أكبر حشد من جميع الأمم المتحضرة التى وجدت آنذاك. وأتيحت الإغراءات للتجار والــصناع وأربــاب الحرف ليتخذوا من المدينة مقاما لهم. ولقى الــشعراء والرســامون والنحاتون والعلماء من جميع الأمــاكن وعلــى كافــة المــستويات الترحاب، وكافة التسهيلات من أجل القيام بعملهم. ونجحت جميع هذه

الخطط، وتربعت الإسكندرية، فى وقت يسير، على عرش الاهتمـــام والتقدير. وعندما ولدت كيلوباترا - لتمسك بزمام هذا المشهد العظيم الرائع - وظهرت على مسرح الأحداث، لم يكن للمدينة سوى منافس واحد على مستوى العالم هى روما.

الفصل الرابع
والد كليوباترا

عندما جاء الوقت الذى ظهرت فيه كيلوباترا على مسرح الأحداث، كانت روما هى المدينة الوحيدة التى تبارى الإسكندرية وتنافسها، بإجماع العالم، من حيث الأهمية وعنصر الجذب كعاصمة. وكانت روما تفوق العاصمة المصرية فى نقطة واحدة، وهى عظم حجم القوة العسكرية التى تمتلكها بين جميع دول العالم. ففى غضون الثلاثة قرون التى اكتسبت فيها الإسكندرية مجدها وشهرتها وكانت لها السيادة على مصر، وقليل من السواحل والجزر المجاورة، بسطت الإمبراطورية الرومانية نفوذها تقريبا على العالم المتمدن بأسره. وكانت مصر بعيدة جدًا لدرجة أنه لا يمكن الوصول إليها مباشرة آنذاك؛ ولكن، فيما بعد، صارت شئون مصر نفسها ترتبط بقوة السلطة الرومانية، بالقرب من مولد كيلوباترا، بصورة بارزة ولافتة للنظر؛ ولأن النتائج التى ترتبت على ذلك كانت وسيلة تغيير مسار تاريخ حياة الملكة اللاحق، فكان لابد من سرد الأحداث من أجل فهم أفضل للظروف التى استهلت بها حياتها.

وفى الواقع، كان امتداد الإمبراطورية الرومانية لحدود مصر، والارتباطات التى نشأت بين قواد الرومان والحكام المصريين، هو ما جعل قصة هذه الملكة المتميزة تبرز بصورة أكبر، كموضوع ذي أهمية واهتمام لدى البشرية، عن أى واحدة أخرى من الملكات العشرة اللاتى حملن لقب كليوباترا، وتعاقبن فى نفس الأسرة الملكية.

وقد كان بطليموس أوليتس، والد كليوباترا، فى سماته الشخصية، أكثر حكام الأسرة البطلمية تفسخا وانحلالا وفسادا. وكان يقضى أغلب وقته فى الرذائل والانغماس فى الملذات. ويبدو أن مهارة العزف على آلة الفلوت هى العمل الحسن الوحيد الذى كان يقوم به ؛ ودون ذلك، فكان شديد العبث. فكان يقيم مسابقات للموسيقى، يشارك فيها العازفون بالإسكندرية من أجل الحصول على المكافآت والجوائز؛ واعتاد أن يشترك ضمن قائمة المتسابقين. واعتبر أهل الإسكندرية، والعالم بصفة عامة، أن مهنة كهذه لا تستحق أن تحظى باهتمام من يمثل هذه الأسرة الشهيرة من الحكام. وامتزج مقتهم الذى شعروا به تجاه رزائل وجرائم الحاكم بشعور بالازدراء لدناءة طموحه.

وكان هناك شيء من الريبة بشأن تتويجه وتوليه العرش، حيث كان مولده، من جهة والدته، وضيعًا منافيًا للقواعد والأصول. ومع ذلك، فبدلا من أن يحاول ترسيخ وتأمين سلطته فى البلاد عن طريق إدارة قوية ناجحة للحكومة، ألقى كافة الأمور المتعلقة بشئون العامة وراء ظهره، ولكى يقى نفسه ضد خطر العزل من السلطة، انتبه لفكرة أن يكون معترفا به فى روما كأحد حلفاء الشعب

الروماني. واعتقد أنه إذا ما تحقق ذلك، فستضطر الحكومة الرومانية للإبقاء عليه فى السلطة فى حالة أى تهديد بالخطر.

وكانت الحكومة الرومانية نوعًا من الجمهورية، وكان بومباى وقيصر أقوى رجلين بالدولة آنذاك. وكان لقيصر السيادة على روما أثناء طلب بطليموس التحالف معهم. بينما كان بومباى بآسيا الصغرى منهمكا فى حرب ميثارادتس، أحد الملوك الأقوياء، الذى كان يقاوم السلطة الرومانية فى ذلك الحين. وكان قيصر غارقاً فى الديون، بالإضافة إلى حاجته الملحة للمال، ليس فقط للتخلص من الضائقة المالية، ولكن كوسيلة للنفقات اللاحقة، حتى يتمكن من تنفيذ بعض المخططات السياسية العظيمة التى كان يطمح إليها. وبعد العديد من المفاوضات والعوائق، تم الاتفاق على أن يقوم قيصر باستخدم نفوذه لضمان تحالف بين شعب روما وبطليموس، شريطة أن يدفع له بطليموس مبلغا من المال يقدر بستة آلاف طالن، أى ما يعادل ستة ملايين دولار. وكان بومباى سينال جزءًا من المال، كما قال قيصر.

وحصل بطليموس على لقب حليف، وشرع فى جمع المال الذى تعهد بدفعه، عن طريق رفع الضرائب فى مملكته. وكانت الإجراءات التى اتخذها من أجل تأمين ملكه هى نفس الوسيلة التى أدت إلى خلعه من السلطة. حيث تحول سخط الشعب واستياؤه، الذى كان قويا من قبل، رغم محاولة قمعه وإخفائه، إلى عنف شديد. فكان عليهم أن يتحملوا، بالإضافة إلى كل الأعباء الأخرى، هذا الاستبداد

الجديد الذى أثقل عليهم ما كانوا يتحملونه سابقا، خاصة أن ذلك الغرض لم يكن ليطيقه أحد. فكان صعبًا عليهم أن يكرهوا على رؤية بلدهم وهى تباع للشعب الرومانى، ولكن أن يرغموا على جمع المال، بأنفسهم، ودفع ثمن البيع، لم يكن ليغفر قط. وبدأت الإسكندرية تثور. ولم يكن بطليموس ذلك الرجل الذى يجيد التصرف أمام هذا التظاهر، أو يظهر الهدوء والشجاعة فى أى ظرف مفاجئ. فكان أول ما جال بخاطره هو الهروب من الإسكندرية من أجل إنقاذ حياته. ثم الإسراع فى الوصول إلى روما ومطالبة الشعب الرومانى بالحضور لإنقاذ حليفهم.

وعند فراره ترك وراءه خمسة أطفال. وكانت الأميرة بيرنيس أكبرهم، وقد بلغت سن الرشد. وتليها كليوباترا العظيمة، موضوع هذه القصة. وكانت تبلغ من العمر الحادية عشرة عامًا. وكان هناك أيضا اثنان من الصبية، ولكنهما صغار جدًا.

وما أن علم أهل الإسكندرية بفرار بطليموس، حتى قرروا تنصيب بيرنيس مكانه على العرش. ورأوا أن الصبية صغار لدرجة أنهم لم يحاولوا أن يحصلوا على السلطة فى مثل هذه الظروف غير المتوقعة، حيث كان من المحتمل أن يحاول أوليتس، الأب، العودة لمملكته. ولم تتردد بيرنيس عند عرض السلطة عليها. وعملت على ترسيخ نفسها بقصر والدها. واستهلت حكمها بعظمة وإجلال. وبمرور الوقت، ظنت أنه يمكنها تعزيز موقفها عن طريق الزواج بأحد حكام الممالك المجاورة. فبعثت إلى أنتيوتش، ملك سوريا،

لتعرض عليه الأمر، وعاد الرسل وأخبروها بأن أنتيونش قد تـوفى، وأن أخاه سيلوكس خلفه فى تولى العرش. فبعثتهم بيرنيس مرة أخرى إليه بنفس العرض. ووافق على عرضها، وحضر إلى مصر، وتم إتمام الزواج. وبعد فترة، اكتشفت بيرنيس، لسبب أو لآخر، أنه ليس الزوج المناسب، وعليه، قضت بقطع رأسه.

وبمرور الوقت، وبعد علاقات سرية متعددة، نجحت بيرنيس فى إجراء مفاوضات للمرة الثانية، وتزوجت أميرًا من بلد ما بآسيا الصغرى، يدعى أرخيلس. وكانت أكثر سعادة بالزواج الثانى عن الأول، وأخيرا، بدأت تشعر بشيء من الثبات والاستقرار فى عرشها، وبدأت تستعد، كما ظنت، لمجابهة والدها فى حالة محاولته للعودة إلى البلاد مرة أخرى.

وفى وسط هذه المشاهد والأحداث التى يمكن أن تسود عائلة لأب كهذا وأخت كهذه، عاصرت كليوباترا السنوات التى يفترض أن تتكون فيها شخصيتها. ففى أثناء كل هذه الثورات، وكل تلك الصور من بشاعة الفسق، والوحشية غير السوية والجريمة، كانت تنمو بالقصر الملكى طفلة جميلة مفعمة بالحيوية، ولكنها مغمورة ومهملة.

وفى الوقت ذاته، توجه أوليتس، الأب، إلى روما. حيث إنه عندما ذاعت أنباء شخصيته وقصته بين الدول المحيطة، صار موضع ازدراء عام، بسبب حياة الرذيلة والانحلال التى عاشها سابقا، وما طرأ الآن من فراره الوضيع من المصاعب التى جلبتها عليه رزائله وجرائمه.

وفى طريقه، توقف بجزيرة رودس. وصادف ذلك، وجود الفيلسوف والقائد الرومانى العظيم كاتو. وكان رجلاً شديدًا متحفظًا، وله تأثير كبير فى الشئون العامة. وبعث بطليموس رسولا يخبر كاتو بقدومه، معتقدا، أن القائد الرومانى سيهرع عند سماع ذلك، لتقديم فروض الولاء والطاعة لشخصه العظيم كملك مصر – وأحد البطالمة – رغم معاناته فى ظل الظروف الراهنة من تقلب الحظ. فرد كاتو الرسول، حيث كان يعى جيدًا أنه لا يوجد أمر مشترك بينه وبين بطليموس، قائلاً :" ومع ذلك، أبلغ الملك، أنه إذا كان له أمر عندى، يمكنه أن يقوم بزيارتى إذا أراد ".

واضطر بطليموس لقمع غضبه والإذعان له. واعتقد أن رؤية كاتو والحصول على تأييده وتعاونه، إذا أمكن، أمر ضرورى لإنجاح خطته؛ وعليه، أعد نفسه للقيام بالزيارة بدلاً من استقباله، معتزمًا أن يذهب فى أعظم وضع ملكى بقدر ما يمكنه. وفى اليوم التالى، وقف بباب كاتو فى أروع ثيابه، وبرفقته العديد من أتباعه. وعندما دخل الملك، لم ينهض كاتو، الذى كان يرتدى أبسط الثياب المتواضعة، ويقطن بمكان مزود بنوع من الأثاث يتناسب وصرامة شخصيته، من مكانه. وأومأ إليه بيده، وطلب منه الجلوس .

وبدأ بطليموس فى إحاطته بحاله، من أجل الحصول على تأييده وتأثيره على الشعب الرومانى وإقناعهم بمساندته. ومع ذلك، وبعيدًا عن عدم إظهار كاتو لأى نزعة لمناصرة زائره، فقد عنفه، بأبسط العبارات، لتركه موقعه الفعلى بمملكته، وذهابه ليجعل من

نفسه ضحية وفريسة لجشع ونهم القواد الرومان. فأخبره: " إنك لـن تفعل شيئا فى روما، إلا إذا قدمت الرشاوى؛ وحينئذ فلن تكفـى كـل موارد مصر لإشباع النهم الرومانى للمال ". وأوصاه، فـى نهايـة حديثه، بالعودة إلى الإسكندرية، والاعتماد على نفسه فى حل مشاكله والتخلص من المصاعب التى ألمت به هناك.

وتسبب هذا الرد فى إرباك وخجل بطليمـوس، ولكنـه، بعـد التشاور مع رفاقه وأتباعه، أيقن أن وقت الرجوع قد مضى. وصـعد الجمع بأكمله على متن السفينة، واستأنفوا طريقهم إلى روما.

وعند وصول بطليموس إلى روما، وجد أن قيصر ببلاد الغال، وأن بومباى، الذى عاد منتصرا من حملته ضد ميثاراداتس، هو القائد الذى بيده السلطة والنفوذ بالكابيتول الآن. ومع ذلك، لـم يكـن هـذا التغيير غير مرغوب، حيث كان بطليمـوس علـى علاقـة طيبـة ببومباى، كما كان مع قيصر. فقد سانده فى حروبه ضد ميثـارادتس بإرسال سرية من الخيالة فى خدمته، استكمالاً لسياسته فـى توطيـد علاقته الطيبة بشعب روما بكافة الوسائل الممكنة. بالإضـافة إلـى حصول بومباى على قدر من المال الذى دفعـه بطليمـوس لقيـصر مقابل تحالفه مع روما، وأنه سينال ما تبقى من حصته عنـد عـودة بطليموس لعرشه. ولذلك قام بومباى بمساندة قضية الملك اللاجـئ. فاستقبله فى قصره، وأولاه أروع الترحـاب، وشـرع فـى اتخـاذ الإجراءات الفورية لبحث قضيته أمام مجلـس الـشيوخ الرومـانى،

وحثهم على اتخاذ الإجراءات الحاسمة من أجل إعادته لعرشه، كحليف لهم يجب عليهم حمايته ضد الرعايا الثائرين.

وفى بادئ الأمر، وجد بعض المعارضة بمجلس الشيوخ ضد مناصرة قضية مثل هذا الرجل، ولكنها سرعان ما تلاشت وخضعت إما لسطوة بومباى، أو لوعود بطليموس والرشاوى التى كانت تجعلهم يصمتون. وقرر المجلس إعادة الملك لعرشه، وشرع فى الترتيب لتنفيذ الإجراءات.

وكانت صقلية وسوريا أقرب المقاطعات الرومانية لمصر، وتقع على الساحل الشمالى والشرقى للبحر المتوسط شمال الجودي. وسيكون موقعا مناسبا لنزول القوات بهما من أجل إمداد الحملة بالجنود اللازمة. وكانت مقاطعة صقلية تحت قيادة القنصل لانتيلس. وكان موجوذا بروما آنذاك؛ حيث عاد للعاصمة لغرض مؤقت، وترك المقاطعة والجنود هناك تحت قيادة نائب يدعى جابينوس. واستقر الأمر على أن لانتيلس، بقواته السورية سيتولى مهمة إعادة بطليموس للعرش.

وبينما لم تستكمل الخطط والإعدادات بعد، وقعت حادثة كادت أن تحبط كل شيء تمامًا، لبرهة من الوقت. فيبدو أنه عندما غادر والد كليوباترا مصر، أشاع أنه قد قتل فى الثورة وكان الهدف من ذلك إخفاء فراره. وسرعان ما اكتشفت حكومة بيرنيس الحقيقة، وعلمت أن الملك الهارب فر متجها إلى روما. وعلى الفور، توقعوا

أنه ذهب يطلب معاونة الشعب الرومانى، وقرروا أنه، إذا كان الأمر كذلك، فلابد أن تتاح لهم الفرصة لدى الشعب الرومانى لسماعهم، قبل الحكم لصالح الطرف الآخر. وعليه، أعدوا العدة لإرسال وفد مهيب إلى روما. وكان الوفد المفوض يتألف من مائة شخص. ولم يكن إرسال حكومة بيرنيس لهذا العدد الكبير مجرد إظهار تقديرهم لشعب روما، وشعورهم بأهمية الأمر موضوع النقاش فحسب، بل لحمايتهم ضد أى محاولات قد يقوم بها بطليموس لاعتراضهم فى الطريق، أو استمالتهم عن طريق تقديم الرشاوى لهم. ولم يكن ذلك العدد، رغم كبره، كافيا لإنجاز هذه المهمة. وفى ظل هذه الأحوال من الاضطراب والعنف، كان يتولى حكم العالم الرومانى بأسره آنذاك، قواد عسكريون مندفعون عابثون مما سهل ارتكاب جميع الجرائم الممكنة فى كل مكان. وجاهد بطليموس بمعاونة الأنصار الأشداء الموالين لقضيته، والذين يرغبون فى نجاحه بسبب المكافآت التى وعدهم إياها، لتدمير عدد كبير من هذه المجموعة قبل وصولهم إلى روما. وقاموا باغتيال بعضهم، وقتل آخرين بالسم، وشراء البعض بالرشاوي. ووصلت البقية الباقية لروما، وهم خائفون من المخاطر التى تحوطهم، فلم يجرؤ أحد منهم على الإقدام على أى عمل إيجابى بشأن الأمر الذى أسند إليهم. وبدأ بطليموس يهنئ نفسه على إحباط محاولات ابنته لحماية نفسها ضد مخططاته.

ومع ذلك، سرعان ما جرت هذه الخيانة الوحشية على نحو معاكس تمامًا لما توقعه مرتكبوها. وانكشف الأمر، وذاعت معرفة

الحقيقة تدريجيا بين شعب روما، وأثـــارت الـــسخط العـــام. فتحـــين الحزب المعارض لقضية بطليموس الفرصة لتجديد معارضتهم لـــه؛ ودعم موقفهم البغض العام الذى أثارته جرائمه. ووجد بومباى أنه لا يمكن مناصرة قضيته.

وبعد ذلك، اكتشف الحزب المعارض لبطليموس، أو ادعى أنه اكتشف، فى بعض الكُتب المقدسة ويطلق عليهـــا "وســـيط الـــوحي"، وتوجد بحوزة القديسين وفى كنفهم، ويعتقدون أنهـــا تحتـــوى علـــى نبوءات إلهية فيما يتعلق بالشئون العامة، هذه الفقرة:

" إذا جاءكم ملك من مصر يطلب العون، فعاملوه برفق، ولكن لا تمدوه بقوات لأنكم إذا فعلتم فستواجهون خطرًا داهمًا "

ووضع ذلك أصدقاء بطليموس أمام صعوبة جديدة، فحـــاولوا، فى البداية، أن يتبرؤوا من هذه النبوءة بإنكار حقيقتها. وقالوا إنـــه لا يوجد مثل هذه الفقرة. وما هى إلا ابتكار من تدبير أعدائهم. وبـــاءت هذه المحاولة بالفشل، فحاولوا تأويلها بـــصورة مختلفـــة. وأخيـــرا، توصلوا إلى أنه لا يجوز لهم إمداده بجنود، ولكن يجوز لهم إرســـال قوات مسلحة لمصر تحت قيادتهم لتأدية المهمة. وعند قمع الثـــورة، وخلع حكومة بيرنيس، يمكنهم دعـــوة بطليمـــوس للعـــودة لمملكتـــه واستئناف حكمه بسلام، زاعمين أنه بهذه الطريقة لن يكـــون هنـــاك "إمداده بقوات" وبذلك فلن يعصوا الوحي.

وأثارت هذه المحاولات الجدل والنزاع بين أصدقاء بطليموس وبين أعداءه لتجنب النبوءة بصورة أشد ضراوة من ذى قبل. وبذل بومباى قصارى جهده لمناصرته، وبعد تردد وتوان دام طويلا، توصل لانتيلس إلى أن مباشرة هذا العمل لن يكون فى صالحه. ومع ذلك، تم إقناع جابينيوس، النائب عنه فى سوريا، بتولى هذه المهمة. وبناء على وعود بطليموس له إذا نجح فى مهمته، إلى جانب بعض من التشجيع من جانب بومباى فيما يتعلق بقيادة الجنود الرومان، قرر جابينيوس الزحف إلى مصر وكانت خطته أن يتجه على امتداد شواطئ البحر المتوسط، وعبر الصحراء إلى بلسيوم، والتى سبق ذكرها كمدينة على حدود مصر من هذه الجهة، وكان عليه أن يتجه من بلسيوم عبر قلب الدلتا إلى الإسكندرية، وإذا نجح فى غزوه، فسيقوم بخلع حكومة بيرنيس وأرخيلس، وإعادة تنصيب بطليموس على العرش.

ولإنجاز هذه المهمة الخطيرة، قام جابينيوس بالاستعانة برجل محنك، لعب دور بارزا فى تاريخ كليوباترا اللاحق. ويدعى مارك أنطونيو. وقد ولد فى روما لعائلة من الأشراف، وتوفى والده وهو صغير جدا. وعاش لحاله طويلاً، فصار رجلاً فاحشا وفاسقا. وأنفق الثروة التى تركها له والده فى الحماقات والرذائل ؛ وحاصرته الديون لاستمراره فى مثل هذه الحياة البائسة وغرق فى مصاعب عديدة. وطالبه الدائنون بأموالهم، ولجؤوا للقانون للحصول عليها. ولاحقه أعداؤه بسبب عنفه وجرائمه ففر إلى اليونان.

والتقى به جابينيوس، وهو فى طريقه إلى سوريا، ودعاه للانضمام إلى جيشه بدلاً من الاستمرار فى التبطل والعوز. ورفض أنطونيو، الذى كان متعجرفًا ومعتزا بنفسه مثلما كان منحلا فى أخلاقه وسلوكه، إلا إذا ما منحه جابينيوس منصبا. ورأى جابينيوس فى التحدى والقوة التى أبداها أنطونيو مؤشرات السمات التى تصنع الجندى الناجح فى هذه الأيام، فوافق على شروطه، وأسند إليه سلاح الفرسان، وأبلى أنطونيو بلاء حسنًا فى الحملات السورية اللاحقة، وصار يتلهف للانضمام للمهمة المصرية الآن. وكان حماسه وهمته فى الإقدام على هذه المسئولية هى التى حملت جابينيوس على الموافقة على عروض بطليموس.

وكان كل ما يشغلهم فى الحملة بأسرها هو خطورة وصعوبة اجتياز الصحراء والوصول إلى بلسيوم. ففى الواقع، كان فى انعزال مصر حماية كبيرة لها دائما. فتشكل الرمال، المهجورة التى لا يطؤها أحد، وتخلو من المياه ومن البشر تماما، صعوبة بالغة وخطرًا داهمًا عند اجتيازها، حتى على قافلة المسافرين الآمنين. أما بالنسبة لاجتياز جيش لها، فسيتعرض جنوده لهجمات الأعداء الذين قد يسبقونهم للقائهم فى الطريق، وبلا شك سيجابهون معارضة شديدة من الجماعات العنيفة الثائرة عند وصولهم لحدود البلاد المأهولة، حيث سيكونون منهكين ومتعبين من عناء الطريق، فكانت مغامرة بائسة. وفى العصور القديمة، وقعت أحداث عديدة، تدمرت خلالها

جماعات ضخمة من الجنود، إما بسبب المجاعة والعطش، أو سحقتهم العواصف الرملية عند محاولة اجتياز الصحراء التى تحوط مصر[*].

ومع ذلك، لم يخش مارك أنطونيو تلك المخاطر والصعاب على الإطلاق. وكان انتظاره للمجد عند التغلب عليهم، هو أحد الإغراءات الرئيسية التى جعلته يشرع فى الانضمام لهذا المغامرة. وكانت مخاطر الصحراء هى أحد المفاتن التى جعلت للرحلة جاذبيتها. وتولى قيادة سلاح الفرسان، وانطلق عبر الرمال، متقدما على جابينيوس، من أجل الحصول على بلسيوم، لكى يفتح الطريق للجيش الرئيسى إلى مصر. ورافق بطليموس أنطونيو وتبعهم جابينيوس.

ورغم كل أخطائه، ودون أن نخوض فيها، كان مارك أنطونيو يتحلى ببعض السمات البارزة فى شخصيته. فكان متحمسًا، ولكنه هادئًا ومتزنًا وحكيمًا؛ وكان يتسم بقدر من الصراحة وكرم الأخلاق فى تصرفاته وشخصيته جعلته محبوبًا وسط رجاله. وكان يبلغ من العمر الثمانية والعشرين عامًا وقتئذ، ويتميز بطول البنية والملامح العقلانية المعبرة. وكان عالى الجبهة معقوف الأنف ذا عينين مفعمتين بالحياة والنشاط. واعتاد ارتداء ثياب بسيطة غير منمقة، وكان يسود علاقته بجنوده جو من الألفة والصراحة. وكان يلتحق

[*] لمعرفة المزيد عن هذه الكوارث ، مصحوبة برسوم توضيحية للمشهد ، يمكنك الاطلاع على "تاريخ سيروز" HISTORY OF CYRUS، ،

بهم أثناء ممارستهم للرياضة ويتبادل الفكاهة معهم؛ ويقف على موائدهم المتواضعة وسط الحقول المفتوحة لتناول وجباته. وقد تكون مثل هذه العادات فى علاقة قائد برجاله، بالنسبة لقائد عادى، مهلكة لسيادته عليهم؛ ولكن فى حالة مارك أنطونيو، جعلت هذه العادات المألوفة الواضحة من العبقرية العسكرية والقوة العقلية لديه موضع إعجاب الجميع.

و تولى أنطونيو قيادة جنوده من الفرسان عبر الصحراء بطريقة آمنة وسريعة، وبلغ بلسيوم. ولم تكن المدينة متأهبة للمقاومة. وسرعان ما استسلمت ووقعت الحامية بأسرها فى قبضته كأسرى حرب. وأمر بطليموس بقتلهم جميعا فى الحال. فجميعهم ثوار، كما قال، ولابد من قتلهم جميعًا. ومع ذلك، وكما هو المتوقع من شخصية مثل أنطونيو، رفض تمامًا أن يسمح بمثل هذه الوحشية. وما كان لبطليموس إلا أن يذعن لإرادة أنطونيو، حيث لم ينل السلطة بعد، وأخفى فى صدره نزعة الانتقام الذى حاك بصدره طويلاً ليوم لاحق. لانه رأى أن وقت انتصاره على ابنته وأعوانها قد حان.

وعندما علمت بيرنيس وحكومتها بقدوم أنطونيو وبطليموس إلى بلسيوم، وسقوط المدينة، واقتراب جابينيوس بالقوة الساحقة لجنود

Antony crossing the Desert.

عبور أنطونيو للصحراء

الرومان، امتلأت رعبًا. وكان زوجها، أرخيلس، صديقا شخصيًا لأنطونيو، فيما مضى. وظن أنطونيو أنهم ما زالوا أصدقاء،

رغم حاجتهم لما أسماه المؤرخون واجبهم لمحاربة بعضهما من أجل الاستيلاء على المملكة. وحشدت جكومة بيرنيس جيشًا. وتولى أرخيلس قيادته، وتقدم لمواجهة العدو. وفى الوقت المناسب، وصل الجيش الرومانى بقيادة جابينيوس وبدأ زحفه، بالاتحاد مع أنطونيو، تجاه العاصمة. وكان عليهم اتباع طريق غير مباشر للجنوب من أجل تجنب الخلجان والمستنقعات بالساحل الشمالى لمصر، والوصول إلى داخل البلاد، وقادهم هذا المسار إلى قلب

الدلتا. ودارت العديد من المعارك التى انتصر فيها الجيش الرومانى. وفى الواقع، استاء الجنود المصريون وتمردوا، نوعا ما، لأنهم شعروا أن الحكومة التى عليهم الانضمام إليها، بعد ذلك، هم المغتصبون. وأخيرا، دارت معركة كبيرة حسمت النزاع. وتم ذبح أرخيلس بميدان المعركة، وأسر بيرنيس ؛ وخلع حكومتها، وفتح الطريق أمام زحف الجيش الرومانى للإسكندرية .

وعندما نحكم على مارك أنطونيو بمعاييرنا فإنه، بلا شك، مثل بطليموس، رجل فاسد منحرف ؛ ولكن فساده من نوع يختلف عن ذلك الذى كان عليه والد كليوباترا. وتجلى ذلك الاختلاف بينهما فى الأهداف التى انصرفت إليها اهتمامات كل منهما عقب هذه المعركة الكبيرة. فبينما كانت الحرب دائرة، كان الملك أرخيلس والملكة بيرنيس فى مصر، بلا شك، من وجهة نظر كل من أنطونيو وبطليموس، أهم شخصيتين فى جيش الأعداء. وبينما كان أنطونيو يترقب مصير صديقه باهتمام شديد، كان الملك بطليموس يترقب مصير ابنته بحرص. وعليه، فعندما انتهت المعركة انشغل بطليموس، كما كنا نتوقع، بأمر ابنته التى وقعت فى الأسر، ويفترض، أن أنطونيو انتظر أن تصله أنباء ذبح صديقه.

وفرح أحدهما، وحزن الآخر. وبحث أنطونيو عن جسد صديقه فى ميدان المعركة، وعندما عثر عليه، تولى تشييعه بنفسه.

وبدأ فى الجنازة يندب وفاة صديقه القديم بحزن حقيقى شديد. وعلـــى الجانب الأخر، كان بطليموس تغمره السعادة عندما وجد ابنته أســـيرة لديه. وأخيرا، حانت لحظة.انتقامه المؤجلة، وكان أول ما أصدره عند عودته للسلطة بالإسكندرية، هو قطع رأس ابنته.

الفصل الخامس

ارتقاء العرش

عندما أوشكت المعركة غير الآدمية التي دارت بين والد كيلوباترا وشقيقتها على الاقتراب من نهايتها المؤسفة، كما سردناها فى الفصل السابق، كانت تقيم فى القصر الملكى بالإسكندرية فتاة جميلة مشرقة فى الخامسة عشر من عمرها. ولحسن حظها، أنها كانت صغيرة لدرجة حالت دون مشاركتها فى الصراع القائم. وكان لها اثنان من الإخوة يصغرانها. ولذلك، مكث الثلاثة، فى القصر الملكى، يشاهدون الثورة، وهم صامتون دون أن يصيبهم نفع أو ضر. وكان شيئا فريدا أن يسمى كلا الأخوين بطليموس.

وساد مدينة الإسكندرية اهتياج شديد وعارم، عندما جاء الجيش الرومانى لإعادة والد كليوباترا للعرش. وفرح جمع كبير من أهالى المدينة بعودة الملك السابق. ففى الواقع، وبالرجوع إلى تاريخ الملوك، يتبين أنه عندما يقوم شعب ثائر بخلع أو طرد ملك ووريث شرعى أو أسرة حاكمة من البلاد، مهما تكن بشاعة الطغيان أو وحشية الجرائم التى أثقلت كاهل الرعية، يكون انقضاء القليل من السنوات جديرًا لتأهيل العامة لعودتهم مرة أخرى ؛ وفى هذا المثال على وجه الخصوص، لم يكن لحكومة بيرنيس الأفضلية على حكومة

والدها، أثناء فترة استقلالها بالسلطة، عندما أحلت محله، لكى تجعل من هذه الحالة استثناء للقاعدة العامة. ولذلك كان عامة الشعب، خاصة هؤلاء الذين لم يكن لهم دور فعال فى حكومة بيرنيس، على أتم الاستعداد للترحيب بعودة بطليموس لعاصمته. أما من كان لهم دور، فتم إعدامهم جميعا بأمر بطليموس.

وبالطبع، ساد أرجاء المدينة اهتياج شديد عند وصول الجيش الروماني. فكانت السيادة الخارجية والسلطة الداخلية بمصر وجميع القواد تقريبا، المدنيين منهم والعسكريين، إغريقًا. وكان مجيء الجيش الرومانى إدخالاً لعنصر آخر مثير يضاف إلى ما سبق من عناصر الإثارة التى لاتنتهى والتى تدب الحياة فى الإسكندرية .

وتم الاحتفال بعودة بطليموس بالألعاب، والعروض المسرحية، وكافة أنواع اللهو والمرح الصاخب، وبالطبع كان يرافق الملك، الذى كان موضع الاهتمام والتقدير فى كل ذلك، القادة الأجانب البارزون الذين حققوا الغاية المرجوة.

وكان مارك أنطونيو، بصفة خاصة، موضع ملاحظة وإعجاب العامة فى ذلك الحين. فسماته الغربية، وجو الإخلاص والصراحة الذى تمتع به، ولباسه الرومانى البسيط، وسلوكه، جعلت منه شخصا بارزا؛ إلى جانب تدخله لتأمين أرواح الحامية التى تم أسرها فى بلسيوم، والموقف الذى اتخذه فى إقامة جنازة تليق بشرف عدوه الذى ذبحه جيشه فى المعركة، الأمر الذى ترك أثرا طيبا فى نفوس الشعب لنبالته وشهامته، والتى رغم أخطائه، جعلته موضع إعجاب

واستحسان العامة. فغالبًا ما يرى العالم الأخطاء الحقيقية لمثل هذا الرجل في رداء ومظهر الفضائل. فعلى سبيل المثال، روى ذات مرة أنه، فى فترة ما من حياته، أراد أن يقدم هدية قيمة لشخص ما، مقابل خدمة قد تلقاها منه، فأمر خازنه أن يرسل مبلغاً من المال لصديقه، وكان المبلغ الذى أمر به أكبر كثيرا مما تستحقه هذه الخدمة، كما كان يفعل دائما، تحت تأثير الكرم الأعمى الذى لا يحصى. وكان الخازن حصيفا عن سيده، وأراد أن يقلل من المبلغ، ولكنه لم يجرؤ أن يقترح ذلك بصورة مباشرة ؛ فقام بتقدير المال المناسب، ووضعه فى كومة فى مكان يمر به أنطونيو، معتقدا أنه حين يراه أنطونيو، سيدرك أنه كثير. فلما مر به سأل كم يبلغ هذا المال. فأجاب الخازن أن ذلك هو المبلغ الذى أمر به أن يرسل كهدية لصديقه، قائلا اسم الصديق. وسرعان ما أدرك أنطونيو خطة الخازن. وعلى الفور أجاب " هل هذا كله ؟ اعتقدت أنه سيبدو أكثر من ذلك ؛ فلترسل له ضعف المبلغ ".

فبكل تأكيد، يعد قراره، فى مثل هذه الحالة، بمضاعفة الإسراف لمجرد إحباط محاولة شريفة من خادمه المخلص لتقليل المال بطريقة حذرة ولطيفة، خطأ. ولكنها إحدى الأخطاء التى سيستمر العالم، على مر العصور، فى استحسانها والتصفيق لمرتكبها.

وخلاصة القول، أصبح أنطونيو موضع اهتمام وتقدير العامة أثناء فترة تواجده بالإسكندرية. ولكن لا نعلم إذا ما كان قد لفت انتباه

كليوباترا، على وجه الخصوص، فى ذلك الحين أم لا. ومع ذلك، فقد جذبت هى انتباهه بشدة. فأعجبه إشـراقها، وحيويتهـا، وفطنتهـا، وبراعة أدائها المتنوع. ورغم ذلك، كانت لا تـزال صـغيرة - لـم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر، بينما يناهز أنطونيـو الثلاثـين - ولذلك، لم تترك داخله انطباعا جديا. وبعد فترة وجيزة، عاد أنطونيو إلى روما، ولم ير كليوباترا ثانية لعدة سنوات .

ورحل القائدان الرومانيان من الإسكندرية، وتركا جزءًا مـن الجيش هناك تحت قيادة بطليموس لمعاونته فى تأمين عرشه. وعـاد أنطونيو إلى روما. وكان قد اكتسب شـهرة كبيـرة بالـسير عبـر الصحراء، والنجاح الذى حققه فى غـزو مـصر وإعـادة تنـصيب بطليموس على عرشه. وأيضا، امتلأت خزائنه بالأموال الطائلة التى دفعها بطليموس له ولجابينيوس. وقيل أن المبلغ الذى وافق بطليموس على دفعه نظير إعادته عرشه بلغ ألفى طالن - أى ما يعادل عـشرة ملايين دولار - مما يدل على الدافع الذى كان يحرك تلك الحمـلات الشهيرة. وجمع بطليموس قدرًا كبيرًا من المال المطلوب دفعه عـن طريق مصادرة الأملاك الخاصة بأصدقاء حكومة بيرنيس الذين أمر بإعدامهم. وفى الواقع، قيل إن عددهم ازداد كثيـرًا نظـرًا لموقـف بطليموس وحاجته الملحة لممتلكاتهم لسداد التزاماته.

وكان نتيجة هذه الحملة، أن وجد أنطونيو نفـسه يعلـو فجـأة ويتحول من شخص مشرد لا مأوى له إلى آخـر ثـرى ومـشهور، وبالتالى، أحد أقوى الشخصيات فى روما. وفى ذلك الحـين، نـشبت

الحرب الأهلية الكبرى بين قيصر وبومباى، واتخذ أنطونيو جانب قيصر.

وفى الوقت ذاته، أثناء اندلاع الحرب الأهلية بين قيصر وبومباى فى روما، نجح بطليموس فى الاحتفاظ بمقعده على العرش على مدى ثلاث سنوات، بمعاونة الجنود الرومان الذى تركهم أنطونيو وجابينيوس. وعندما أوشك على ختام حياته، جال بخاطره سؤال "إلى من سيؤول حكم المملكة من بعده؟". وكانت كليوباترا أكبر أبنائه، أميرة واعدة بالنسبة لقدراتها العقلية من ناحية وسحر شخصيتها من الناحية الأخرى. وكان أخواها يصغرانها سنا. وكان حق الابن فى المطالبة بالعرش، رغم صغر سنه. أقوى من حق الابنة ؛ ولكن موهبة كليوباترا القيادية وتأثيرها المتزايد أثار الشك بداخله عما إذا كان سيؤول إليها بسلام. وحسم بطليموس الأمر بطريقة البطالمة فى التغلب على المصاعب التى تواجههم . وقرر أن يزوج كليوباترا لأخيها الأكبر، وأن يرتقيا العرش معا. مع الإبقاء على فكرة، تحالف مصر مع روما، والذى كان المبدأ الأساسى فى السياسة العامة لحكمه.

وعهد بطليموس إلى مجلس الشيوخ الرومانى، من خلال بند فى الوصية ذاتها، بتنفيذ الوصية وأوكل إليهم الوصاية على أبنائه، ووافق المجلس، وقام بتعيين بومباى وكيلا لأداء هذه المهام. وبعد ذلك، انهمك بومباى فى الحرب الأهلية التى نشبت بينه وبين قيصر ولم يقم باتخاذ أى خطوة فعالة بشأن مهام تعيينه. ومع ذلك، فلم تكن

هناك ضرورة لكل هذه الأمـور. حيـث بـدت جميـع الأطـراف بالإسكندرية، عقب وفاة الملك، مؤيدة لما قام بالترتيب لـه، وشـارك الجميع في تنفيذه. وتزوجت كليوباترا من أخيها، رغم كونـه مجـرد صبي. وكان يبلغ العاشرة من العمر، وكانت هى فى الثامنة عـشر. ويعد كلاهما صغيرًا على ممارسة السلطة ؛ وكان كل مـا يمكنهمـا فعله فقط هو تولى السلطة. وتولى إدارة شئون المملكة وزيران كـان قد عينهما والدهما. وهم بوثينس، وزير شئون الدولة، وأخيلس، القائد الأعلى للقوات المسلحة.

ورغم أن كليوباترا حصلت على لقب ملكة، بهذه الأحداث، إلا أنه لم يتم ارتقاؤها الفعلى للعرش بعد. فكـان هنـاك العديـد مـن المصاعب والأخطار التى عليها اجتيازها قبل حلـول الفتـرة التـى تصبح فيها ملكة فعلية. ومن جانبها، لم تقم بأى محاولة مـن شـأنها التعجيل بهذه الفترة، بل أبدت تقبلها للإعدادات التى قام بهـا والـدها بهدوء.

وقد قضى بوثينس وقتا طويلا فى رئاسة الحكومة فـى عهـد بطليموس الأب. وكان شخصا طموحا متغطرسـا ومـستبدا، قـرر ممارسة السلطة، وجرد نفسه من المبادئ الأخلاقية للحـصول علـى الوسائل التى من شأنها تحقيق غاياته. واعتاد أن ينظر إلى كليوبـاترا على أنها مجرد طفلة. فكيف تصبح ملكة الآن. وكان يأبى أن تـؤول السلطة الفعلية إلى يديها. وفى غضون العامين أو الثلاثـة الأعـوام الأولى عقب وفاة والدها، ازداد شـعوره بـالغيرة والحقـد تجاههـا

بسرعة، عندما وجد أن شخصيتها ازدادت قوة واكتسبت سيادة ونفوذا على كل من حولها. حيث هيمن جمالها وكياستها وشيء من السحر لا يوصف على جميع تصرفاتها، فمنحها قوة هائلة في الشخصية. وبينما أثارت هذه الأشياء شعورًا بالاهتمام والارتباط بكليوباترا، فقد زادت من الغيرة والحقد داخل بوثينس، وصارت كليوباترا خصما له. وحاول أن يحبطها ويحول دون تقدمها. وكان يعاملها بغطرسة واستبداد، حتى يعطيها ما أسماه حجمها المناسب كقاصر تحت وصايته. حيث كان هو القائم بالوصاية على كل من كليوباترا وزوجها، ووصيا على العرش .

وكانت كليوباترا تتمتع بقدر كبير مما يمكن أن نطلق عليه، فى بعض الأحيان، الشخصية. وأثارت هذه المعاملة حنقها . وبذل جهدا عظيما لتطويع واستمالة زوجها الصغير بطليموس إلى جانبه كلما ازداد النزاع. وكان بطليموس أصغر سنا وذا شخصية أقل تميزا وعزما من كليوباترا. فرأى بوثينس أنه من الممكن إحكام السيطرة عليه بسهولة ولفترة طويلة عن كليوباترا. وجاهد لإثارة غيرة بطليموس من نفوذ زوجته المتزايد، واستمالته للمشاركة فى عرقلتها ومقاومتها. وزادت هذه المحاولات لقلب زوجها عليها من حنقها بصورة أكبر من ذى قبل. فلم تكن كليوباترا بالشخصية التى يمكن إكراهها على الطاعة. وامتلأ القصر بخلافات الخصوم. وبدأ بوثينس وبطليموس اتخاذ إجراءات لتطويع الجيش إلى جانبهما. وأعقب ذلك انفجار شديد، انتهى برحيل كليوباترا من المملكة.

وذهبت إلى سوريا، التى كانت أقرب ملاذ لها، إلى جانب كونها البلدة التى تم من خلالها إمداد والدها بالعون للعودة لعرشه عند طرده، فى ظروف مماثلة، منذ عدة سنوات. وحقا، لقد ذهب والدها إلى روما أولا ؛ ولكن العون الذى تفاوض بشأنه تم إرساله من سوريا. وتمنت كليوباترا أن تحصل على نفس العون بالذهاب مباشرة إلى هناك.

ولم يخب أملها، فحصلت على جيش، وبدأت الزحف تجاه مصر، من نفس الطريق الذى اتبعه أنطونيو وجابينيوس عند المجيء لإعادة تنصيب والدها. وحشد بوثينس جيشا وتقدم للقائها. وتولى أخيلس قيادة الجند، وبطليموس الصغير باسم الحاكم، بينما كان بوثينس، كوصى على الملك ورئيسا للوزارة، من يمارس السلطة الفعلية. وتقدم جنود بوثينيس إلى بلسيوم، وجاءت قوات كليوباترا من الشرق. وأقام الجيشان على مقربة من بعضهما، وأخذ كل منهما يتأهب للمعركة.

ومع ذلك، لم يلتحم الجيشان ولم تدر أحداث الصراع . حيث تفجرت خلال هذه الأزمة أحداث كبرى وغير متوقعة على مسرح أحداث تاريخ مصر، وغيرت مجرى الأحداث إلى مسار جديد غير متوقع. فقد ذكرنا أنه، عقب وفاة والد كليوباترا مباشرة، اندلعت الحرب الأهلية بروما بين القائدين العظيمين قيصر وبومباى وأحزابهما الموالين لهما، مما حال دون قيام بومباى بدوره كمنفذ للوصية. ومنذ ذلك الحين، والحرب دائرة بضراوة شديدة، حتى

وصل دوى صوتها إلى مصر، ولكنها كانت بعيدة بما يكفى لأن تثير أى إنذار بالخطر. وبدا تحرك الجيشين الهائلين لكلا القائدين العظيمين كطائرين من الطيور الجارحة الضارية يحلقان فى جو السماء، ويحاربان وهم طائران - عبر إيطاليا إلى اليونان، ومن اليونان عبر مقدونيا إلى صقلية، وهم منهمكون فى خوض صراعات شديدة وهم يواصلون تقدمهم، ويسحقون ويدمرون كل شيء فى طريقهم. ثم دارت معركة حاسمة بفارسيليا انتهت بهزيمة ساحقة لبومباي. وفر إلى شاطئ البحر، ومن هناك وبالقليل من السفن والأتباع، انطلق إلى البحر المتوسط وهو لا يعلم له ملاذا. وغمره البؤس واليأس. ولاحقه قيصر وهو يتلهف الإمساك به. وكان بحوزته أسطول صغير من السفن الشراعية ذات المجاديف، وعلى متنها ما يقرب من اثنين أو ثلاثة ألف رجل. وربما كانت هذه القوات مناسبة لملاحقة شخص هارب، ولكنها غير كافية لأى غرض آخر على الإطلاق.

وخطر بطليموس ببال بومباي. وتذكر المجهودات التى بذلها بروما من أجل مناصرة قضية بطليموس أوليتس، ونجاحها فى تأمين عودته إلى عرشه، الأمر الذى مكن بطليموس الصغير من الوصول للعرش الآن. وعليه، توجه إلى بلسيوم، وأنزل أسطوله الصغير بالشاطئ، وأرسل إلى بطليموس يطلب منه استقباله وحمايته. فأجاب بوثينيس، الذى كان القائد الفعلى لجيش بطليموس، أنه لابد من الموافقة على هذا الطلب، وأرسل مركبا لإحضاره من الشاطئ.

وانتاب بومباى شعور بالريبة بشأن هذا الكرم الزائد، ثم قرر الذهاب للشاطئ فى المركب الذى أرسله بوثينيس. وبمجرد وصوله، قام المصريون، بأمر بوثينيس، بطعنه وفصل رأسه عن جسده. وكان بوثينيس ومجلسه قد توصلوا إلى أن ذلك هو السبيل الأسلم. حيث إنهم إذا استقبلوا بومباى، فسيكون ذلك عداء واضحا منهم لقيصر؛ وإذا رفضوا استقباله، ستكون إساءة لبومباى، وهم لا يعلمون من منهما يجب عليهم إرضاؤه؛ حيث لا يعلمون كيف ستنتهى الحرب، إذا قدر للقائدين الحياة. وقالوا: " لكن قتل بومباى سيسعد قيصر بكل تأكيد، وسيرقد بومباى نفسه هادئا ".

وحيث إن قيصر لا يدرى المكان الذى احتمى به بومباى بمصر، فاتجه مباشرة إلى الإسكندرية. وبذلك، جعل نفسه عرضة لخطر عظيم، حيث لم تكن القوات التى بحوزته كافية لحمايته فى حالة تورطه فى مصاعب مع السلطات هناك. ولن يستطيع العودة بسهولة، عند وصوله للساحل المصري. حيث تهب رياح موسمية بانتظام على ذلك الجزء الساحلى، فى ذلك الفصل من العام، الذى وقعت به الأحداث، فبينما جعلت من السهل على أسطول السفن الذهاب إلى الإسكندرية، فإن العودة كانت تقريبا مستحيلة.

وقلما اعتاد قيصر على التراجع عند الخطر فى أى من خططه ومغامراته رغم حذره ويقظته المعتادة. ففى هذا المثال، هيمن حماسه المتقد لملاحقة بومباى على كل الاعتبارات الأمنية لنفسه. ووصل

إلى الإسكندرية واكتشف أن بومباى ليس هناك. وأرسى سفنه في الميناء، وأنزل الجنود، وأقام نفسه بالمدينة. وتفجر هذان الحدثان معا بمصر، مقتل أحد القادة الرومان العظماء فى أقصى الشرق من الساحل، وقدوم الآخر فى نفس اللحظة إلى الإسكندرية فى جهة الغرب، كقصف الرعد. وأصابت الأنباء البلد بأكمله بالدهشة، وسرعان ما أثارت الانتباه العام. فكانت معسكرات كل من كليوباترا وبطليموس، فى بلسيوم، فى دهشة وتعجب. وبدلا من الانشغال بالمعركة انهمك كلا الجانبين فى التفكير فى النتائج المحتملة، لجانب أو للآخر، فى ظل الإطار الجديد وغير المتوقع الذى اتخذته الشئون العامة.

وبالطبع اتجه تفكير الجميع إلى الإسكندرية. وعلى الفور توجه بوثينيس برفقة الملك الصغير إلى المدينة. ولحق بهم، أو كان بصحبتهم، أخيلس. وحملوا معهم رأس بومباى التى فصلوها عن جسده على الشاطئ حيث قتلوه، وختمه الذى أخذوه من أصبعه. وعندما وصلوا إلى الإسكندرية، قاموا بإرسال رأس بومباى، ملفوفة بقطعة من القماش، ومعها الختم، كهدية لقيصر. وحيث إنهم اعتادوا الأعمال الوحشية والقسوة الفظة للبطالمة، خيل لهم أن قيصر سيبتهج برؤية رأس خصمه وألد أعدائه مفصولة عن جسده بهذا الشكل المروع. وبدلا من ذلك، شعر قيصر بالاشمئزاز والغضب، وأمر بدفن الرأس بمراسم جنائزية جليلة ومهيبة. ولكنه قبل الختم واحتفظ

به. وكان قد نقش عليه أسد يحمل سيفا ببراثنه - وهو شعار يتناسب مع سمات الرجال الذين، رغم ما يتمتعون به من شهامة وعدل، قد ملئوا العالم رعبا بمعاركهم .

وبينما ذهب بطليموس ومستشاروه المباشرون إلى الإسكندرية، مكث الجيش ببلسيوم تحت قيادة ضباط آخرين لمراقبة كليوباترا . وأسعد كليوباترا نفسها أن تعود إلى الإسكندرية، إذ أمكنها ذلك، لتحتكم إلى قيصر ؛ ولكنها كانت خارج حدود البلاد، وهناك جيش مجهز متأهب للإيقاع بها إذا ما حاولت الدخول أو المرور خلالها. فمكثت فى بلسيوم لا تدرى ماذا تفعل.

وفى الوقت ذاته، وجد قيصر نفسه بموقف لا يحسد عليه فى الإسكندرية فقد اعتاد، لسنوات عديدة، على امتلاك وممارسة السلطة المطلقة أينما وجد ؛ والآن وقد مات بومباى خصمه اللدود، فقد رأى نفسه حاكما وسيدا على العالم. ورغم ذلك، لم يكن لديه أى من الوسائل التى تكفى لتدعيم هذا الحجة، ومع ذلك، لم يكن ليتراجع، لهذا السبب، وبأقل الدرجات، عن المواصلة. فأقام نفسه فى قصور الإسكندرية، كما لو كان هو الملك. وتنقل فى شوارع المدينة، على رأس حرسه، رافعا الشعار المعتاد للسلطة العليا فى روما. وطالب بالستة آلاف طالن التى كان قد وعده إياها بطليموس أوليتس فيما مضى من أجل عقد اتفاقية تحالف مع روما، وطلب من بوثينيس دفع الدين المستحق. وأضاف، أنه من خلال وصية أوليتس، أصبح شعب روما هو المنفذ؛ وقد آلت إليه هذه الثقة كقنصل رومانى، وبالتالى،

ممثل لشعب روما، لإنجاز المهمة فى تسوية النزاع بين بطليموس وكليوباترا؛ ودعا بطليموس للمثول أمامه لعرض قضيته، والأسس التى استند إليها فى حقه فى العرش وخلع كليوباترا.

وعلى الجانب الآخر، كان بوثينس- الذى اعتاد التسليم بأنه رفيع المقام مثل قيصر، رغم أن سيادته وهيمنته كانت على مستوى أقل- عنيدا وملحًا فى الإصرار على مقاومة كافة هذه المطالب، رغم أن الوسائل والأساليب التى لجأ إليها كانت ذات سمة تتوافق مع عقليته الضعيفة الوضيعة. فأثار المعارك فى الطرقات بين أهالى الإسكندرية وجنود قيصر. وظن أن قلة عدد الجنود الخاضعين لقيادة قيصر داخل المدينة وأتباعه بالميناء، سيثير غضب وقلق الرومان للإفلات من العاقبة المنتظرة، رغم أنه لا يمتلك الشجاعة الكافية لمهاجمتهم مباشرة. وتظاهر أنه صديق، أو، على الأقل، ليس عدوا. فاتفق على عمل الترتيبات اللازمة من أجل تزويدهم بالطعام، وقام بتدبير مؤن فاسد من أسوأ الأنواع؛ وعندما احتج الجنود، أخبرهم أنه ليس من حق من يعيش على نفقة الآخرين أن يشتكى من الطعام. وأمر بتقديم الطعام لهم فى الأوانى الخشبية والطينية، معللا ذلك بأنه اضطر لبيع تلك الأوانى المنزلية المصنوعة من الذهب والفضة للعائلة الملكية لمواجهة ابتزاز قيصر. كما شغل نفسه، بالمدينة، بمحاولة إثارة غضب العامة ضد عرض قيصر لسماع وحسم الأمر بين كليوباترا وبطليموس. قائلاً إن بطليموس حاكم، ولن ينقاد لاى سلطة خارجية أيا كانت. وهكذا، ودون الحاجة لشجاعة أو قوة

لمحاولة القيام بنظام واضح وفعال للعداء، حاول جاهدا إثـــارة كافـــة الصعوبات الممكنة، وعمل على الضغط المستمر وإثـــارة الغـــضب الذى لا يفيد. ربما كانت مطالب قيصر غير عادلة، ولكنهـــا جريئـــة ورجولية ومعلنة. وقد يكون بوثينيس محقا فـــى مقـــاومتهم، ولكـــن الأسلوب كان وضيعا وجديرًا بالازدراء، حتى أننا دائمًـــا مـــا نجـــد انحياز البشرية وتعاطف المشاهدين إلى جانـــب قيـــصر فـــى هـــذا الصراع.

ووجد قيصر نفسه، بالقوة الصغيرة التى كان يمتلكها، وتواجده وسط أعظم وأقوى مدينة، مع تزايد عداء كل من الحامية والأهـــالى بها له يومًا بعد يوم، محفوفا بالمخاطر البالغة. ولا يمكنه الانسحاب. ولم يكن ليتراجع اذا أمكنه فعل ذلك. وعليه، مكث بالمدينـــة، وظـــل يتعامل بحيطة وحذر طوال الوقت، مـــع احتفاظـــه برباطـــة جأشـــه ومكانته التى كانت تميزه دائما. ومع ذلك، بعث رسولا إلى ســـوريا، أقرب البلاد الخاضعة لسيطرة الرومان، يأمر بتوجيه فيالق عديدة من الجيش المتمركز هناك إلى الإسكندرية بأقصى سرعة ممكنة.

الفصل السادس

كليوباترا وقيصر

وفى الوقت ذاته، بينما تجرى هذه الأحداث التى سردناها فى الفصل السابق بالإسكندرية، مكثت كليوباترا فى معسكرها ينتابها القلق والاضطراب حيث لم تستقر، لبرهة من الوقت، على الأفضل لها أن تفعل. وتمنت أن تذهب إلى الإسكندرية. فهى تعلم جيدا أن لقيصر القدرة على السيطرة على مجرى الأحداث بمصر بصورة فائقة. وبالطبع، كان يملؤها الشغف والرغبة الشديدة فى أن تتمكن من عرض قضيتها أمام قيصر. وكما كان، كل من بطليموس وبوثينس على اتصال بالحكم الوسيط، وهى لا تبالى، ويسعون لتملقه والحصول على مساندته، بينما كانت هى بعيدة، وقضيتها غير مسموعة، وأخطاؤها غير معلومة، وربما اندثرت من الذاكرة تماما. وفى ظل هذه الظروف، كانت تتلهف للعودة إلى الإسكندرية بشدة.

ولكن كيف تحقق ما ترنو إليه، كان ذلك مصدر حيرة شديدة. فلا يمكنها الزحف على رأس جيش، حيث كان جيش الملك يطوق بلسيوم، وبالتالى يعترض الطريق. ولا تستطيع أن تمر بمفردها، أو برفقة القليل من الأتباع، إلى داخل البلاد، حيث كان بكل مدينة وقرية

حامية وضباط بأمر من بوثينس، وبالتاكيد سيتم اعتراضها. ولم يكن لديها أسطول للمرور عن طريق البحر. وإن أمكنها المرور بأمان لمدخل الإسكندرية، كيف يمكنها المرور بشوارع المدينة والوصول للقصر، حيث يقطن قيصر، لأن المدينة بأكملها، عدا مكان قيصر، تقع فى أيدى حكومة بوثينس؟ فكان فى السبيل لتحقيق هدفها صعوبات لا يمكن تذليلها.

ومع ذلك، قررت أن تقوم بالمحاولة . وأرسلت رسالة إلى قيصر تطلب فيها السماح لها بالمثول أمامه لتدافع عن قضيتها. فأجابها قيصر، وهو يحثها بشتى الطرق على المجيء. فأخذت قاربا، وعددًا قليلاً من أتباعها، وسارت على امتداد ساحل الإسكندرية. واعتمدت فى تلك المهمة، التى تنطوى على مخاطرة، على رجل يدعى أبولودروس. ومع ذلك، كان برفقتها أتباع آخرون. وعندما وصل الجمع إلى الإسكندرية، انتظروا حتى المساء، وتقدموا أسفل أسوار القلعة. وهنا، قام أبولودروس بلف الملكة فى قطعة من السجاد، وتغطيتها بثوب من القماش، وربطها بحبال لكى يعطيها مظهرًا شكل بضائع عادية، ثم ألقى الحمولة على كتفه، وسار داخل المدينة. وكانت كليوباترا تبلغ الحادى والعشرون من العمر، ولكنها ذات طبيعة رقيقة ورشيقة، فلم يكن الحمل ثقيلاً. ووقف أبولودروس بباب القصر حيث يقطن قيصر. وسأله الحراس عن ذلك الشيء الذى يحمله. وقال إنها هدية لقيصر. فسمحوا له بالمرور، وحمل الشيال المزعوم اللفة بأمان للداخل.

وأذهل قيصر المشهد الذى رآه، عند بسط السجادة وظهور كليوباترا. وأضفت عليها المشاعر المتضاربة التى لا يمكنها إلا أن تشعر بها فى ظل ظروف كهذه تأثيرًا مضاعفًا لوجهها الجميل المعبر وخصالها الساحرة. وأثارتها هذه المغامرة التى مرت بها، وأسعدها فرارها من المخاطر التى تحوطها. وكانت الإثارة والفضول الذى انتابها من ناحية فى حضرة الشخص العظيم الذى دخلت عليه بطريقة غريبة، شديد القوة، ولكن، من ناحية أخرى، هيمنت عليها رقة ولين من ذلك الشعور بالخجل، فى مواقف جديدة وغير متوقعة كهذه، وفى ظل شعورها بأنها موضع ملاحظة الجنس الآخر، ذلك الشعور الذى هو جزء لا يتجزأ من طبيعة المرأة.

وعمق الحوار الذى دار بين كليوباترا وقيصر الانطباع الذى تركته فى نفسه عند ظهورها أمامه لأول مرة. فذكاؤها وحيويتها وعقليتها الفذة وإصرارها على التعبير عنهم، جعلها شخصية
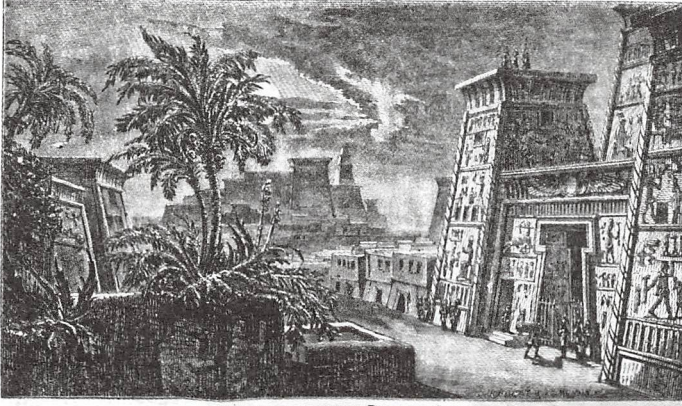
CLEOPATRA ENTERING THE PALACE OF CÆSAR

دخول كليوباترا قصر قيصر

ممتعة، ورفيقة مقبولة. وحازت على قلب الفاتح العظيم كلية؛ ومن خلال العلاقة الوطيدة التى نشأت بينهما، صار قيصر غير مؤهل على الإطلاق للبت بموضوعية بينها وبين شقيقها فيما يتعلق بحقوقهما الخاصة فى العرش. ونحن نطلق على بطليموس شقيق كليوباترا؛ رغم أنه لا يزال زوجها، حيث كان يبلغ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر عندما فرت كليوباترا من الإسكندرية، وزواجهما مجرد مسألة شكلية فقط. وكان قيصر يبلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا. وله زوجة تدعى كاليبورنيا. تزوجها منذ عشر سنوات. وكانت تعيش بطريقة هادئة فى روما آنذاك. وهى امرأة ذات شخصية رقيقة ودودة وصديقة لزوجها، تصبر وتتغاضى عن

أخطائه. ودائما ما تقلق وتحزن عند التفكير فى المصاعب والأخطار التى كان يقوده إليها طموحه اللامتناهى.

وسرعان ما بدأ قيصر يهتم بقضية كليوباترا بشدة. فكان مغرمًا بها بصفة شخصية وكان مستحيلا عليها ألا تبادله شيئًا من الشعور الطيب الذى كان يكنه له. وكان شيئًا جديدًا عليها أن تجد صديقا صادقا، يناصر قضيتها، ويقدم لها الحماية، ويسعى جاهدا لإسعادها. فقد أهملها والدها طوال حياته. وأصبح شقيقها، الذى كان يصغرها سنا وعقلا، وأرغمت على الزواج منه، عدوها الأبدي. وصار مجرد وسيلة وأداة لرجال أكثر تدبيرا لحرمانها من إرثها وطردها من موطنها. مما جعله، رغم ذلك، وبعيدًا عن تحسين المنظور الذى تراه منه، يبدوا بغيضا وجديرًا بالازدراء. وأيضًا، انقلب جميع ضباط الحكومة عليها، لأنهم ظنوا أنهم سيحكمون السيطرة على أخيها بسهولة إذا ما رحلت هى بعيدًا. وكانت محاطة دائما بالأعداء الذين يتسمون بالأنانية والجشع والحقد. والآن، ولأول مرة، يكون لها صديق. يظهر فجأة لمناصرتها والدفاع عنها - ذو شخصية جذابة يتمتع بالكرم والنبالة وفى أعلى الدرجات. أحبها ولن تتنصل من مبادلته نفس الحب فى المقابل. فوضعت قضيتها كاملة بين يديه، وأودعته اهتمامها، وسلمت نفسها تماما لحكمه.

ولم تكن ثقتها غير المحدودة به فى غير محلها، فبذل ما فى جهده لإعادتها لعرشها. ولم تكن الحامية التى أرسل فى طلبها من سوريا قد وصلت بعد، وكان موقفه بالإسكندرية لا يزال غير مأمون

ومحفوفا بالمخاطر. ومع ذلك، لم يتراجع عن الرفعة والثقة بــالنفس فى الموقف الذى اتخذه، بل بدأ على الفور فى تأمين عودة كليوباترا. فكان ادعاء الحق والسلطة من أجل حسم قضية مثل هذه كالمطالبــة بالحق فى العرش، فى بلد جاء إليه مصادفة ووجد خصمين يــدعيان أحقيتهما فى خلافة العرش، بينما كان لا يزال بدون وســائل لتــدعيم رفعته، تبرز السيادة الهائلة التى بلغتها السلطة الرومانية فــى تلــك الآونة فى تقدير البشرية، إلى جانب العبقرية والتنظيم الذى اتسم بهما قيصر.

وعقب لجوء كليوباترا إلى قيصر أرسل، على الفور، يطلــب بطليموس الصغير، وأخذ يحثه على الواجب والنفعيــة فــى إعــادة كليوباترا للعرش. وكان بطليموس قد بلغ من العمر ما يمكنــه مــن اتخاذ قراره بنفسه فى مثل هذا الأمر. وصرح بأنه معــارض تمامــا لأى من هذا التخطيط. وعلم من سياق الحوار أن كليوباترا وصــلت الإسكندرية، وأنها تختبئ بقصر قيصر. وأثار هذا النبأ سخطًا ونقمــة داخل نفسه. وانصرف من أمام قيصر وهو يشتاط غــضبا. ومــزق التاج الذى اعتاد أن يرتديه على رأسه وألقاه فى الطرقات، وســحقه بقدمه. وأعلن للشعب أنه قد وقع ضحية للخيانة، مبديا أقصى درجات العنف من الغيظ والحزن. وكان الموضوع الأساسى فى شكوته، فى محاولته لإثارة السخط العام ضد قيصر والرومــان، هــو الموقــف المشين الذى ارتكبته شقيقته بتسليم نفسها كما فعلت لقيــصر. ومــع

ذلك، وإلى حد كبير، إذا لم تكن شخصيته تختلف تمامًا عن أى بطليموس آخر قد سبقه، فإن ما أثار غيرته وغضبه حقا هو أن تؤول السلطة والنفوذ إلى كليوباترا بمساندة هذا الوصى البارز، عن أى اهتمامات أخرى بصداقته، أو أى اعتبارات حقيقية للكياسة فيما يتعلق بالسمعة الطيبة لشقيقته أو شرفه كزوج لها.

ومع ذلك فقد نجح ذلك الاحتجاجُ العنيف الذى قام به بطليموس وبوثينس وأخيلس وجميع أصدقائه وأتباعه، الذين انضموا إليه، ضد التحالف الذى اكتشفه بين قيصر وكليوباترا، فى إثارة الشغب والغضب العام فى كل أرجاء المدينة. وبدأ العامة فى التجمهر فى جموع غفيرة يملؤها السخط والغضب. وعلم بعضهم الحقيقة وتحركوا بنوع من الوعى بقضية غضبهم. وعلم آخرون أن الهدف من تلك الصحوة المفاجئة هو مهاجمة الرومان، وكان على أهبة الاستعداد للانضمام إلى أى أعمال من العنف موجهة لهؤلاء الدخلاء الأجانب بأى حجة سواء كانت معروفة أو غير معروفة. وهناك آخرون، ويحتمل أنهم الجزء الأكبر، لا يعلمون ولا يفقهون شيئًا إلا أنه هناك اضطراب وشغب بالقرب من القصور وعليه كانوا يتهافتون للذهاب إلى هناك .

ولم يكن لبطليموس وضباطه جمع كبير من الجنود بالإسكندرية؛ فسرعان ما توالت الأحداث التى عقبت قدوم قيصر فى

وقت يسير وبقى الجيش الأساسى فى بلسيوم. وتألفت القوة الأساسية التى هاجمت قيصر الآن، من سكان المدينة الذين يتزعمهم القليل من الحراس الخاضعين لقيادة الملك الصغير.

وكان قيصر يحتفظ بقدر صغير من القوات داخل القصر الذى هاجموه داخله. وتنتشر البقية بأرجاء المدينة . ومع ذلك، لم يبد أنه شعر بأى خطر. ولم يتخذ دور المدافع. وأرسل كتيبة من جنوده أمرهم بالقبض على بطليموس وإيداعه فى السجن. وكما كان جنود الرومان متمرسين، ومحنكين، ومسلحين، تحركهم الغيرة والحماسة التى كانت تميز الجنود الذين يحاربون تحت قيادة قيصر، فكان لهم القدرة على إنجاز أى مهمة ضد العامة رغم ما قد يكونون عليه من كثرة العدد وثورة الغضب. وهاجم الجنود بطليموس وأمسكوا به وأحضروه.

وفى بادئ الأمر، أذهل العامة الإقدام على ذلك العمل الجريء، ثم اشتاطوا غضبا إزاء هذه الإهانة، واعتبروها تعديا على شخص حاكمهم. وكان الغضب سيبلغ ذروته إذا لم يكن قيصر - الذى حقق كل غاياته بإحضار كل من كليوباترا وبطليموس تحت سيطرته- قد فكر أنه من الأنسب أن يجمعهما معا. فصعد إلى نافذة، أو مكان مرتفع بقصره، حتى لا تصله قذائف العامة من أسفل، وبدأ يعبر بالإشارة عن رغبته فى مخاطبتهم.

وعندما ساد السكون، تحدث إليهم بكلمـــات مختـــارة لتهدئـــة ثورتهم. وأخبرهم أنه لم يدَّع أى حق بالأفضلية للفصل بين كليوباترا وبطليموس، ولكنه يقوم فقط بأداء مهمة أسندها بطليموس أوليـــتس، الأب، بصورة شرعية، لشعب روما، الذى يعد هو ممثلا له. وغيـــر ذلك، فإنه لم يدَّع سلطانا فى القضية ؛ وكل ما يأمله، فى التحرر من هذه المهمة التى ألقيت على عاتقه للنظر فى القضية، هـــو تـــسويتها بطريقة عادلة ومنصفة لكل الأطراف المعنية، وبذلك يـــتم إجهـــاض بداية حرب أهلية تنذر بالوعيد للبلد بإسره. وعليه، نصحهم بالتفرق، وألا يعودوا لزعزعة أمن المدينـــة. وقـــام، علـــى الفـــور، باتخـــاذ الإجراءات اللازمة لتسوية الأمر بين كليوباترا وبطليموس، ولم ينتابه أى شك بأن قراره سيرضى الجميع.

وألقى قيصر هذا الخطاب، كما كان، بطريقة بليغة ومقنعـــة، رغم الأسلوب الجليل والمهيب الذى اشتهرت به خطاباتـــه لجمـــوع متمردة كهذه، فقد نتج عنه أعظم الأثر. فـــاقتنع الـــبعض، وصـــمت آخرون؛ أما هؤلاء الذين لم يشبعوا غضبهم وحنقهم، وجدوا أنفـــسهم مسلوبى الإرادة وسط هدوء البقية. وتفرق العامة، وظل بطليمـــوس محتجزا مع كليوباترا لدى قيصر .

و فى اليوم التالى، وفى قيصر بوعده، قام بدعوة جمـــع مـــن شعب الإسكندرية ورجال الدولة، ثم أحضر بطليمـــوس وكليوبـــاترا لحسم القضية. وكان بطليموس أوليتس قد أودع وصيته الأصلية التى

أعدها بالمحفوظات العامة بالإسكندرية، وتم حفظها بعناية هناك. وقام بإرسال نسخة موثقة منها إلى روما. فأمر قيصر بإحضار أصل الوصية وقراءتها للجمع الموجود. وكانت بنودها جلية ومفهومة تماما، وهى تقضى بزواج كليوباترا وبطليموس، وقيامهما بإدارة شئون الحكم معا كملك وملكة، والاعتراف بالكومنولث الرومانى كحليف لمصر، وتعيين الحكومة الرومانية كمنفذ للوصية، وراعيا للملك والملكة. وكانت الوصية واضحة تماما ومجرد قراءتها حسم للأمر. وعندما أعلن قيصر ذلك، فى حكمه، فكانت الوصية تؤهل كليوباترا لمشاركة بطليموس فى سلطة الحكم العليا، وأن مهمته، كممثل للسلطة الرومانية ومنفذ للوصية، حماية حقوق كل من الملك والملكة. ولم يكن هناك شيء يقال ضد قراره.

وإلى جانب كليوباترا وبطليموس، كان لبطليموس أوليتس طفلان آخران فى العائلة الملكية آنذاك، وكانت إحداهما فتاة تدعى أرسينوى. والآخر صبيًا منعزلاً تمامًا يطلق عليه، مثل أخيه، بطليموس. وكان الطفلان صغيرين إلى حد ما، ولكن قيصر اعتقد أنه قد يرضى أهل الإسكندرية، ويؤدى إلى تقبلهم لقراره، إذا ما أضاف لهما بندًا فى الوصية. وعليه، منحهما جزيرة قبرص لتكون مملكة لهما. حيث كانت قبرص مقاطعة رومانية آنذاك(*).

(*) للتعرف على موقع هذه الجزيرة والدول المجاورة، انظر إلى خريطة المقدمة.

وارتضى جميع الحضور ذلك القرار عدا بوثينيس. فقد كان عدوًا عنيدًا وشموسًا لكليوباترا، حتى انه كان يعى جيدًا أن فى عودتها انهيارًا ودمارًا له. وانصرف من الاجتماع كارهًا للانصياع للقرار، ولكنه ينوى اتخاذ التدابير اللازمة فى الحال لمنع تفعيله.

وقام قيصر بعمل الترتيبات لسلسلة من الاحتفالات والمهرجانات للتأكيد على إحياء علاقة فهم جيد بين الملك والملكة وإنهاء الحرب. وأشار إلى أن هذه الاحتفالات ستكون لها عظيم الأثر فى إزالة الضغائن المتبقية بعقول الشعب، واستعادة السيادة للشعور الودى العطوف فى أرجاء المدينة. ووافق الشعب على هذه التدابير وشارك بمودة حتى تحقق مغزاها ؛ ورغم إخفاء بوثينس وأخيلس للتعبيرات الخارجية بعدم الرضا، بذلوا جهدًا منقطع النظير سرًا لتنظيم حزب وإعداد الخطط للإطاحة بسيادة قيصر، وإعادة بطليموس للحكم المطلق منفردًا.

وصور بوثينس لكل من يصغى إليه أن خطة قيصر الحقيقية هى أن يجعل كليوباترا تنفرد بالحكم ويطيح ببطليموس، وحثهم على الانضمام إليه لمقاومة سياسة قد تؤدى بمصر لأن تخضع لحكم امرأة. وأعد خطة، بالاتفاق مع أخيلس، لإعطاء الأوامر للجيش للعودة من بلسيوم. وكان يتألف من ثلاثين ألف رجل. فظنوا أنه إذا تمكنوا من إحضار الجيش للإسكندرية وظل تحت أمر بوثينس، فسيكون قيصر وجيشه المؤلف من ثلاثة آلاف رجل تحت رحمتهم.

ومع ذلك، كان هناك خطر واحد لابد من الحذر منه عند إعطاء الأمر للجيش بالتحرك تجاه العاصمة، وهو أن بطليموس تحت سيطرة قيصر، وقد يفلح فى الاتصال بالقواد، وبذلك يتولى أمر تحركهم، ويحبط كافة خطط المتآمرين. ولتجنب ذلك، رتب بوثينس وأخيلس فيما بينهما أن يتمكن أخيلس من الفرار من الإسكندرية، والوصول إلى المعسكر فى بلسيوم، ثم يتولى قيادة الجنود بنفسه من هناك إلى العاصمة؛ وأن فى كل هذه العمليات، وعند قدومه، لا ينصاع لأى أمر يأتيه إلا عن طريق بوثينس.

ورغم الحراسة المشددة على المداخل والطرقات المؤدية إلى خارج المدينة، جاهد أخيلس ليتمكن من الفرار والانضمام للجيش. وتولى قيادة القوات، وبدأ زحفه تجاه العاصمة. بينما مكث بوثينس داخل المدينة كجاسوس طوال الوقت، وهو يتظاهر بقبوله لقرار قيصر، وإبداء الود له، ولكنه فى حقيقة الأمر يدبر المكائد للإطاحة به، ويحصل على المعلومات اللازمة التى تتحيها له مكانته كى يتمكن من التعاون مع الجيش وأخيلس عند وصولهم .

وتمت جميع هذه الأمور بأقصى درجات السرية، وبلغ المتآمرون قمة المكر فى إعداد وتنفيذ مكائدهم، فلم يكن لقيصر أدنى معرفة بما يدبره أعداؤه، حتى علم فجأة أن القوات الأساسية لجيش بطليموس تقترب من المدينة، وهم يفوقونهم بعشرين ألفًا. وفى الوقت

ذاته، لم تصل القوات التى قد أرسل فى طلبها من سوريا بعد، ولم يكن لديه اختيار سوى الدفاع عن العاصمة وعن نفسه قدر المستطاع بهذه القوة الصغيرة التى بحوزته.

ومع ذلك أراد، أولا، أن يجرب تأثير الأوامر التى ترسل باسم بطليموس لمنع تقدم الجيش إلى المدينة. فعهد قيصر بهذه المهمة لاثنين من الضباط، وأرسلهم بها إلى أخيلس، وكانت أسماؤهم أوسكوريدز وسرابيون.

وتعرض علينا وجهة نظر مذهلة تظهر مدى تمجيد السلطة ومكانة الملك الحاكم فى هذه الأونة، فى عقول الناس، أنه عندما حضر هؤلاء الرجال داخل المعسكر وهم، بالتأكيد، يحملان أمرًا من بطليموس من داخل المدينة، رأى أخيلس أنه من الأحصف أن يقتلهما فى الحال دون السماع لرسالتهم، بدلا من السماع لهما واستلام الرسالة وتحمل مسؤلية عدم الامتثال لها. حيث كان يعلم أنه إذا تمكن من الزحف للإسكندرية والاستيلاء على المدينة، وطرد قيصر وكليوباترا، وإعادة بطليموس للعرش منفردا، فسيسعد الملك بالنتيجة، ويتغاضى عن كافة التجاوزات التى ارتكبها من جانبه والوسائل التى اتبعها لتحقيقها، وعدم الانصياع لأمر بعينه. مهما تكن الأوامر التى جاء بها الرسل، فقد افترض أنهم لم يتم إرسالهم بناء على رغبة بطليموس نفسه، ولكن بأمر قيصر. ولكنها لا تزال أوامر جاءت باسم بطليموس؛ ولكن الخبرة العامة للضباط الذين يخدمون تحت قيادة

عسكرية مطلقة فى هذه الآونة القديمة أظهرت أنه، بدلا من تحمل مسئولية عدم الانصياع لأمر ملكى مباشرة عند الإحاطة به، من الأفضل عدم تسلمه عن طريق قتل الرسل الذين جاءوا به.

وعليه، أمر أخيلس بالإمساك بالضباط وذبحهم. فأخذهم الجنود وطعنوهم بالرماح، ثم حملوهم بعيدا. ومع ذلك، نجد، فيما بعد، أن الجنود لم يقوموا بدورهم كما ينبغى، فلم يكن ليستهويهم ذلك القتل الوحشى، وربما تملكهم شيء من العطف تجاههم، فكفوا أيديهم عنهم. وعلى أية حال، فرغم إصابة الاثنين بجروح بالغة، مات أحدهم فقط. وتماثل الآخر للشفاء وعاش.

وواصل أخيلس تقدمه تجاه المدينة. وعندما وجد قيصر خطورة الكارثة التى تقترب، تولى الأمر داخل العاصمة، وبدأ فى عمل أفضل الإعدادات الممكنة فى ظل الوضع الراهن للدفاع عن نفسه. وكانت الأعداد التى بحوزته صغيرة جدا لدرجة لا تمكنه من الدفاع عن المدينة كلها ضد القوات الساحقة التى كانت تتقدم لمهاجمتهم. وعليه، قام بنشر جنوده بالقصور والقلعة، وفى الأجزاء الأخرى من المدينة، والتى بدت سهلة المنال، من أجل حمايتها، وقام بغلق الشوارع والطرقات المؤدية إلى هذه المواقع بمتاريس وتحصين المداخل. وبينما كان يعمل على استخدام كافة الوسائل التى فى حوزته، والتى لا تكفى للدفاع، بأفضل السبل، لم يأل جهدا فى الحصول على مساعدات خارجية. فأرسل فى طلب حاميات عسكرية

من سوريا وقبرص ورودس وجميع المواقع القريبة من الإسـكندرية والتى يتوقع أن يوجد بها جنود رومـان، مطالبـا الـسلطات هنـاك بإرسال التعزيزات له بأقصى سرعة ممكنة.

وفى غضون ذلك، مكث كل من كليوباترا وبطليمـوس فـى قصر قيصر، وكلاهما يتظاهر بالتعاون معـه فـى مجالـسه وفـى إجراءاته للدفاع عن المدينة ضد أخيلس. وبالطبع، كانـت كليوبـاترا صادقة وجادة فى تعاونها. ولكن موقف بطليموس، كـان لا يعتمـد عليه. فبحكم موقفه، كان مجبرا على أن يبدى تأييده لجانب قيـصر. وكان يتمنى بداخله أن ينجح أخيلس ويطيح بتخطيط قيـصر. وكـان بوثينس أكثر تفاعلا رغم أنه ليس حذرا فى عدائه لهم . فكان يتصل بأخيلس سرا، ويمده بالمعلومات عما يجرى بالداخل من آن لآخـر، والاستعدادات التى تمت للدفاع عن المدينة، ويعطيه التوجيهات التـى تمكنه من مواصلة تقدمه. وبلغ من الحذر أشـده فـى عمـل تلـك التحركات، متظاهرا باتخاذ جانب قيصر طـوال الوقـت. وتظـاهر بمعاونة قيصر بحماس شديد من أجل تأمين المواقع المختلفـة التـى يمكن أن تأتى منها الهجمات بدرجة أكبر، ومعاونته فـى اسـتكمال ترتيبات الدفاع .

ومع ذلك، رغم كل مكره، تم اكتشاف ازدواجيته فى المعاملـة وانتهت خطته فجأة، قبل بدء الصراع النهائي. فكان هناك حلاق لدى قيصر، ولسبب أو لآخر، نما الشك بداخله تجاه بوثينس، فقام بمراقبة

تحركاته وإبلاغ قيصر بها. وأمر قيصر الحلاق بمتابعة المراقبة حتى تأكدت ظنونه عند حصوله على خطاب كتبه بوثينس لأخيلس، فأحضره إلى قيصر. وكان ذلك دليلاً على ارتكابه ذنبًا، فأمر قيصر بقطع رقبته .

وبالطبع، كان لهذا الحدث عظيم الأثر داخل القصر، حيث قضى بوثينس سنوات عديدة كوزير للدولة، وملك فى كل شيء عدا اللقب. فكان إعدامه بمثابة إنذار للعديد من الآخرين الذين كانوا تحت سيادة قيصر، ولكنهم يتمنون بداخلهم انتصار أخيلس. ومن هؤلاء الذين ارتابتهم المخاوف رجل يدعى جنيميد. وكان الضابط المسئول عن أرسينوى، شقيقة كليوباترا، فلم تكن الترتيبات التى اقترحها قيصر لتنصيبها وشقيقها بطليموس على جزيرة قبرص قد تم تفعيلها بعد ؛ حيث إن أنباء تقدم الجيش والاستعدادات المطلوبة لخوض المعركة، جعلت قرار قيصر وكل ما يتعلق به يتوقف. وعليه، مكثت أرسينوى بالقصر مع قائدها جيمنيد الذى انضم لبوثينس فى إعداد مكائده، فرأى أنه من الآمن له أن يهرب بعد إعدام بوثينس.

وعليه، قرر أن يهرب من المدينة برفقة أرسينوي. وكانت محاولته تنطوى على مخاطرة، ولكنه تمكن من إنجازها. وكانت لدى أرسينوى رغبة فى الذهاب، فقد بدأت تنمو بما يكفى لتشعر بذلك الطموح الطائش الذى لا يشبع والذى بدا سمة أساسية فى شخصية

جميع أبناء وبنات السلالة البطلمية. فقد كانت تافهة لا تملك القوة، ولكنها على رأس جيش قد تصبح ملكة على الفور.

وكما توقعت، في اللقاء الأول، استقبلها أخيلس وجيشه بالتهليل. وقرروا- بفضل جينميد، وحيث إن جميع أفراد العائلة الملكية الآخرين بالسجن، حيث وقعوا في أسر الجنرال الأجنبي الذي استولى على العاصمة مصادفة، وهم يعجزون عن ممارسة السلطة- أن يؤول العرش إلى أرسينوي، وعليه تم تنصيبها ملكة.

والآن صار كل شيء معدًا لنزاع شديد لا مفر منه على العرش بين كليوباترا، ويساندها قيصر كوكيلها وقائدها من جانب، وأرسينوي، ويدعمها جينميد وأخيلس كرؤساء للجيش من جانب آخر. وفي الوقت ذاته، ظل بطليموس الصغير سجينًا لدى قيصر، يشعر بالاضطراب من أثر التعقيدات التي ينطوي عليها النزاع، وسار لا يعلم ما يريده بشأن القضية موضوع النزاع. فكان من الصعب التنبؤ بما سيكون أفضل له، أن تنجح كليوباترا أم أرسينوي.

الفصل السابع

الحرب السكندرية

تعرف الحرب التى نجمت عن المؤمرات والمناورات التى سردناها فى الفصل السابق، فى تاريخ روما ويوليس قيصر بالحرب السكندرية. وستكون الأحداث التى دارت أثناء تطورها، وانتصار قيصر وكليوباترا الحاسم بها، موضوع هذا الفصل.

فى بادئ الأمر، تفوق أخيلس على قيصر بدرجة عالية، فيما يتعلق بالقوات التى كانت خاضعة لقيادته. ففى الواقع، لم يكن بحوزة قيصر سوى كتيبة تتألف من ما يقرب من الثلاثة أو أربعة آلاف رجل فقط، وقليل من الجنود الذين صعدوا على متن سرية السفن التى خرجت لملاحقة بومباى عبر البحر المتوسط. فعندما انطلق من الشواطئ الأوربية بهذا الأسطول القليل، لم يكن يعقد العزم على التوجه لمصر، أو التورط بمعركة حربية كبيرة هناك على الإطلاق. أما أخيلس فكان يقود جيشاً يتألف من ما يقرب من عشرين ألف رجلٍ مدربين على خوض المعارك بمهارة. وكان جنوده، فى واقع الأمر، مختلفين فى خصالهم وطبائعهم، ولكن جميعهم محاربون

متمرسون اعتادوا جو مصر. فبعضهم رومانى الأصل ممن جاءوا ضمن جيش مارك أنطونيو من سوريا لتنصيب بطليموس أوليتس، والد كليوباترا، على العرش، ومكثوا بمصر، فى خدمة بطليموس، عند عودة أنطونيو إلى روما. وبعضهم مصرى الأصل. وأيضا، كان بجيشه عدد كبير من العبيد اللاجئين - الذين فروا من مواقع عديدة بشواطئ البحر المتوسط، على فترات مختلفة، وأخذوا فى الانضمام للجيش المصرى من حين لآخر. وكان هؤلاء الرجال من الباسلين الأشداء.

وأيضا، كان أخيلس يتولى قيادة قوة تتألف من ألفى حصان. وبالطبع، جعلته قيادة هذه الفرقة من سلاح الفرسان، قائدا متمكنا من كافة مداخل البلاد خارج أسوار المدينة. فعلى رأس هذه القوة، تقدم أخيلس تدريجيًا لمداخل الإسكندرية وحاصرها من جميع الجهات وجعل قيصر حبيسًا هناك.

وكان وضع قيصر بهذا الموقف أمرًا شديدًا الخطورة ؛ ولكنه اعتاد على النجاح فى تحرير نفسه من أشد المخاطر، حتى أنه لم يبد عليه أوعلى أى من جيشه القلق بشأن النتيجة. فكان قيصر يشعر بالفخر والسعادة فى مجابهة الصعاب والمخاطر التى تكتنفه، لأن كليوباترا كانت برفقته تشاهد ما يقوم به من تصرفات، وتعجب بقوته وشجاعته، وتقدم له حبها على ما بذل من جهود وتضحيات فى سبيل مناصرة قضيتها. فقد وثقت به وألقت على كاهله كل شيء، ولكنها

كانت تراقب كل الوقائع بلهفة بالغة، وهى مفعمة بالأمل فى النتيجة، وفخورة بالبطل المغوار الذى تطوع للدفاع عنها. فبإيجاز، كان يملأ قلبها الامتنان والإعجاب والحب.

وكان للمشاعرالغامرة التى أحستها، أيضا، أثر عظيم فى زيادة سحرها المعتاد، فصارت القوة والطاقة المتأصلة بشخصيتها رقة ولطفا. وخضع صوتها، الذى كان به سحرّ لا يبرر، لحلاوة جديدة بفضل الهوى. وأشرقت سيماها بحيوية وجمال، وتحول المرح والنشاط بشخصيتها، التى كاد أن يكون جراءة وغرابة فى الفترات الأخيرة من حياتها، وصار لينا محكوما بإطار ملائم لنظرة الاحترام التى ترى بها قيصر، مما جعلها رفيقة فاتنة. وفى الواقع، خر قيصر ثملا تماما من سحرها الذى كانت تبديه دونما قصد.

وفى ظل ظروف أخرى غير هذه، فعلاقة شخصية قوية، يقيمها قائد عسكرى أثناء انشغاله بالخدمة، من المتوقع أن تتعارض بدرجة ما مع إنجاز واجباته ؛ ولكن فى هذه الحالة، لأن المهام التى تعهد قيصر بإنجازها كانت من أجل كليوباترا ولصالحها، فكان حبه لها فقط يقوم بتحفيز روحه وقوته فى أداء المهمة التى انهمك فيها.

وكان أول إجراء اتخذه قيصر هو التركيز على تدعيم موقفه داخل المدينة حتى يتمكن من الدفاع عن نفسه ضد أخيلس لحين قدوم التعزيزات من الخارج. وعليه قام باختيار مجموعة معينة من

القصور والقلاع التى تقع بالقرب من مقدمة الجسر الطويل المؤدى إلى الفنار، وقام بسحب جنوده من جميع المناطق الأخرى بالمدينة ونشرهم هناك. وكانت هذه المنطقة تحتوى على كبرى مستودعات ومخازن القمح العامة المدينة. وقام قيصر بجمع الأسلحة والذخائر التى استطاع العثور عليها فى أماكن أخرى من المدينة، وأيضا الحبوب والمؤن الأخرى سواء كانت بالمستودعات العامة أو المخازن الخاصة، وأودعها داخل صفوفه. وقام بتحصين المنطقة بأكملها بدفاع قوي. وقام بسد الطرقات المؤدية اليها بأسوار من الحجارة. وهدم المنازل المحيطة التى قد تتيح مأوى للأعداء، وأقام الأسوار فى المناطق الهامة، ودعم المتاريس. وأعد الآلات الحربية الضخمة لإلقاء الحجارة الثقيلة والعوارض الخشبية والقذائف الأخرى، وقام بعمل فتحات فى الأسوار وأعد سبل الدفاع عن القلعة التى اقتضاه الحال لتسهيل عمل هذه الآلات.

وكان هناك حصن يقع فى مقدمة الجسر المؤدى إلى جزيرة فاروس، التى لم تكن داخل حدود قيصر، لا يزال فى أيدى
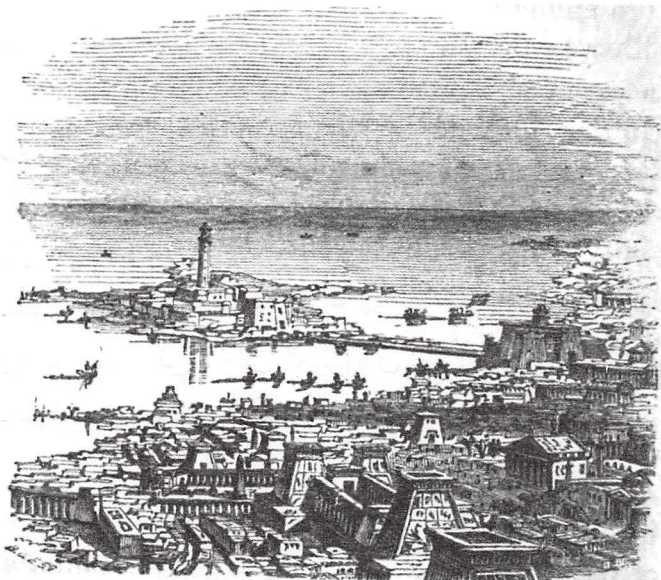
VIEW OF ALEXANDRIA.

مشهد الإسكندرية

السلطات المصرية. فهيمن المصريون على مدخل الجسر. وكانت الجزيرة نفسها بالإضافة إلى الحصن فى الطرف الآخر لاتزال بحوزة السلطات المصرية وكانوا يميلون إلى تسليمهما إلى أخيلس. وكان الجسر طويلا حيث كانت الجزيرة تبعد عن الشاطئ بميل تقريبًا. وكانت هناك مدينة صغيرة بنيت على الجزيرة إلى جانب

الحصن أو القلعة للدفاع عن المكان. وكان بهذا الحصن حامية قوية، وأيضا كان بالمدينة عدد هائل من السكان يتألفون من صيادين وبحارة وفرق إنقاذ والعديد من الشخصيات الأخرى المستقلة التى عادة ما تتجمع فى مثل هذا الموقع. وتوصلت كليوباترا وقيصر وهم ينظرون إلى هذه الجزيرة من قصورهم بالمدينة، والفنار ينتصب بمنتصفها والقلعة قاعدة له، والبرزخ الضيق الطويل الذى يربطها بالمدينة الرئيسية، إلى أنه من الضرورى لهم أن يقوموا بالاستحواذ على الموقع حتى يمكنهم الهيمنة على المرفأ.

وكان الميناء، كما يتضح من الرسم، يقع فى جهة الجنوب من الجسر، وبالتالى فى الناحية المواجهة لتلك التى كان يواصل منها أخيلس تقدمه تجاه المدينة، وكان هناك عدد كبير من المراكب المصرية بعضها غير مجهزة بوسائل الدفاع، والبعض الآخر مجهز بالرجال والعتاد بصورة جيدة. ولم تكن هذه المراكب قد وقعت بأيدى أخيلس بعد، ولكنه سوف يستحوذ عليها بمجرد حصوله على تأييد هذه الأجزاء التى تركها قيصر من المدينة. وكان من الضرورى منع حدوث ذلك؛ لأنه إذا استحوذ أخيلس على هذا الأسطول، خاصة إذا استمر فى الهيمنة على جزيرة فاروس، فستكون له السيادة على كافة الطرق المؤدية إلى المدينة من جهة البحر. وحينئذ لن يتلقى الإمدادات والتعزيزات لنفسه من ذلك الجزء فقط. ولكنه سيتمكن من منع الجيش الرومانى من تلقى أى منها.و صار أمرًا ملحا، كما رأى

قيصر، أن يحمى نفسه ضد هذا الخطر. وقام بإرسال حملة لحرق جميع المراكب الموجودة بالمرفأ، والاستيلاء على حصن بعينه بجزيرة فاروس يشرف على مدخل الميناء. وأنجزت الحملة مهمتها بنجاح. فقام الجنود بإحراق المراكب، والاستيلاء على الحصن، وطرد الجنود المصريين منه، وتركوا به حامية رومانية، ثم عادوا فى سلام إلى صفوف قيصر. وشاهدت كليوباترا هذه المأثرة من شرفة قصرها وانتابها شعور بالإعجاب بالقوة والبسالة التى أبداها الحماة الرومان.

ورغم أن حرق السفن المصرية فى هذه الحادثة أسعد كليوباترا وقيصر، إلا أنه اكتنفته فاجعة أدانها العالم المتمدن بأسره. حيث انتقلت بعض من السفن المحترقة بفعل حركة الرياح إلى الشاطئ وتسببت فى إشعال النيران بالمبانى القريبة من المياه وانتشر الحريق ونجم عنه تدمير جزء كبير من المكتبة الهائلة. وكانت هذه المكتبة هى التوليفة العامة الوحيدة من الكتب القديمة التى لم يسبق لها مثيل، ولم يتم تعويض هذه الخسارة أبدًا.

ونجم عن تدمير الأسطول المصرى انهيار وسقوط أخيلس. فمنذ قدوم أرسينوى إلى المعسكر، نشأ عداء وغيرة مستمرة بينه وبين جانيميد الذى رافق أرسينوى فى فرارها. وانقسم الجيش لجبهتين، أحدهما يعلن ولاءه لأخيلس والأخرى تؤيد جانيميد.

واتخذت أرسينوى صف جانيميد، وعندما احترق الأسطول، اتهمت أخيلس بالإهمال والتقصير الذى تسبب فى أحداث هذه الخسارة. وتمت محاكمته وحكم عليه بالإعدام. ومنذ ذلك الحين، تولى جانيميد إدارة حكومة أرسينوى كوزير للدولة وقائدا للجيش.

وأثناء وقوع هذه الأحداث، أخذ الجيش المصرى يتقدم فى تلك الأجزاء التى انسحب منها قيصر من المدينة، مخدثا هذه المشاهد البشعة من الذعر والاضطراب التى دائما ما تصاحب التغيير العنيف والفجائى للسيطرة العسكرية داخل حدود مدينة. ونشر جانيميد قواته بكل مكان حول أسوار قلاع وحصون قيصر، وأحكم حصاره. وقطع كل طرق الاتصال بصفوف قيصر البرية. وبدأ الإعداد بقوة لشن الهجوم. فأقام الآلات الحربية لسحق الأسوار. وقام بفتح المحلات وإقامة دكاكين الحدادة بكل مكان بالمدينة لتصنيع الحراب، والأسهم، والرماح، وكافة أنواع الآلات الحربية. وشيد الأبراج النقالة على عجلات ضخمة ليملأها بالرجال المسلحين، وعند استعداده للهجوم على صفوف قيصر، يقوم برفعها أعلى أسوار القلاع والقصور حتى تعطى جنوده الارتفاع الملائم عند القيام بالهجوم. وجمع تبرعات من المواطنين الأغنياء لتوفير الأموال اللازمة، وزود نفسه بالرجال عن طريق الضغط على جميع الحرفيين، والعمال، وكل من يستطيع حمل سلاح فى خدمته. وأرسل رسلاً لداخل البلاد، فى جميع الأنحاء، لتعبئة الشعب للحرب، وطلب التبرعات المالية والذخائر الحربية.

وأخذ الرسل تعليمات لتحفيز الشعب بأنه، إذا لم يتم طرد قيصر وجيشه بأقصى سرعة من الإسكندرية، فهناك خطر وشيك بتدمير الاستقلال القومى لمصر للأبد. وحينئذ سيقال إن فتوحات الرومان امتدت إلى باقى أنحاء العالم تقريبا. فقد أرسلوا جيشا لمصر من قبل تحت قيادة مارك أنطونيو، بدعوى إعادة بطليموس أوليتس للعرش. والآن جاء قائد آخر، بقوات أخرى، يعرض ذريعة أخرى للتدخل فى شئونهم. وكان الرسل أيضا يبلغونهم، أن تجاوزات الشعب الرومانى ستنتهى بخضوع مصر التام لقوة أجنبية، إلا إذا ثار أهل البلدة أنفسهم لمواجهة الخطر برجولة، وقاموا بطرد الغاصبين.

ولأن قيصر قام بالاستيلاء على جزيرة فاروس والميناء، فلم يتمكن جانيميد من منعه من تلقى التعزيزات من الرجال والسلاح حيث يمكنه عمل الترتيبات اللازمة للحصول عليها عن طريق البحر؛ ولم يستطع قطع مورده من الطعام، لأن المخازن والمستودعات فى منطقة قيصر من المدينة تحتوى على خزين لا ينضب من الحبوب. وكان هناك نقطة واحدة أساسية لبقاء جيش داخل الحصار، وهى مورد دائم من المياه. وكان يتم إمداد القصور والقلاع التى يقطنها قيصر بالمياه عن طريق قنوات جوفية عديدة تنقل الماء من النيل إلى صهاريج ضخمة مبنية تحت الأرض يتم رفعها عن طريق دلو ومحركات هيدروليكية من أجل الاستخدام. وانعكاسا لهذا الموقف، فكر جانيميد فى خطة لحفر قناة سرية لكى يحول مياه البحر إلى هذه

القنوات. وبدأ تنفيذ خطته. وكانت النتيجة أن حدث وتغيرت مياه الصهاريج تدريجيا. وصارت مالحة قليلاً، ثم ازدادت ملوحتها ثم مرارتها حتى أصبحت غير صالحة للاستخدام. وفى بادئ الأمر، لم يدرك الجيش هذه التغييرات؛ وعندما تم اكتشاف السبب انتاب الجنود الاضطراب وشعروا أنهم أصبحوا الآن تحت رحمة أعدائهم، لأنهم بدون مورد مياه فسوف يفنون سريعا. وعلموا أنه لا جدوى من الاستمرار، وحثوا قيصر على إجلاء المدينة، والصعود إلى متن سفينته، والإبحار.

وبدلا من ذلك، أصدر قيصر أوامره بتأجيل كافة العمليات الأخرى، وتشغيل جميع القوى العاملة تحت قيادته، تحت إشراف قواد الفرق المختلفة، فى حفر آبار فى كل مكان بموقعه فى المدينة. وقال إن المياه الصالحة للشرب توجد بكل مكان، على عمق مناسب، على سواحل البحر وحتى على الأراضى التى تقع بالقرب من البحر. وكان الحفر ناجحا، ووجدوا المياه النقية، بكميات وفيرة. وتغلبوا على هذا الخطر، وزالت مخاوف رجاله تماما .

وذات يوم، بعد وقت يسير من إنجاز هذا العمل، جاء للميناء على امتداد الشاطئ غرب المدينة، مركب شراعى وحيد الصارى صغير، يحمل نبأ قدوم سرية من السفن على الساحل غرب الإسكندرية، ورسوها هناك، وعدم قدرتها على بلوغ المدينة بسبب هبوب الرياح الشرقية فى هذا الفصل من العام. وكانت هذه السرية

التى جاءت إلى قيصر عبر البحر المتوسط محملة بالأسلحة، والذخيرة، والمعدات الحربية، استجابة لطلبه عقب وصوله. وكانت السفن موثقة الرياح على الساحل، وقد استنفذت مواردها من الماء، وصارت فى خطر؛ ولذلك قاموا بإرسال المركب الشراعى الصغير التى تسير بمجاديف، من أجل إحاطة قيصر بموقفهم، وطلب المساعدة. فذهب قيصر بنفسه على متن أحد سفنه، وأمر بأن يتبعه باقى أسطوله القليل، وبدأ الإبحار من الميناء متجها ناحية الغرب، قاصدا الوصول إلى الساحل للمكان الذى توجد بها السفن.

وتم كل ذلك سرا. وكانت الأرض منخفضة بالقرب من الإسكندرية لدرجة أنه لا يمكن رؤية السفن والقوارب على مسافة قصيرة من الشاطئ. وفى الواقع، يقول المسافرون إنه عند الصعود للساحل فإن الخداع البصرى الناتج عن الشكل الكروى لسطح المياه وطبيعة استواء وانخفاض للساحل، تجعل الشخص وكأنه يهبط من البحر إلى اليابس. وربما لذلك السبب، تمكن قيصر من إخفاء سر بعثته، ولكى يمدهم بالمياه بمجرد وصوله إليهم، توقف بمنطقة منعزلة من الساحل، وأرسل فرقة صغيرة للداخل للبحث عن الماء. فاكتشف أهل البلدة أمرهم، اعترضوا طريقهم وقاموا بأسرهم وإيداعهم السجن. وعلم المصريون من هؤلاء السجناء أن قيصر على الساحل ومعه سرية من السفن. وانتشرت الأنباء بكل مكان. واحتشد الأهالى من جميع الأرجاء. وقاموا بجمع القوارب والمراكب التى

يمكن الحصول عليها من القرى الموجودة بهذه المنطقة ومن فـــروع النيل المختلفة. وفى الوقت ذاته، ذهب قيصر لمرسى السرية، وأخـــذ السفن وأمر بجرها لإحضارها إلى المدينة؛ حيث كانت سفنه تـسير بمجاديف فلا تعتمد بشكل كبير على الرياح: وعند عودته، اكتــشف أسطولاً حربيًا هائلاً تجمع لإعاقة مروره.

ودار صراع ضار، انتصر فيه قيصر. وكما خشد المصريون الأسطول فجأة فقد تدمر فجأة. وحرقت بعض المراكـــب، وغرقــت أخرى، وتم الاستيلاء على آخرين. وعاد قيصر بسفنه وأسلحته إلـــى الميناء منتصرا. واستقبله جنوده بالتهليل، وكانـــت كليوبـــاترا أكثـــر امتنانًا وسعادة وحرارة، حيث انتظرته بقلق وحيرة أثناء غيابه حتـــى تعلم نتيجة البعثة، وهى على دراية كاملة أن بطلها يعرض نفسه فيها لأقصى درجات الخطر.

وعزز وصول هذه الإمدادات من وضع قيصر، وأثـــار لـــدى جانيميد شعورًا بالضرورة الحتمية للاستيلاء علـــى الميـنـــاء إذا أراد تقييد قيصر. وعليه، قرر اتخاذ الإجراءات الفوريـــة لتـــشكيل قـــوة بحرية. وعلى الفور، أرسل إلى جميع الموانى على امتداد الـــساحل، يأمر كل سفينة ومركب شراعى أن يأتوا إلـــى الإســـكندرية. وقـــام بتشغيل عدد كبير من الرجال داخل وحول المدينة فى بناء المزيـــد. وأزال أسطح أعظم المبانى لتدبير الخشب كمادة خام لتصنيع الألواح والمجاديف. وعندما أعد كل شيء قام بالهجوم على قيصر بالمينـــاء،

ودار صراع شديد من أجل الاستيلاء على الميناء والجسر والجزيرة والقلاع والحصون المهيمنة على المداخل من البحر. وعلم قيصر جيدا أن هذا النزاع سيكون حاسما بالنسبة لنهاية الحرب، وعليه، ذهب بنفسه ليتخذا دورا فعالا فيه. ومما لا شك فيه، أنه شعر أيضا بإحساس قوى بالفخر والسعادة فى إظهار بسالته أمام كليوباترا، التى ستشاهد تطور المعركة من نافذة القصر، وتثيرها المخاطر التى تحوطه، والإعجاب بالقوة والبسالة التى يقوم بها. وفى أثناء هذه المعركة، تعرضت حياة الفاتح العظيم لمخاطر شديدة عدة مرات. حيث كان يرتدى ثوبًا أو عباءة من اللون الأرجوانى الملكى المنمق، مما جعله بارزا لعدوه ؛ فأينما ذهب اشتدت المعركة فى المكان الذى يوجد به. وذات مرة، وسط مشهد الاضطراب المخيف والضجيج، قفز من على متن سفينة مكتظة فى الماء، وكان يحمل عباءته بين أسنانه ويجرها وراءه وهو يسبح من أجل إنقاذ حياته، حتى لا تقع بأيدى أعدائه. وفى الوقت ذاته، بينما يسبح، يحمل بيده بعض الأوراق القيمة التى تمنى إنقاذها، رافعًا يده فوق رأسه ويستخدم الأخرى فى السباحة.

وانتهت المعركة بانتصار آخر حاسم لقيصر. ولم تهزم وتدمر السفن التى جمعها المصريون فحسب، بل وقع الجسر والحصون والجزيرة والفنار ومدينة فاروس بأيدى قيصر.

والآن، بدأ المصريون يفقدون بسالتهم. وبتقييم الجيش والأهالى، كما اعتاد البشر جميعا، لفعالية قيادتهم العسكرية بمعيار

النجاح، بدأو يستاءون من حكم جانيميد وأرسينوي. فأرسلوا إلى قيصر سرا يقرون استياءهم، ويخبرونه أنه إذا أمكنه إطلاق سراح بطليموس - الذى سيأتى ذكره فيما بعد، الذى كان سجينا بقصر قيصر طوال الوقت - فإنهم يعتقدون أن الشعب سيستقبله كحاكم لهم، وحينئذ يمكن عمل ترتيبات من أجل تسوية سلمية للنزاع القائم. ونزع قيصر إلى قبول هذا الإقتراح بشدة.

وعليه، دعا بطليموس إلى حضرته، وأخذ يده بلطف وأخبره برغبة شعب مصر، وأذن له بالذهاب. ومع ذلك، توسل إليه بطليموس ألا يرسله. وأقر ولاءه القوى لقيصر، وثقته القصوى به، وأخبره أنه يفضل البقاء فى حمايته. وأجابه قيصر أنه، إذا كانت هذه مشاعره، فلن يدوم البعد. وقال "إذا افترقنا كأصدقاء، فسوف نتقابل ثانية". وحاول قيصر بمثل هذه العهود وما يماثلها تشجيع الأمير الصغير، ثم أطلق سراحه. واستقبله المصريون بسعادة بالغة، وتم تنصيبه على رأس الحكومة. ومع ذلك، فبدلا من محاولة تسوية النزاع مع قيصر، بدأ يدخل فيه بصفة شخصية، وبحماس بالغ، بدأ يقوم بالإعدادات القصوى بحرًا وبرًا لمواصلة الحرب بقوة. ولا يمكن التنبؤ الآن بنتائج هذه الأفعال، حيث إن الشكل العام للعلاقات تغير جذريًا، بعد هذه الأعمال، ووقع حدث هام وجديد تدخل فجأة، ووجه انتباه جميع الجهات المصرية والرومانية للناحية الشرقية من المملكة. حيث وصلت أنباء بظهور جيش كبير تحت قيادة

ميثاراداتس، الذى كان قيصر قد أرسل إلى آسيا لهذا الغـرض، فـى بلسيوم واستولى على المدينة وهم متجهون للزحف إلى الإسكندرية.

وعلى الفور، غادر الجيش المصرى معسكره بـالقرب مـن الإسكندرية، وزحف جهة الشرق لملاقاة الغزاة الجدد. ولحـق بهـم قيصر ومعه كل القوات التى تمكن من الخروج بها من المدينة بأمان. وغادر المدينة ليلا دون أن يراه أحد. ومضى بسرعة شـديدة حتـى انضم إلى ميثاراداتس قبل وصول قوات بطليموس. والتقت الجيوش، بعد زحف ومناورات عديدة، ودارت معركة ضارية بيـنهم. انهـزم فيها المصريون. وتم الاستيلاء على معسكر بطليموس. حيـث إنـه عندما هاجم الجيش الرومانى أحد الجوانب، فـر الحـراس وأتبـاع بطليموس للجانب الآخر، وأخذوا يتسلقون الأسوار وهـم فـى قمـة الفزع والاضطراب. فوقع من كانوا فى المقدمة على رؤوسـهم فـى الخندق أسفل منهم، وامتلأ حتى حافته بالموتى والذين أشرفوا علـى الموت؛ بينما من جاءوا خلفهم فكانوا يضغطون على الجسر الذى نشأ من أجساد زملائهم، ويسحقونهم بقسوة، وهم يهربـون، والآخـرون يتلوون ألما ويقاومون ويصرخون تحـت أقـدامهم. وتمكـن الـذين استطاعوا الفرار من الوصول إلى النهر. وتجمعوا معا فـى قـارب يقف على الضفة وانطلقوا من الشاطئ. وكان القارب مكتظا، فغـرق بمجرد أن ترك اليابسة. وجذب الرومان الجثث التى طفت على ضفة

الشاطئ فوجدوا الدرع الملكى والشارة المميزة التى كان يرتديها ملوك مصر عالقة بأحدهم. فعلموا أنها جثة بطليموس .

وحسم النصر الذى حققه قيصر فى هذه المعركة ومقتل بطليموس الحرب. ولم يعد أمامه سوى أن يتولى قيادة القوات المندمجة ويزحف إلى الإسكندرية. ولم تبد القوات المصرية المتبقية أى مقاومة، ودخل المدينة منتصرا، وقام بإيداع أرسينوى فى السجن. وقضى بأن يكون الحكم لكليوباترا كملكة، وأن تتزوج من أخيها الأصغر بطليموس الآخر - صبى فى الحادية عشر من العمر آنذاك. وكان الزواج من صغير كهذا مجرد مسألة شكلية. وظلت كليوباترا، كما كانت من قبل، رفيقة قيصر.

وفى الوقت ذاته، واجه قيصر تعنيفا شديدا فى روما وفى العالم الرومانى بأسره، لتنحيه عن واجباته الفعلية كقنصل رومانى وقائد لجيوش الإمبراطورية، وتوريط نفسه فى معارك المملكة المنعزلة البعيدة، التى لا تعنى الكومنولث الرومانى إلا قليلا. وكان أصدقاؤه والسلطات بروما تحثه باستمرار على العودة. وكانوا ساخطين، بصفة خاصة، على إهماله الطويل لواجباته الحقيقية، لعلمهم أنه مكث بمصر لعلاقة آثمة مع الملكة. وبذلك فلم ينتهك واجباته نحو الدولة فقط، ولكنه أيضا ارتكب خطأ لا يغتفر، فى حق زوجته كاليبورنيا وعائلته بروما. ولكن سحر كليوباترا وهيمنتها غير المبررة على قيصر، جعلته لا يلتفت لأى من هذه الاحتجاجات. حتى

إنه بعد انتهاء الحرب، مكث بضع شهور بمصر للاستمتاع بمجتمعه المفضل. فكان يقضى ليالى بأكملها برفقتها فى المتع والمرح الصاخب. وعقب انتهاء الحرب، قام بإعداد مسيرة ملكية رائعة بصحبتها فى مصر بحضور جمع غفير من الحراس الرومان. وأعد العدة ليأخذها معه إلى روما ويتزوجها هناك ؛ واتخذ الإجراءات لتغيير قوانين المدينة ليتمكن من فعل ذلك، رغم أنه متزوج بالفعل.

وأثار ذلك كله سخط وغضب أصدقاء قيصر والجيش الرومانى بأسره. واستهجن المصريون أيضا تصرف كليوباترا بشدة. وفى ذلك الحين، أنجبت طفلا أسماه السكندريون قيصرون نسبة إلى والده قيصر. وباتت كليوباترا فى العلاقة الجديدة، التى داومت عليها، أما، لا ينظر إليها بشغف وتعاطف، بل بمشاعر التوبيخ والإدانة.

وطوال هذه الفترة، كانت كليوباترا تزداد براعة وجمالاً؛ ولكن حيويتها وروحها، التى كانت شديدة السحر عندما كانت بسيطة وطفولية، بدأت تبدو أكثر نضجا وجرأة. وتلك هى سمة الحب النقى المتعارف عليه الذى يرقق ويلطف القلب ويضفى روحا هادئة لطيفة على كل أفعاله؛ بينما ذلك الذى يتجاوز الحدود التى خصصها الله ورسمتها الطبيعة له، فيفضى إلى امرأة تتسم بالذكورة والجرأة، ويزيد كل أحاسيسها قسوة، ويقضى على ذلك اللطف والهدوء فى تصرفاتها الذى كان له عظيم الأثر فى زيادة سحرها. وبدأت

كليوباترا تمر بهذه الآثار. وكانت لا تبالى بآراء أتباعها، وكان كل ما يؤرقها أن تحتفظ لأطول فترة ممكنة بهيمنتها الآثمة على قيصر.

ومع ذلك، قرر قيصر، أخيرا، العودة إلى العاصمة، وعليه، ترك قوة كافية لتأمين استمرار كليوباترا فى السلطة، وصعد هو وما تبقى من القوات على متن السفن والمراكب، وأبحر مغادرا. وأخذ أرسينوى البائسة معه من أجل تقديمها فى موكبه كغنيمة وتذكار للانتصارات المصرية التى حققها عند وصوله إلى روما.

الفصل الثامن

كليوباترا ملكة

لم تستغرق الحرب التي خاضها قيصر لإعادة تنصيب كليوباترا على العرش طويلاً. فقد جاء قيصر إلى مصر لملاحقة بومباي في الأول من أغسطس؛ وانتهت الحرب وتم تنصيب كليوباترا على العرش في نهاية شهر يناير؛ وكان الصراع ضاريًا، إلا أنه استغرق وقتا قصيرًا جدًا، فكان توقف المهن التجارية الآمنة بالإسكندرية لشهور قليلة فقط .

ولم تمتد الحرب وما نجم عنها من آثار لداخل البلاد. فكانت مدينة الإسكندرية والسواحل المجاورة لها هي المسرح الرئيسي لأحداث الصراع إلى أن وصل ميثاراداتس إلى بلسيوم. فزحف عبر الدلتا ودارت الحرب الحاسمة داخل البلاد. ومع ذلك، لم يتأثر سوى جزء صغير من المقاطعة المصرية بالحرب بصورة مباشر. فلم يكن الجزء الأكبر من الشعب الذي يشغل المساحات الخصبة الغنية التي تنتشر على جوانب الفروع المختلفة للنيل والوادي الأخضر الذي يمتد داخل قلب القارة، يعلم شيئًا عن الصراع سوى بعض الإشاعات

المشوشة البعيدة. فداوم المزارعون على عملهم ومارسوا حياتهم باستقرار طوال الوقت ؛ ولذلك فبعد انتهاء الصراع وعودة كليوباترا للسلطة، وجدت أن موارد إمبراطوريتها لم تضعف كثيرًا.

ولذلك أغدقت على نفسها من موارد الدخل الذى تدفق عليها بغزارة، وعاشت حياة من الترف والنعيم والفخامة. وتم إصلاح ما أفسدته الحرب والعمليات العسكرية أثناء الحصار من قصور وصروح عامة بالإسكندرية. وتم إعادة تشييد الجسور التى انهارت، وفتح القنوات التى تعطلت. كما تم إغلاق مياه البحر عن صهاريج القصر؛ ونقل المنازل التى لحق بها الدمار؛ وإزالة المتاريس من الطرقات؛ وترميم ما لحق بالقصر من إصابات، سواء التى أحدثتها ضراوة المعدات الحربية أو إقامة الجنود الرومان به. ونوجز القول، أن المدينة عادت مرة أخرى لما كانت عليه من نظام وجمال على وجه السرعة. ولكن لم يتم إعادة الخمسمائة ألف مخطوطة التى تم حرقها بمكتبة الإسكندرية؛ وما دون ذلك، فقد استعادت المدينة رونقها كما كانت من قبل. أما بالنسبة للمكتبة، فقد بذلت كليوباترا قصارى جهدها لتعويض الخسارة. فرممت المبانى المحترقة، وقيل إنها قد أحضرت مائة أو مائتين ألف مخطوطة كبداية لمجموعة جديدة. ومع ذلك، لم تحظ المكتبة الجديدة بالشهرة والتميز الذى اشتهرت به القديمة.

وكما نرى، اتجه ملوك مصر السابقون بوجه عـــام، أســـلاف كليوباترا، إلى تكريس مصادر الدخل التى اغتصبوها مـــن العـــاملين بزراعة وادى النيل لتحقيق طموحهم . ويبدو أن كليوباترا الآن تتجه إلى إنفاقها فى الترف والبذخ . فقد أنفق البطالمة مواردهم المالية فى تشييد المبانى الضخمة وإنشاء المؤسسات الرائعة بالإسكندرية، زيادة فى تمجيد المدينة، وحتى تذيع شهرتهم أيضا. وعلى الجانب الآخـــر، كانت كليوباترا، وربما كما كان يتوقع من امـــرأة جميلـــة، وشـــابة مندفعة، ارتقت فجأة لمكانة بارزة، وتمتلـــك تلـــك الثـــروة الطائلـــة والسلطة اللامحدودة، أن تنفق دخل المملكة فى أســـاليب اســـتعراض ذاتية، وفى مشاهد العربدة والمرح والاستمتاع. فزينـــت قـــصورها وشيدت مراكب كبيرة رائعة لإقامة الحفلات الخاصة علـــى النيـــل، وأنفقت مبالغ هائلة على الملبس والعربـــات التـــى تجرهـــا الخيـــول والحفلات المترفة. فحقا، كانت شديدة الإسراف فى مثل هذه النفقـــات وما شابهها أثناء السنوات الأولى من حكمها؛ حتى إنها بلغـــت مـــن المغالاة والترف الحسى والبذخ والتباه الذاتى ما وراء الحدود التى لم يسبق ولن يسبق لها مثيل.

ومهما تكن البساطة التى تمتعت بها شخصيتها والرقة واللطف الذى ملأ روحها فى السنوات الأولى من حكمها، فلابد أن تكون قـــد تلاشت تدريجيا فى ظل مثل هذه الحياة التى تحياها الآن. فكانـــت لا تزال جميلة وفاتنة. ولكن بدأت تصبح أنانية، قاسية القلب ومـــاكرة.

فكان أخوها الصغير - لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر عندما أعد قيصر لزواجهما - باعثا لغيرتها. فبالطبع، كان أيضا صغيرا على أن يقوم بأى مشاركة فعلية فى إدارة السلطة أو التدخل بأى شكل فى خطط شقيقته. ولكنه كان يكبر. وفى غضون سنوات قليلة سيبلغ الخامسة عشرة، الفترة التى أشار إليها قيصر فى ترتيباته، وفى قوانين وعرف المملكة المصرية، وعندها يتولى السلطة كملك وزوج لكليوباترا. ولم تكن كليوباترا ترغب فى حلول هذه الفترة وحدوث تغيير فى علاقتها به وبالحكومة. وعليه، وقبل مجيء الوقت، قامت بدس السم له. وهكذا تخلصت، كما توقعت، من كل القيود بقتله وانفردت بالحكم منذ ذلك الحين. وصارت حياتها سلسلة نجاحات لا تتوقف، إلى جانب الاستمتاع بالثروة والسلطة وباقى عوامل الرفاهية الخارجية. ولم يكن بداخلها مقدار ضئيل من التردد ينبع من ضميرها يتعارض مع الانغماس فى الشهوات، وتوافرت وسائله أمامها بغزارة وبلا حدود. وكان العائق الوحيد لسعادتها هو صعوبة إرضاء دوافع ورغبات النفس البشرية، عندما تبلغ أقصى درجاتها وتتخطى الحدود التى وضعها القانون الإلهى وقامت بحمايتها الطبيعة لكبح جماحها.

وبينما كانت كليوباترا تقضى السنوات الأولى من حكمها بكل هذا الترف والبذخ، كان قيصر يواصل سلسلة فتوحاته للعالم بنجاح منقطع النظير. وكان من الطبيعى أن يستمتع بالسلطة العليا عقب وفاة

بومباى؛ ولكن تأخره فى الإقامة بمصر وعلاقته بكليوباترا، عملت على تشجيع ودعم أعدائه فى جميع أنحاء العالم المختلفة. وفى الواقع، كان السبب المباشر الذى جعله يغادر مصر هو نشوب الثورة بآسيا الصغرى؛ الأمر الذى استدعى حضوره لقمعها. وتم إعداد مخططات للقيام بثورة مسلحة للإطاحة بحكم قيصر بأسبانيا وإفريقيا وإيطاليا. ورغم ذلك، فكان يتمتع بمهارة وقوة عسكرية شديدة، ويتميز بحضور شخصيته وسطوته غير المحدودة على عقول رجاله، علاوة على سرعته فى التنقل من قارة إلى أخرى ومن مملكة إلى نظيرها، حتى أنه فى فترة وجيزة من وقت رحيله عن مصر، قام بشن أبرز الحملات وأشهرها على ربوع العالم الثلاث الشهيرة حينئذ، وأخمد كافة المعارضات لحكمه ببراعة، ثم عاد إلى روما سيدة العالم. وقررت كليوباترا التى كانت تراقب تحركاته طوال هذه الفترة باعتزاز ومتعة كبيرة، أن تذهب إلى روما وتقوم بزيارته هناك.

ولم يكن شعب روما معدا لاستقبالها بحفاوة. فكان عصرا ينظر فيه إلى كافة أشكال الرزائل بتساهل شديد، ولكن الفطرة الخلقية للجنس البشرى كانت متشددة جدا لرؤية الشخصية الحقيقية لنموذج بارز للشر والفساد كهذه. وفى هذه الفترة، كان قيصر قد أحضر أرسينوى إلى روما عند عودته من مصر كسجينة وغنيمة لانتصاره. فكانت خطته الحقيقية أن يبقيها كأسيرة لتشريف موكب انتصاره.

ووفقًا للاستخدام الرومانى القديم، فإن "موكب النصر" عبارة عن احتفال كبير يقيمه مجلس الشيوخ للقادة العسكريين من أعلى الدرجات عند عودتهم من حملات طويلة وتحقيق فتوحات كبيرة أو انتصارات غير عادية. وقام قيصر بتجميع كافة مواكب انتصاراته فى احتفال واحد عند عودته إلى روما آخر مرة، عندما أتم غزو العالم. ودام موكب الاحتفال أربعة أيام. ففى الواقع، كان هناك أربعة انتصارات، وكان لكل منها يوم على مدار الأربعة أيام. وهذه الاحتفاءات هى حروب وفتوحات بلاد الغال، ومصر، وآسيا، وأفريقيا؛ وعلى مدار عدة أيام، تألفت المواكب من سلاسل غير
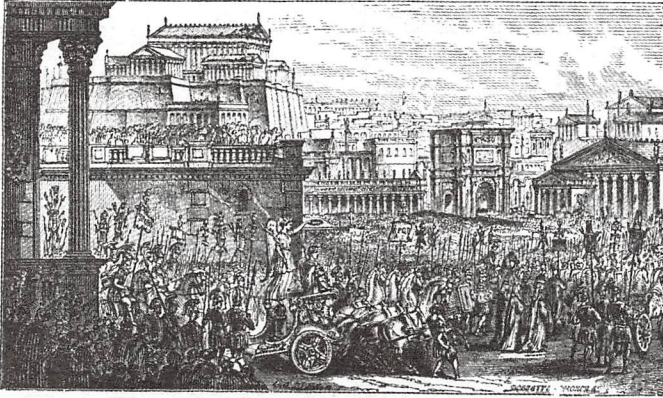
OPATRA'S SISTER IN THE TRIUMPHAL PROCESSION

شقيقة كليوباترا فى موكب النصر

منتهية من السجناء، والأسرى، والأسلحة، والأعلام، والرسومات، والصور، وقوافل من العربات الحربية محملة بالغنائم، والأسرى من الأمراء والأميرات، والحيوانات البرية والأليفة منها، وكل ما تمكن الفاتح من إحضاره معه من حملاته عند عودته لأرض الوطن، من أجل إثارة فضول وإعجاب شعب المدينة، وإظهار عظمة مآثره البطولية. وبالطبع، كان يطمح القادة الرومان عندما يقاتلون في حروب خارجية طويلة في جلب المزيد من الأسرى المميزين والغنائم العامة التي يمكنهم الحصول عليها، من أجل إلحاقها بحفل المنوعات والروائع بموكب النصر الذي تكلل به انتصاراتهم عند عودتهم. ولهذا السبب، قام قيصر بإحضار أرسينوي معه من مصر ؛ وقام باحتجازها بروما كأسيرة حتى يكمل فتوحاته ويجيء وقت حفل الانتصار. وكانت، بالطبع، جزءًا من موكب النصر في يوم موكب مصر، وكانت تسير أمام المركبة الحربية التي بها قيصر مباشرة. وهي مقيدة بالسلاسل كأي أسير آخر، رغم أن قيودها كانت مصنوعة من الذهب، تشريفًا لمكانتها .

ورغم الأثر الذي تركته الأميرة البائسة في نفوس شعب روما، بما يغمرها من حزن وأسى، وهي تسير بترو طوال الموكب، وسط رموز أخرى وغنائم العنف والسرقة، كان ذلك يرضي قيصر بكافة الوسائل. وكان العامة يتعاطفون مع أرسينوي، ويشفقون عليها في معاناتها. وكلما شاهدوا الأسى الذي بدا عليها، تذكروا تقصير قيصر في واجبه عندما ترك نفسه لإغواء كليوباترا، وبقاءه بمصر فترة

طويلة وإهماله مهامه الأساسية كممثل للدولـــة الرومانيـــة. ونـــوجز القول، إن نزعة الإعجاب بمآثر قيصر العسكرية التى كانت شـــديدة القوة، وفى صالحه بدأت تنحسر، وامتلأت المدينة همسا ضده حتـــى وسط موكب انتصاراته.

وحقا، كان الفخر والخيلاء الذى دفع قيـــصر لجعـــل موكـــب انتصاراته أكثر فخامة من أى فاتح آخر قد سبقه، تسبب فى إحـــداث آثار معاكسة لما يرجوه. فكان حال أرسينوى خير دليل علـــى ذلـــك وبدلا من أن تترك انطباعا قويا داخل العامة بالإحساس بمآثر قيصر فى مصر، أوجدت التعنيف والتجريم الذى استحقه لما فعله هناك من خلع ملكة وإحضارها لروما كأسيرة، كى يقـــوم بتنـــصيب أخـــرى مكانها، والذى لولا مشهد أرسينوى الـــذى اســـتحق الـــشفقة وســـط الموكب، لكان فى طى النسيان.

وهناك العديد من الأمثلة المشابهة. فعلى سبيل المثـــال، أقـــام قيصر الولائم التى أنفق عليها القدر الأكبر من المال، الـــذى حـــصل عليه من الغنائم، فى إعداد المآدب والعروض المسرحية للعامة أثنـــاء موكب الانتصار. وأسعد ذلك جزءًا كبيرًا من العامة لإطلاق العنـــان اللامحدود لشهواتهم ؛ ولكن الجزء الأكبر من شـــعب رومـــا كـــان ساخطا على التبذير والمغالاة التى كانت تتجلى فى كل مكان. حيـــث صارت مدينة روما تعرض مشهدا واسعا من العربدة والفسوق لعـــدة أيام. وبدلاً من أن يسعد الناس بهذا الفيض، تمنوا لو أن قيصر كـــان

قد قام بالمزيد من الاغتصاب والمخالفات للقانون حتى يتمكن من الحصول على القدر الأكبر من المال اللازم ليتمكن من دعم مثل هذا التبذير والإسراف الشديد.

وثمة شيء آخر أثار الرأى العام ضد قيصر عن طريق الوسائل التى استخدمها لاكتساب تعاطفه لصالحه. فكان الرومان، من بين وسائل اللهو البربرية الأخرى التى كانت تجرى بالمدينة، مغرمين بالقتال بصفة خاصة. وكان هناك أنواع مختلفة من المعارك. ففى بعض الأحيان، كانت بين حيونات متوحشة من نفس الفصيلة أو من فصائل مختلفة، كالكلاب ضد بعضهم، أو ضد الثيران، أو الأسود، أو النمور. وكان الحيوانات المستخدمة لهذا الغرض من النوع الذى يمكن مضايقته واستثارة غضبه ووحشيته فى القتال. وفى بعض الأحيان، كانوا يستخدمون رجالا فى هذه المعارك - الجنود الأسرى الذين تم أسرهم أثناء الحرب وجاءوا إلى روما ليقاتلوا فى مسرح القتال حتى الموت كوسيلة للاستمتاع.

وكان هؤلاء الرجال يرغمون على قتال الحيوانات المفترسة، أو قتال بعضهم. وكان قيصر يعلم مدى استمتاع شعب روما بهذه المشاهد، فقرر أن يمنحهم المتعة التى يرغبون بها على أعلى درجاتها، معتقدا أنه كلما كانت المعركة أكثر فزعا كلما ازداد استمتاع المشاهدين برؤيتها. وعليه، أمر أثناء الإعداد لموكب الاحتفال بالانتصار بإقامة بحيرة صناعية كبيرة بمكان مناسب

بالقرب من روما، حتى يتمكن العامة من التجمع حولها، وأعد لإقامة معركة بحرية. وقام بوضع عدد كبير من السفن داخل البحيرة. وكانت فى الحجم العادى الذى يستخدم فى الحروب وعلى متنها العديد من الجنود. وكان الأسرى الطيرانيون على أحد الجوانب والمصريون على الآخر؛ وعندما استعد الجميع، أمر كلا الأسطولين بالتحرك وبدء معركة بحرية واقعية من أجل إمتاع الحشد الهائل من المشاهدين الذين تجمعوا حولهم. وحيث كان هناك عداء فعلى بين البلدين اللذين تم أسر هؤلاء المقاتلين منهما، وكان الرجال يقاتلون من أجل حياتهم، فكان يصاحب المعركة جو من الفزع المعتاد عند لقاء بحرى غير متوقع. فتم قتل المئات. وسقطت جثث المقاتلين من السفن فى البحيرة، وتلونت مياهها بدمائهم.

وكانت هناك أيضًا معارك برية على نفس القدر من الوحشية والفزع. ففى إحداها قاتل خمسمائة من جنود المشاة، وعشرون من الأفيال، وفرقة تتألف من ثلاثين حصانا. وبذلك، كانت هذه المعركة، بالنسبة لعدد المقاتلين، أشد من معركة ليكسنجتون التى مثلت بداية الحرب الأمريكية ؛ أما بالنسبة للمذبحة التى دارت، فإنها تفوقها بعشر مرات تقريبا. وتجاوز الفزع من هذه المشاهد المدى، فى وحشيتها وقسوتها، لدى العامة الذين جاءوا للهو. فعندما أراد قيصر أن يفوق جميع العروض والمواكب السابقة، فاق الحدود عندما ظن أن رؤية الرجال وهم يذبحون فى معارك دامية ويموتون فى ألم وبؤس من شأنها إثارة المتعة واللهو. وأثارت هذه المشاهد الذعر

والفزع فى نفوس الناس؛ وأدانوا وحشية قيصر وتم إضافة ذلك إلى التعنيف والتجريم المقمع داخلهم والذى بدا فى كل مكان.

وأثناء زيارة كليوباترا لروما، أقامت مع قيصر فى مسكنه دون تحفظ، مما أثار السخط العام. وفى الواقع، بينما أشفق العامة على أرسينوى، كانت كليوباترا، رغم جمالها وسحرها والآلاف المميزات الشخصية لها، موضع السخط العام، حتى إنها لم تجذب الانتباه العام إليها البتة. وانشغلت أذهان العامة بالحركات السياسية الكبرى والأهداف التى كان يرمى إليها قيصر. فاتهموه بالتخطيط من أجل أن يصبح ملكا. ونشأت أحزاب تؤيده وأخرى تعارضه ؛ ورغم عدم وجود الجرأة الكافية لدى الرجال للإفصاح عن مشاعرهم، فصارت أكثر ضراوة تجاه القوة الخارجية التى عملت على قمعهم. وكان مارك أنطونيو موجودا بروما فى ذلك الحين. وكان يناصر قيصر بشدة، ويشجع تخطيطه ليكون ملكا. وذات مرة، فى إحدى الاحتفالات العامة، أراد أن يضع تاجا ملكيا على رأس قيصر، ولكنه رأى من الاستنكار العام ما جعله يكف عن ذلك.

ورغم هذا، جاء الوقت الذى قرر فيه قيصر أن ينصب نفسه ملكا. فاستغل أزمة بارزة فى الشئون العامة، ولا يمكن الخوض فيها هنا تفصيليا، ولكنها بدت فى صالح تخطيطه على وجه التحديد. وتم عمل الترتيبات من أجل تنصيبه السلطة الملكية عن طريق مجلس

الشيوخ. وظهر همس واستهجان الشعب واقترب وقت إدراك مخاوفهم، وصار صوتهم مسموعا ومدويا. وتم تدبير مؤامرة للقضاء على حياة الطامح إلى المجد. وتزعم هذه المؤامرة اثنان ذوا عزم من الرجال، هما بروتس وكاسيوس. وأحكما خطتهما، وأعدا جماعة الرفاق، وأمدوا أنفسهم بالسلاح سرا. وعندما اجتمع مجلس الشيوخ فى اليوم الذى سيتم فيه التصويت الفاصل. جاء قيصر، والتفوا حوله بجرأة، وهو على كرسى الرئاسة، وطعنوه بخناجرهم.

ووقف أنطونيو، الذى لم يكن يعلم بأمر هذا التخطيط السرى لهذه المؤامرة، جانبا وهو مذهول جراء ذلك الصنيع الذى أقدموا عليه، ويعجز عن حماية صديقه أو الدفاع عنه.

وعلى الفور، فرت كليوباترا من المدينة وعادت إلى مصر.

وكانت أرسينوى قد رحلت مسبقا. إما لأن قيصر كان قد أشفق عليها، أو أن إثارة مشاعر الرأى العام تجاهها، حملته على إطلاق سراحها على الفور عقب انتهاء حفل الانتصارات. ومع ذلك، لم يسمح لها بالعودة إلى مصر، خشية أنها، لسبب أو لآخر، قد تحدث اضطرابا فى حكومة كليوباترا. وعليه، توجهت إلى سوريا، ولكن ليست كأسيرة بل فى منفى بعيدا عن وطنها. وسنعلم لاحقا ماذا حدث بشأنها.

وندبت كاليبورنيا وفاة زوجها بحزن وأسى صادق غير مصطنع. فقد تحملت الإساءات التى عاشتها كزوجة بروح متسامحة وصبورة، وأحبت زوجها بإخلاص حتى النهاية. وكان خير دليل ذلك المساء، الذى سبق مقتله، وبدا فيه قلقها وعطفها تجاهه. حيث قادها تفانيها الشديد فى حب زوجها إلى ملاحظة بعض الإشارات والدلائل التى تنذر بشر مرتقب، رغم أنها مرت على ملاحظة جميع أصدقاء قيصر الآخرين، إلا أنها ملأتها قلقا وخوفًا من شر مرتقب ؛ وغمرها الحزن والبؤس عندما أحضروا الجثة الملطخة بالدماء من مجلس الشيوخ إليها بالمنزل.

ولم يكن لديها أطفال. فاعتبرت مارك أنطونيو أقرب أصدقائها والمسؤول عن حمايتها. وفى اليوم التالى، عندما ساد المدينة الاضطراب والفزع، قامت بالإسراع بجمع الأموال والأشياء القيمة الموجودة بالمنزل، وكافة الأوراق والدفاتر الخاصة بزوجها وقامت بإرسالها إلى أنطونيو للاحتفاظ بها فى مكان آمن.

الفصل التاسع

معركة فيليبى

عندما ذاع نبأ مقتل قيصر بين شعب روما، أصابت الدهشة والذعر جميع فئات وطبقات المجتمع. ولم يكن أحد يدرى ما يقول أو يفعل. فكانت الطبقة العريضة والمؤثرة من المجتمع أصدقاء لقيصر. ومما لا شك فيه، أنه كان هناك تيار معادل من المعارضة القوية له. ولا يمكن لأحد أن يتنبأ: أى من الفريقين سيربح الجولة، فسادت، بالطبع، الحيرة والريبة، لبعض الوقت.

وعلى الفور، تطوع مارك أنطونيو. وأعلن نفسه نائبًا لقيصر وقائدًا للحزب. وتم العثور على وصية بين أوراق قيصر، تبين عند فتحها أنه أوصى فيها بمبالغ هائلة من المال لشعب روما وقدر كبير لابن أخيه، ويدعى أوكتافيوس، وسنتحدث عنة لاحقا بالتفصيل. وجاء ذكر أنطونيو فى الوصية كمنقذ لها. فمنحه هذا الحدث وغيره الحق فى أن يصبح رئيسًا وقائدا لحزب قيصر. وكان بروتس وكاسيوس، اللذان مكثا بعد أداء فعلتهما الشنيعة أحرارًا فى المدينة، القواد المعترف بهم للحزب الآخر ؛ بينما كان أغلبية الشعب مذهولين لعظم

وشدة مفاجأة الثورة التى أظهرها مجلس الشيوخ الرومانى بالاغتيال العام والعلنى للإمبرطور الرومانى، حتى أنهم لا يعلمون ماذا يقولون أو يفعلون. فحقا تعد حادثة مقتل يوليوس قيصر، بالنظر إلى المنصب الرفيع الذى كان يشغله، ومرتبة وموقف من قاموا بارتكاب الفعل المشين، والإعلان غير المألوف للمشهد الذى تمت به الجريمة، بلا شك، من أبشع وأبرز حوادث الاغتيال التى لم يسبق أن وقعت من قبل. فبدا شعب روما بأسره مندهشا ومذهولا لعدة أيام عند سماع الأنباء. ومع ذلك، بدأت تتكون أحزاب متضاربة. وبدأت تظهر الحدود بينهم تدريجيا . وبدأ الرجال يعدون أنفسهم فى الجهات المعارضة بوضوح.

ولفترة وجيزة، صارت سيادة أنطونيو على حزب قيصر مقبولة ومعترفًا بها. ومع ذلك، وقبل اكتمال إعداداته، ظهر على الساحة اثنان من المنافسين الأقوياء إلى جواره، هما أوكتافيوس ولابيدوس.

. أوكتافيوس، الذى سبق الإشارة إليه، ابن شقيق قيصر، شاب بارع أنيق يبلغ التاسعة عشرة عامًا من العمر. وهو ابن لابنة شقيق قيصر(*). وكان مقربا إليه دومًا. وقد أولى تعليمه اهتمامًا شديدًا،

(*) كان أوكتافيوس، فى مرحلة ارتقاء السلطة يلقب باسم أغسطس قيصر، وعرف فى التاريخ عموما بهذا الاسم. ومع ذلك فكان فى بداية حياته يدعى بأكتافيوس. ولمنع اختلاط الأمر على القارئ. فسنطلق عليه هذا الاسم حتى نهاية سردنا للأحداث.

ودفعه لمناصب رفيعة فى الحياة العامة. واتخذه قصر ابنـــا وجعلـــه وريثا له. وكان بأبولونيا، مدينة باليريكم، شمال اليونـــان. وعـــرض عليه الجنود الخاضعون لقيادته هناك الذهاب معه إلى روما، إذا أراد، والثأر لمقتل عمه. وبعد تردد، توصل أوكتـــافيوس إلـــى أنـــه مـــن الأحصف أن يذهب إلى هناك بمفرده لأول مرة كقريب له، ويطالـــب بحقوقه كوريث لعمه طبقا لشروط الوصية. وعليه قام بذلك.

وعند وصوله، تبـــين أن الوصـــية والأمـــلاك والمـــستندات والأوراق وسلطة الحكم الفعلية، بحوزة أنطونيو. وبدلا مـــن تـــسليم أوكتافيوس لأملاكه وحقوقه، وجد أنطونيو ذرائع شـــتى للمرواغـــة والتأجيل، قائلاً إن أوكتافيوس كان صغيرا جدا كى يحصل على مثل هذة المسئوليات الثقيلة. ودعته الـــشئون العامـــة الملحـــة للالتـــزام بالوصية. وبهذه الأعذار وما يماثلها، وكمبررات له، لم يبد أنطونيـــو أى اهتمام لما يطالب به أوكتافيوس.

ورغم صغر سنه، تمتع أوكتافيوس بشخصية تتـــسم بالـــذكاء الشديد والشجاعة والثبات. وسرعان ما أقام صداقات قويـــة عديـــدة بمدينة روما ومجلس الشيوخ الروماني. وبات الأمر خطيرا بشأن من منهما سينال السيادة الأكبر فى حزب أصدقاء قيصر. ودام هذا النزاع على السيادة لمدة اثنين أو ثلاثة أعوام، وأدى إلى مؤامرات وتعقيدات كبرى ومناورات وحروب أهلية لا يمكن الخوض فيها تفصيليا هنا.

وكان المنافس الآخر الذى كان يتبارى مع أنطونيو هو قائـــدا رومانيًّا بارزًا يدعى لابيدوس. وكان قائدا للجيش ذا مكانة عالية، عند مقتل قيصر. وكان حاضرًا بمجلس الشيوخ يوم اغتيال قيصر. فخلع نفسة خلسة عندما تأكد من انتهاء الفعلة البشعة، وعاد إلـــى معـــسكر الجيش خارج المدينة وتولى قيادة القوات على الفور. ومنحه ذلك قوة كبيرة، واتخذ دورا فعالا أثناء الصراعات التى دارت بـــين أنطونيـــو وأوكتافيوس، وقام بحفظ التوازن بينهما نوعا ما.

وأخيرًا، انتهى الصراع بتحالف الخصوم الثلاثة. فاتحدوا معـــا عندما اكتشفوا أنه لا يمكن لأحدهم تحقيق نصر حاسم على الآخـــر، وكونوا الحكومة الثلاثية الشهيرة التى دامت، بعد ذلك، لفتـــرة مـــن الوقت تهيمن على القيادة العليا بالعالم الروماني.

ولتشكيل تحالف التسوية، عقد المتنافـــسون الثلاثـــة مـــؤتمرا بجزيرة تقع على أحد فروع بو، شمال إيطاليا. وأبدى كل منهم الشك والغيرة تجاه بعضهم عند حضور هذا اللقاء. وكان هناك اثنان مـــن الكبارى المؤدية إلى الجزيرة، يمتد كل منهما من ضفة مـــن النهـــر. وجاء جيش أنطونيو من أحد الجانبين على النهر، وأوكتافيوس مـــن الآخر. ووصل لابيدوس أولاً عن طريق أحد الكبارى بعـــد تقدمـــه لتفحص الأرض بعناية، كى يتأكد بنفسه من عدم وجود شرك بهـــا، وأشار للقواد الآخرين الذين تبعوه، للتقدم كل من أحد الكبارى ورافقه ثلاثمائة حارس انتظروا على الكوبرى لتأمين عودة سيدهم فى حالـــة الخيانة. واستغرق المؤتمر ثلاثة أيام، وعند الانتهـــاء منـــه، تمـــت الموافقة والتوقيع على جميع بنوده.

وعند تشكيل هذا التجمع، تم توحيد قوة المتحالفين الثلاثة ضد حزب المتآمرين. وكان لا يزال كل من بروتس وكاسيوس على رأس هذا الحزب.

وشكلت إيطاليا والدول المحورية الأخرى بأوربا مسرحا لأحداث الصراع الذى دار بين كل من أوكتافيوس وأنطونيو ولابيدوس بصورة أساسية. وعلى الجانب الآخر، فر كل من بروتس وكاسيوس عبر البحر الأدرياتى إلى الشرق عقب مقتل قيصر. وهم الآن بآسيا الصغرى يقومون بحشد قواتهم، وتشكيل تحالف مع شتى القوى الشرقية، وتعبئة الجنود، واستمالة الجيوش الرومانية الموجودة بهذا الجزء من العالم، ومصادرة الذخائر الحربية، والحصول على التبرعات من كل من يمكنهم إقناعه بمناصرة قضيتهم. وذهب أحد الرسل، الذين كانوا يبعثونهم، إلى مصر لطلب المعونة من كليوباترا. ورغم ذلك، قررت كليوباترا الانضمام للجانب الآخر فى الصراع. وكان من الطبيعى أن تشعر بالامتنان بجهود قيصر وتضحياتة من أجلها وعليه تميل إلى مناصرة أصدقائه. وعليه، فبدلا من إرسال جنود لمعاونة بروتس وكاسيوس كما توقعوا منها، سرعان ما أعدت حملة لتتجه إلى ساحل آسيا لتقديم كل المعاونات التى فى سلطتها لمناصرة أنطونيو.

ومن جانبه، عندما علم كاسيوس قرار كليوباترا بالانضمام إلى أعدائه، قرر التوجه إلى مصر فى الحال والاستيلاء على البلاد.

ووضع قوة عسكرية بتاناروس، القنة الجبلية الجنوبية لليونـــان، مـــن أجل مراقبة واعتراض أسطول كليوبـــاترا بمجـــرد ظهـــوره علـــى الشواطئ الأوربية. ومع ذلك، فشلت كل هذه الخطط - التى أعـــدتها كليوباترا ضد كاسيوس وكذلك التى أعدها كاسيوس ضد كليوباترا - حيث واجه أسطول كليوباترا عاصفة شديدة دمرته وفرقته وتوجهـــت البقية الصغيرة الباقية إلى ساحل إفريقيا، ولكن لم يتم إنقاذ أى شـــىء مما أمكن توفيره للغرض المطلوب. أما الحملة التى أعدها كاســـيوس لمصر لم تكتمل. فصارت المخاطر التى تهدده مـــن ناحيـــة إيطاليـــا وروما وشيكة، لذلك وبناء على طلب بروتس الملح أقلع عن خطتـــه لمصر، وقام القائدان بحشد قواتهم لمواجهه جيوش الحكومة الثلاثيـــة التى كانت تتقدم بسرعة الآن لمهاجمتهم. فمروا عبر الهلسبونت مـــن ستوس إلى أبيدوس ودخلوا ثراس(*).

وبعد العديد من الزحـــف والتقهقـــر، وسلـــسلة طويلـــة مـــن المناورات، يحاول خلالها جيشان يتسمان بالقوة أن ينال كـــل منهمـــا موقعًا متميزًا ضد الآخر، اقترب جنود القوتين من بعضهما بـــالقرب من فيليبى. ووصل بروتس وكاسيوس أولاً. وكان هناك سهل بالقرب من المدينة ترتفع أحد أجزائه عن سطح الأرض، فاستولى بـــروتس على هذا الجزء المرتفع. وحصن نفسه هناك. وأنزل كاسيوس قواتـــه

(*) انظر خريطة المقدمة

على بعد ثلاثة أميال، بالقرب من البحر. وكان هناك صف من الدفاع بين المعسكرين، يشكل سلسلة الاتصال التـــى تــربط بــين مــوقعى القائدين. وبذلك، اتخذت الجيوش موقعا متميزا. فكانوا يشغلون نهــر ستريمون ومستنقعا على اليسار منه، وكان السهل أمامهم، والبحر من خلفهم. وانتظروا قدوم أعدائهم هناك.

وعندما علم أنطونيو، الذى كان بأمفيبوليس آنذاك، وهى مدينة ليست بعيدة عن فيليبى، أن بروتس وكاسيوس اتخذوا موقعهم لانتظار الهجوم، تقدم على الفور وعسكر بالسهل. وبسبب مرض أوكتافيوس فكان محتجزا بمدينة ديراثيوم، وهى ليست بعيدة. وانتظره أنطونيو . ومضى عشرة أيام قبل قدومه. وجاء محمولا على نقالة، حيث كان لا يزال مريضا جدا حتى أنه لا يمكنه السفر بأى وسيلة أخرى. واقترب أنطونيو وأقام معسكره فى مقابل كاسيوس بالقرب من البحــر بينمــا اتخذ أوكتافيوس موقعا مقابلاً لبروتس. وسكنت الجيــوش الأربعــة، وأخذوا يفكرون فى النتائج المحتملة للمعركــة التــى أوشــكت على الاندلاع.

وكانت القوات متعادلــة لكــلا الجــانبين ؛ ولكــن الجانــب الجمهورى لبروتس وكاسيوس كان يعانى من عقبة شــديدة ومعانــاة نظرا لحاجته لمورد كاف من المؤن والذخيرة. وكان هناك اخــتلاف فى الرأى بين بروتس وكاسيوس بشأن الأفضل لهم أن يفعلوه. فكــان يميل بروتس للقيام بمعركة العدو، واعترض كاسيوس علــى ذلــك،

فكان يرى، فى ظل الظروف المحيطة، أنه لـيس مـن الحكمـه أن يجازف، كما سيفعلون حتميا، بتعليق نجاح قـضيتهم بأكملهـا علـى احتمالات معركة واحدة. واجتمع مجلس الحرب، وطالب كلا القائدين المختلفين إبداء رأيه . واقترح أحد الضباط تأجيل المعركـة للـشتاء القادم . فسأله بروتس عن النفع الذى سيحصل عليه مـن وراء هـذا التأجيل. فأجاب: " إن لم أحصل على شيء آخر، فسوف أعيش لفترة أطول " ولمست هذه الإجابة الإحساس بالعزة والشرف العسكرى لدى كاسيوس. وبدلا من أن يتفق مع رأى، ارتكز فى دفاعه، علـى مـا أسماه حبًا غير مجيد للحياة، فضل أن يتراجع عـن رأيـه. ووافـق المجلس على أن يظل الجيش بموقعه، ويقوم بمعركة العـدو. وعـاد الضباط إلى معسكراتهم الخاصة.

وأسعد بروتس هذا القرار كثيرًا. فكانت رغبته الأساسـية أن يحارب فى المعركة، وحيث ساد رأيه، فكان ممتنًا بالأمل فى الغـد. وأقام حفلة مترفة بخيمته، ودعا جميع الضباط فـى فرقتـة لتنـاول الشراب معه. وأمضوا الليلة فى مرح وقـصف، وأخـذوا يتبـادلون التهانى بالنصر الذى ينتظرهم، كما توقعوا فى الغد. وأسعد بـروتس ضيوفه بالأحاديث المشرقة طوال المساء، وحثهم بثقة علـى توقـع النجاح فى المعركة القادمة.

وعلى الجانب الآخر ، مكث كاسيوس، فـى معـسكره علـى البحر، صامتا مكتئبا. وأخذ يتناول الشراب مع قليل مـن أصـدقائه

المقربين. ونهض من فوق المائدة، وأخذ أحد قواده جانبا، وضغط على يده، وأخبره انه يشعر بالريبة فى نتيجة المعركة. وقال: " إنها تخالف رأيى، ونحن بذلك نجازف بحرية روما فى تعليقها بمعركة واحدة، تدور فى ظل مثل هذه الظروف. فمهما تكن النتيجة أتمنى أن تعدوننى شاهدا عندئذ، لأنى أرغمت على هذا الإجراء فى ظروف لا تخضع لإرادتى. ومع ذلك، أعتقد أنه لابد أن أبدو شجاعا، رغم الأسباب التى لدى بشأن هذا النذير بالسوء. ودعنا ننشد الافضل ؛ وتعال لتشرب معى مساء الغد. فغدا ذكرى يوم ميلادى ".

وفى صباح الغد، بدأت السترات القرمزية - وهى الإشارة التى تظهر فى المعسكرات الرومانية صباح يوم المعركة - تلوح فى الأفق كالأعلام أعلى مخيمات القائدين. بينما كان يعد الجنود أنفسهم للمعركة انصياعا لهذه الإشارة، وذهب القائدان ليلتقيا معًا فى مكان بمنتصف الطريق من معسكراتهم من أجل التشاور والاتفاق بشأن الإعداد النهائى ليوم المعركة. وعندما انتهوا من ذلك، وأوشك كل منهما على الانصراف لأداء مهامهم، سأل كاسيوس بروتس عن ما ينوى فعله إذا سار التيار عكس إرادتهم. فأجاب: " نحن نتوقع الأفضل، وصل للإله كى يجعل النصر حليفنا فى هذه اللحظة الحاسمة. ولكن يجب أن نتذكر دائما أن أعظم شئون البشر وأهمها هى التى يحوطها الشك، ولا يمكننا التنبؤ اليوم بنتيجة المعركة. ولكن إذا انقلبت علينا، ماذا تنوى أن تفعل؟ أن تهرب؟ أو أن تموت؟".

فأجاب بروتس: " عندما كنت شابا، ونظرت إلى هـذا الأمـر كموضوع نظرى فقط، رأيت أنه ظلم للإنسان أن يـودى بحياتـه. ورغم عظم الشر الذى يهدده، وحاله اليائس، ظننت أنه من واجبه أن يحيا، ويصبر لانتظار الأوقات الأفضل. ولكن الآن وأنـا فـى هـذا الموقف أرى الأمور من منظور آخر. فإن لم نكسب المعركة اليـوم، فسأعتبر الآمال والاحتمالات فى إنقاذ بلدنا قد اندثرت للأبد، وعندئـذ لن أغادر ميدان المعركة حيا ".

وكان ذلك قرار كاسيوس من قبل، فى حالة قنوطه، وسره أن يسمعه من بروتس. وأمسك بيده بملامح تدل على الـود والـسعادة، وودعه، وهو يقول: " سنخرج للقاء العدو بشجاعه. إما لأننا واثقـون من النصر عليهم، أو لأننا ليس لدينا ما يخيفنا من انتصارهم علينا ".

و يرجع اغتمام كاسيوس ونزوعه إلى اتخاذ موقف القنوط فى توقع الانتصار، إلى تكهنات ونذر سيئة كان قد رآها، ورغم تفاهتهـا وأنها لا تستحق الانتباه إليها على الإطلاق، بدت مهيمنة عليه بـشدة، رغم حنكته العامة وقوته البارزة وسطوة شخصيته. فكانت كما يلى :

أنه عند تقديم بعض القرابين، كان يرتدى ، طبقـا للاسـتخدام الذى تقتضيه مثل هذه المناسبة، إكليلا من الزهور. وحدث أن القائـد الذى أحضره، إما عن طريق الخطأ أو الصدفة، قدمه إليه من الجانب الخطأ. وحدث مرة أخرى أنه فى موكب ما، كان قد تم عمل صورة

من الذهب على شرفة، تعثر حاملها ووقع، وسقطت الصورة على الأرض. وكان ذلك نذيرًا بكارثة وشيكة الوقوع. ثم شاهد عددًا كبيرًا من النسور والطيور الجارحة الأخرى، لعدد من الأيام التي تسبق المعركة، تحلق فوق الجيش الرومانى؛ ووجد جماعات من النحل داخل حدود المعسكر. وكانت الأخيرة شديدة الإنذار حتى أن الجنود قاموا بتغيير خط الدفاع لتجنب الموقع المشؤوم. وكانت لهذه الأشياء وغيرها أثرًا عظيمًا على تفكير كاسيوس، وإقناعه بالتوعد بكارثة.

ولم يكن بروتس نفسه يخلو من النذر من هذا القبيل، رغم أنها تبدو أقل قوة من أن تترك انطباعا جادا على عقله، كما فى حالة كاسيوس. وكان النذير الأشد غرابة الذى تلقاه بروتس، وفقا لرواية المؤرخين القدماء، هو رؤيته لشبح خرافى، فى فترة سابقة، أثناء تواجده بآسيا الصغرى. فكان يقيم بمخيم بالقرب من مدينة سرديس فى ذلك الحين. وكان معتادا على النوم قليلا، ويقال إنه غالبا عندما ينصرف الضباط جميعهم، ويكون المعسكر ساكنا، يجلس فى خيمته بمفرده، يقرأ أحيانًا أو يستغرق فى التفكير فى الهموم التي تشغل باله. وذات ليلة كان يجلس بمفرده فى الخيمة، بجانبه مصباحا صغيرا يضىء له عتمة الليل، مستغرقا فى التفكير، فإذا به يسمع فجأة صوت حركة لشخص ما يدخل الخيمة. فدقق نظره، ورأى شبحا لمسخ غير آدمى غريبًا، يدخل من الباب ويتجه صوبه. وكان نظر إليه وهو يقترب ولكن دون أن يتحدث.

وسأل بروتس، الذى لم يألف الخوف، الشبح بجرأة من ومـــاذا يكون، وماذا جاء به هناك. فأجابه الشبح: "أنـــا روحـــك الـــشريرة، وسأقابلك فى فليبى". فقال بروتس: " إذن يبدو، على أى حال، إننـــى سأراك ثانية". فلم يجبه الشبح وتلاشى على الفور.

ونهض بروتس، وذهب إلى باب خيمتـــه، وجمـــع الحـــراس، وأيقظ الجنود الذين كانوا نائمين بالقرب منه. ولم ير الحراس شـــيئًا؛ وبعد بحث جاد، لم يعثروا على أى أثر للزائر الغامض.

وفى صباح اليوم التالى، روى بروتس على كاسيوس الواقعـــة التى شاهدها. ورغم تأثر كاسيوس بالنذر، كان رأيـــه فلـــسفيا بعيـــد النظر بشأن تلك الأمور لأشخاص آخرين. وجادله بالعقل وأقنعـــه أن ما رآه هو رؤية منام، اتخذت هيئتها وشكلها مـــن أفكـــار وصـــور الموقف الذى كان به بروتس، وأن التعب والقلق الذى يعـــانى منـــه انطبع على عقله.

ولكن لنعُد إلـــى المعركـــة. فكـــان بـــروتس يحـــارب ضـــد أوكتافيوس؛ بينما التقى كاسيوس بأنطونيو على بعد اثنين أو ثلاثة من الأميال، وكان ذلك، كما سنروى، تنظيم الجيوش ومعـــسكراتهم فـــى السهل. وفى موقعه، نجح بروتس فى تحقيق النصر وهزيمة جـــيش أوكتافيوس والاستيلاء على معسكره. واتجهوا إلى خيمتـــه، وقـــاموا بطعن النقالة التى اعتقدوا أن القائد المـــريض كـــان راقـــدًا عليهـــا

برماحهم. ولكن هدفهم لم يكن هناك، فقد حمله الجنود بعيدا منذ دقائق قليله، ولا أحد يعلم ما حدث له.

ومع ذلك، اختلفت نتيجه المعركة تمامًا بسوء الحظ لهؤلاء الذين نتابع أعمالهم الآن، بموقف كاسيوس فى الميدان. فعند عودة بروتس، بعد ما انتهى من هزيمة خصمة، إلى معسكره المرتفع كما أشرنا، نظر تجاه معسكر كاسيوس، واندهش عندما وجد أن الخيمه قد اختفت. وشاهد بعض الجنود أسلحة تسطع تحت أشعة الشمس فى المكان المفترض لخيمة كاسيوس. وانتاب بروتس الشك فى حقيقة الأمر، فى أن كاسيوس قد هزم، ووقع معسكره فى أيدى العدو. وجمع على الفور قوة كبيرة بقدر ما استطاع، وتولى قيادتها وزحف لتخليص رفيقه. وأخيرا، وجده على قمه رابية صغيرة كان قد فر إليها للاحتماء بها برفقة مجموعه من الحراس والأتباع. ورأى كاسيوس جنود الفرسان التى أرسلها بروتس يتقدمون صوبه على خيولهم، وظن أنها كتيبة من جيش أنطونيو جاءت للإيقاع به. فبعث رسولا للقائهم ليتأكد من كونهم أصدقاء أم أعداء. وانطلق الرسول على فرسه وكان يدعى تيتينيوس. وعرفه الفرسان، والتفوا حوله ونزلوا من على خيولهم ليهنئوه على سلامته، وأخذوا يستعلمون منه عن أمر المعركة ومصير سيده.

وعندما رأى كاسيوس ذلك، ولكن دون أن يتحقق منه، ظن أن هؤلاء الفرسان من الأعداء، وأنهم أحاطوا بتيتينيوس وقتلوه

أو أسروه. وعليه أيقن أنه قد خسر كل شيء الآن. وعليه، أقدم على تنفيذ الخطة التى أعدها مسبقا، فاستدعى خادما، يدعى بنداروس، وطلب منه أن يتبعه ودخل خيمة قريبة. وعندما جاء بروتس بصحبه الفرسان دخلوا الخيمة. ولم يجدوا أحدا على قيد الحياة بالداخل ؛ بل وجدوا جثة كاسيوس ورأسه مفصول عنها. ولم يعثروا على بنداروس بعدها أبدًا.

وغمر بروتس الحزن لوفاة رفيقه ؛ وزاد من حزنه تحمله لعبء مضاعف من المسئولية والقلق، حيث وقعت القيادة بأكملها على عاتقه. ووجد نفسه محاطًا بالمصاعب التى أصبحت تتزايد يومًا وراء يوم. واضطر بعدها لخوض معركة ثانية. ولا يمكن الحديث عنها هنا بالتفصيل، ولكن نتيجتها، رغم الجهود المنقطعة النظير البائسة التى بذلها بروتس لحث جنوده على المهمة، والاحتفاظ بموقعه، سحقهم الهجوم المباغت للأعداء، وتحطمت آماله وضاعت قضيته بلا رجعة.

وعندما وجد بروتس أنه قد خسر كل شيء، بدأ يتسلل من ميدان المعركة ومعه مجموعة صغيرة من الحراس، الذين دخلوا، عند انسحابهم، فى صفوف العدو من جانب ظنوا أن المقاومة به ستكون أقل. ومع ذلك، لاحقتهم سرية من الخيول يتلهفون لأسر بروتس وإيداعه السجن. وفى هذه الظروف، توصل ليسيليوس ، أحد أصدقاء برونس ، لخطة أن يتظاهر بأنه بروتس ويسلم نفسه أسيرًا.

وشرع فى تنفيذ خطته بنجاح. فعندما جاء الجنود، نادى فى الأرجاء، أنه هو بروتس، وطلب منهم أن يؤمنوه على حياته، ويأخذوه إلى أنطونيو. وفعلوا ذلك، وهم سعداء، كما ظنوا، لضمان جائزة لا تقدر بثمن.

وفى الوقت ذاته، نجح بروتس الحقيقى فى الفرار. فعبر جدولاً فى طريقه، ودخل واديا صغيرًا يوحى أن بداخله مخبأ، حيث تعوقه صخور شديدة الانحدار وأشجار متشابكه. ورافق بروتس مجموعة من الأصدقاء القلائل والجنود أثناء فراره. وانسدل الليل واستلقى داخل تجويف لصخرة منحدرة ويثقله التعب والمعاناة. ثم رفع رأسه إلى السماء، وبأبيات مقتبسة من الشعر الإغريقى، أخذ يلعن القدر الذى جعل الأعداء يحتفلون بما اعتبره دمارًا للبلاد.

وبعد ذلك أخذ يحصى بالاسم الأصدقاء الكثيرين والأصحاب الذين رآهم يتساقطون اليوم بالمعركة، وهو يرثى فقدانه لكل منهم بأشد حزن. وكان الليل قد ساد المكان، وجماعته مختبئة بالوادى الموحش، مفرقة بلا مأوى. وتعانى من الجوع والعطش، ويرهقهم التعب. ولم يكن هناك أمل لهم إما بالراحة أو الحياة. وأخيرا، أرسلوا أحدهم خلسة ليعبر النهر الذى جاءوا من خلاله عند انسحابهم، ليحضر لهم بعضا من الماء. وأخذ الجندى خوذته ليحضر الماء بها نظرا لحاجته إلى أى وعاء. وعندما كان بروتس يشرب الماء الذى أحضره، فإذا به يسمع صوتا من الاتجاه المعاكس. فذهب اثنان من

الجنود للتأكد من الأمر، وعادا سريعا وأخبراه بأن هناك جماعة من الأعداء بهذا المكان، وسألوا عن الماء الذى أحضروه فأجاب بروتس أنه قد شرب، ولكنه سوف يرسل، على الفور، لإحضار المزيد. فذهب الرسول إلى النهر ثانية ولكنه سرعان ماعاد وهو جريح يدمى، وأخبرهم أن العدو قريب جدا من هذا الجانب أيضا، وأنه قد نجا بحياته بصعوبة. وزادت هذه الأخبار مخاوف جماعة بروتس بشدة، وأصبح جليًا أن تعلقهم بأمل البقاء مختبئين بهذا المكان قد تلاشى بسرعة. واقترح أحد الجنود ويدعى ستاتيليوس أن يقوم بمحاولة ليجد طريقا للخروج من هذا الشرك الذى وقعوا به، وقال إنه سيذهب بحرص شديد ويتجنب جنود العدو وهو مختبئ بظلمة الليل متمنيا أن يجد مخرجا للانسحاب. وإذا نجح فى ذلك، فسيعطيهم إشارة ضوئية من على ربوة بعيدة حتى يتأكد الجماعة من سلامته عند رؤية الضوء. وحينئذ سيعود ويرشدهم للطريق الذى وجده.

ونالت هذه الخطه استحساناً، وعليه رحل ستاتيليوس. وفى الوقت المناسب، أضاء ستاتيليوس الضوء المتفق عليه مما دل على إنجازه لمهمته. فابتهج بروتس وأصدقاؤه بذلك الأمل الجديد الذى أيقظته هذه المحاولة. وبدأوا يترقبون عودة الرسول، فراقبوا وانتظروا طويلاً ولكنه لم يأت. حيث تم اعتراض طريقه وذبحه أثناء عودته.

•

وبعد ذلك، فقدوا أى أمل فى عودته. وفى مشاورات يائسة دارت بين الهاربين، قال بعض منهم فيما بينهم إنهم لا ينبغى أن يمكثوا طويلا بهذا المكان، ولابد أن يفروا منه مهما تكن المخاطر. وقال بروتس: " نعم لابد أن نغادر هذا الموقع الحالى، ولكن لا بد أن يكون بأيدينا وليس بأقدامنا ". وكان يعنى بذلك أن السبيل الوحيد الذى تبقى لهم للفرار من عدوهم هو الانتحار. وعندما أدرك أصدقاؤه مايعنيه وأنه قرر أن يقوم بذلك بنفسه، غمرهم الحزن. وأخذ بروتس بأيدهم، فردا فردا، وأبلغهم الوداع. وشكر لهم إخلاصهم ومؤزارتهم له حتى النهاية، وقال إنه مطمئن ويشعر بالرضا الشديد لأن جميع أصدقائه أثبتوا إخلاصهم وولاءهم له. وأضاف: " أنا لا أشتكى من سوء قدرى، ولكنى حزين على بلدى التعيس. فبالنسبه لى، فإلى الآن أفضل من حال أعدائى ؛ فرغم أننى أموت، فسوف تنصفنى ذريتى، وسأنعم بالشرف الذى تستحقه الفضيلة والصواب إلى الأبد ؛ بينما هم، رغم أنهم أحياء، سيعيشون فقط ليحصدوا الثمار المريرة للظلم والطغيان.

واستمر فى حديثه لأصدقائه: "وبعد أن أرحل، لا تفكروا بى، واعتنوا بأنفسكم، وأنا واثق أن وفاتى أنا وكاسيوس سترضى أنطونيوس. فلن يسعى لملاحقتكم والانتقام منكم، فاعقدوا معه سلاما بأفضل الشروط التى تمكنكم ".

وطلب بروتس واحدا من أصدقائه ثم آخر لمعاونته فى مهمته الأخيرة، كما اعتبرها، للقضاء على حياته ؛ ولكنهم أخبروه، واحدا تلو الآخر، أنهم لا يمكنهم فعل أى شيء لمعاونته فى الإقدام على هذا الفعل البشع. وأخيرا، أخذ معه صديقا كبير السن متمرسا يدعى ستراتو، وابتعد قليلا عن الباقين. وألح عليه، مره أخرى، فى طلب نفس الأمر الذى كان قد رفضه من قبل - متوسلا إليه أن يشهر سيفه. ولكن ستراتو ظل رافضا. وحينئذ نادى بروتس أحد عبيده. وعليه، قال ستراتو إنه على أتم الاستعداد لفعل أى شيء، إلا أن يموت بروتس على يد أحد العبيد. وأشهر السيف وأمسكه بيده اليمنى. وغطى عينيه بيده اليسرى حتى لا يرى ذلك المشهد المروع. واندفع بروتس على رأس السلاح بقوة شديدة أودت بحياته فى الحال وخر قتيلا.

وهكذا انتهت معركه فيليبى الشهيرة، التى عرفها التاريخ بأنها نهاية الصراع الشديد الذى دار بين أصدقاء وأعداء قيصر، والتى أثارت العالم بشدة بعد مقتل الفاتح. وأكدت هذه المعركه سيادة أنطونيو، وجعلته لفترة، أبرز رجال العالم، كما كانت كليوباترا أبرز نساء العالم .

الفصل العاشر

كليوباترا وأنطونيو

لابد أن يكون القارئ قادرًا على الحكم على موقف كليوباترا في اتخاذها قرار مناصرة قضية أنطونيو بدلاً من بروتس وكاسيوس، أثناء الحرب الأهلية التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، وإلى أى مدى كان امتنانا منها لقيصر، وإلى أى مدى، كان اهتمامًا بشخص أنطونيو. فقد رأت كليوباترا أنطونيو، كما سنروى، منذ بضع سنوات، أثناء زيارته لمصر، عندما كانت شابة صغيرة. وألمت بشخصيته جيدا دونما شك. فكان شخصية جديرة بأن تأسر خيال امرأة متحمسة ومندفعة وجريئة مثل كليوباترا.

ففى الواقع، جعل أنطونيو نفسه موضع اهتمام العالم بأسره، بخصاله الغريبة الجامحة وعاداته وسلوكه المندفع، والمواقف المتتالية غير المألوفة التي وسمت حياته. فعلى المستوى الأخلاقى كان فاسدًا ومفقوذا تمامًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ففى بداية حياته، اتسم، كما أشرنا، بالإسراف والانغماس فى الملذات والشهوات حتى تدمر تماما؛ أو كان سيكون كذلك، إذا لم يتمكن، بفعل القوى السحرية التي تمتلكها مثل هذه الشخصيات، من النجاح فى الحصول على سيادة

قوية على شاب ذى ثروة طائلة يدعى كوريو، فسانده لفترة من الوقت بأن أصبح ضامنا لديونه. ورغم ذلك، فشلت هذه الوسيلة، واضطر أنطونيو لمغادرة روما، وعاش، لبضع سنوات، هاربًا في المنفى، فى بؤس وانحلال وشقاء. وظلت الفترات اللاحقة التى تلت ذلك فى حياته بنفس الإفراط والتبذير فى النفقات أينما وقعت الأموال بيده. وفى بعض الأحيان، اتخذت هذه السمة هيئة الكرم والنبل فى شخصيته. ففى الحملات التى كان يتولى قيادتها، كان يوزع الغنائم التى يستولى عليها بين جنوده ولا يترك لنفسه شيئًا. مما جعل رجاله يخلصون له بشدة، واعتقدوا أن إسرافه ميزة، حتى إن لم ينالوا منه شيئا لأنفسهم. ودائمًا ما كانت تتداول الآلاف القصص فى معسكره عن عدم تقديره لقيمة المال، وبعضها مضحك، والآخر غريب وسخيف.

وكان يختلف أيضًا عن الآخرين فى عادته الشخصية، فكان يفتخر بأنه ينحدر من سلالة هيركليز، ويرتدى نمطًا من الزى ويحيا جوًّا عامًّا وطباعًا تتوافق مع الشخصية البدائية لنسبه المزعوم. وكان حاد الملامح ذا أنف ناتئة بانحناءة ويطلق شعره ولحيته طويلة جدًا - بقدر ما يمكنه الاحتفاظ بهما. وأضفت تلك الخصائص على سيماه تعبيرات ضارية غليظة.

وأيضًا إذا ما تم تقييم نمط الزى الذى اتخذه بالإشارة إلى النمط السائد آنذاك، نجده أعطى مظهره جوًّا بدائيًا أجش ومتهورًا.

وكانت طباعه وأخلاقه تتوافق مع لباسه ومظهره. فعاش مع جنوده دون تحفظ . وانضم إليهم وأكل وشرب معهم فى العراء، وشاركهم حياة المرح الصاخب والطرب المدوى. ومكنته قوته العقلية القيادية وشجاعته وإقدامه الذى لا يهاب شيئًا من أداء ذلك كله دون خطر. وتركت تلك السمات أثرًا عميقا بالاحترام فى نفوس الجنود نحو قائدهم؛ وتمكن من الحفاظ على ذلك الرأى الجيد رغم أن أتباع أسلوب الحميمة مع من هم أقل مكانة، قد يكون مهلكا لشخص عادى.

وفى أكثر فترات حياته ازدهارا - على سبيل المثال، الفترة التى سبقت وفاة قيصر مباشرة، كرس أنطونيو نفسه للانغماس فى الملذات المشينة بطريقة مخزية ودون تحفظ . فكان محاطًا بحاشية تتألف من المهرجين، والبهلوانات، والدجالين، والممثلين، وما يماثلهم من الشخصيات الدنيا من الطبقة التى تتسم بسوء السمعة. وكان العديد من هؤلاء الرفاق فتيات راقصات ومغنيات، جميلات، وبارعات فى فنون مهنتهم، ولكنهم جميعا فاسدون ومنحلون.

وكان الرأى العام يدين، حتى فى ذلك العصر وفى هذه الأمة، ذلك السلوك. فحقا، كان الناس وثنيين آنذاك، ولكن من الخطأ أن نعتقد أن هذا التكوين من الفكر الأخلاقى داخل مجتمع ضد مثل هذه الرزائل هو عمل تقوم به المسيحية فقط. فهناك قانون الطبيعة، الذى يتمثل فى فطرة عامة داخل السلالة البشرية لا يمكن تجاهله، يقضى بأن اتصال الأجناس لابد أن يتكون اجتماع رجل واحد وامرأة واحدة،

وأن تكون هذه المرأة زوجته، ويجرم ما دون ذلك بقسوة. ولهذا لا يمكن أن يكون هناك مجتمع فاسد مثل هذا فى العالم، يمارس فيه رجل مثل هذه الرزائل التى قام بها أنطونيو، دون ليس فقط انتهاك معنى الصواب والخطأ بداخله، بل جعل نفسه أيضا موضع إدانة كل من حوله.

ولا يزال العالم يميل إلى التسامح الشديد بشأن رزائل العظماء. ويبدو أن هذه الشخصيات العظيمة مثل أنطونيو يتم الحكم عليها من منظور مختلف عن الشخصيات العادية. حتى أنه فى البلدان التى يتم فيها اختيار من يشغلون المناصب الرفيعة لمسئولية أو سلطة، بغرض وضعهم هناك، بإجماع أتباعهم. يتم قمع كافة الاستفسارات عن شخصية أى مرشح، ويتم إدانة هذه الاستفسارات لأنها غير ملائمة أو مناسبة، وهؤلاء ممن ينجحون فى الوصول إلى السلطة يتمتعون بحصانة فى مراكزهم الرفيعة التى لا يتمتع بها أحد من الرجال العاديين.

ولكن، بالرغم من تأثير مكانة أنطونيو ونفوذه فى وقايته من الاستهجان العام، فقد قام بتجاوزات قصوى جعلت سلوكه مشجوبا على المستوى العام وبصورة صارخة. فكان يمضى الليل فى احتفالات صاخبة مخمورة، ثم يسير، فى اليوم التالى، وهو يترنح فى الطرقات أمام الجميع. وفى بعض الأحيان، قد يدخل المحكمة لإتمام عمل ما وهو ثمل لدرجة أنه لابد أن يرافقه أصدقاؤه إلى هناك ليعاونوه على الوقوف. وكان يصطحب معه فى بعض رحلاته

بالقرب من روما، جماعة من الرفاق من أسوأ الشخصيات الممكنـــة، ويسافر معهم دون تحفظ أو شعور بالخزى. وكانت هناك ممثلة تدعى سيثيرايد وقد اصطحبها معه فى إحدى هذه الرحلات. وكانت تحمـــل فوق نقالة تسير فى موكبه، وقد أخذ معه مجموعـــة مـــن الأطبـــاق الذهبية والفضية، وطاولة رائعة، إلى جانب مخزون لا حصر له من أصناف الطعام والخمور، لسد حاجـــة الاحتفـــالات والموائـــد التـــى سيقيمها معها أثناء الرحلة. وفى بعض الأحيان، قد يتوقف على جانب الطريق، وينصب خيمته، ويقيم مطبخه، ويبدأ الطهاة العمل لإعـــداد وليمة، وتنشر الطاولات، وتعد الموائد السخية المتكلفـــة التامـــة ذات الطابع الرسمى، وذلك كله ليجعل الناس يتعجبون من الوفرة والكمال لوســـائل الترف التى يمكنـــه حملها معه أينما ذهب. وفـــى الواقـــع، كان يشعر دائمًا بمتعه خاصة فى القيام بالأشـــياء الغريبـــة وغيـــر المألوفة من أجل إثارة الدهشة. فذات مرة فى أحد رحلاته، أحـــضر أسودًا وربطها فى عرباته لتجر أمتعته، حتى ينـــشئ حـــدثًا مثيرًا.

ورغم استغراق أنطونيو فى الإسراف فى المتع أثناء تواجـــده فى روما، لم يكن أحد يتحمل التعرض للمخاطر والمصاعب فى المعسكر أو ميدان المعركة مثلما كان هو. فكان يسرع بالاندفاع إلى المصاعب والمخاطر دون تردد عندما يكون بالخارج، كمـــا كان فى الإنفاق والاستمتاع بالداخل. وذات مرة، أثناء معاركه مـــع أوكتافيوس ولابيدوس، عقب وفاة قيصر، ســـنحت لـــه الفرصـــة أن

يجتاز جبال الألب، وباندفاعه المعتاد، حاول اجتيازها دون مخــزون من المؤن أو وسائل النقل. وتعرض هو وجنوده لأقــصى درجــات الجوع والألم، فكانوا يتناولون الجذور والأعشاب، وأخيــرًا عاشــوا على لحاء الأشجار؛ وبهذه الوسائل، حافظوا على أنفسهم من مجاعة محققة.

ومع ذلك، لم يكن أنطونيو ليقلق من كل هذا، ولكنه كان يصر على المصاعب والخطر، مبديًا نفس درجة الاطمئنان بتحــد وجــرأة حتى النهاية. وفى نفس الحملة، وجد نفسه يصل لأقــصى درجــات الحاجة الملحة إلى الرجال. حيث هلك جنوده تدريجيًا حتــى صــار موقفه بائسًا.

وفى ظل هذه الظروف، أدرك فكرة رائعة فى أن يذهب إلــى معسكر لابيدوس بمفرده ويستميل جنود خصمه أمام عينيــه. وقــام أنطونيو بتنفيذ خطته بنجاح. وتقدم بمفرده، بملابسه البائسة وشــعره المجدول ولحيته تتدلى على صدره وأكتافه، إلى صفوف لابيــدوس. واستقبله الرجال، الذين يعرفونه جيدا، بالتهليل وهم مــشفقون علــى حاله الحزين الذين شاهدوه من العوز والحاجة، وبدءوا ينصتون إليه . ولم يستطع لابيدوس أن يهاجمه حيث لم يكن العداء بينهم ظــاهرًا، بل كانوا مجرد قائدين خصمين فى الجيش، فأمر العازفين على البوق بالعزف حتى يحول صوتهم دون سماع كلمات أنطونيو. فقطع ذلــك التفاوض. ولكن سرعان ما قام الجنود بإرسال اثنين منهم يتنكــرون

فى هيئة النساء إلى أنطونيو من أجل الترتيب معه حتى يصبحوا تحت قيادته، وفى نفس الوقت، عرضوا عليه استعدادهم لقتل لابيدوس، إذا شاء. فأوصاهم أنطونيو بألا يصيبوا لابيدوس بأى مكروه. ومع ذلك، ذهب إلى هناك وقام بالاستيلاء على المعسكر وتولى قيادة الجيش. وعامل لابيدوس بطريقة مهذبة جدًا، وأبقاه تابعا تحت قيادته.

وعقب وفاة قيصر بفترة وجيزة، تزوج أنطونيو من أرملة تدعى فلوفيا. وكانت شخصية بارزة تتسم بالحسم. وقد خاضت حياة جامحة غير مألوفة من قبل ذلك الحين، ولكنها أدركت علاقتها الوطيدة بزوجها الجديد، وكرست نفسها له بإخلاص متناه منذ بداية الزواج. وسرعان ما استحوذت عليه وكانت وسيلة مؤثرة فى إصلاح شخصيته وسلوكه. وكانت امراة طموحة، بذلت جهودا ناجحة وفعالة لرفعة وتعظيم شأن زوجها. وكانت تفتخر وتستمتع بسيطرتها الشديدة عليه. ونجحت فى هذه المحاولات بدرجة أذهلت الجميع.

واندهش العالم لوجود قوة بشرية استطاعت ترويض هذا النمر. ولم تحكم فلوفيا السيطرة على زوجها باللطف والرقة، فكانت شخصية صارمة تتسم بالرجولة فى أفعالها، ويبدو أنها تمكنت من أنطونيو لتفوقها عليه فى استخدام أسلحته الخاصة. وفى الواقع، وبدلا من أن تقوم بملاطفته وتخفيف آلامه، دفعته إلى اللجوء إلى حيل مختلفة لتهدئتها واسترضائها. فذات مرة، على سبيل المثال، أثناء

عودته من حملة تعرض فيها لمخاطر شديدة، جاء إلى المنزل في المساء متنكرًا في زى حامل رسائل. ودخل غرفة فلوفيا متنكرا وقام بتسليمها بعض الخطابات المزعزمة، قائلاً: إنها من زوجها؛ وبينما كانت تفتحهم بلهفة شديدة وهى ترتجف، فإذا به خلع الزى الزائف وأفصح لها عن نفسه وعانقها وأخذ يقبلها وسط دهشتها.

وكما كان زواج أنطونيو من فلوفيا وسيلة لإصلاح أخلاقه نوعا ما، كان أيضا سببا فى تهذيب وتلطيف طباعه. فاتخذ ملبسه ومظهره شكلاً مختلفًا. وارتفعت مكانته السياسية، بالفعل، عقب وفاة قيصر، ولم يكن بحاجة إلى الفنون الديمقراطية التى كان يسعى بها لتحقيق ذلك، فطرحها جانبا بالتدريج. وعاش بأسلوب رائع ومنمق فى روما، وعندما كان يغيب عنها، أثناء حملاته العسكرية، كان يبدى نفس عروض البراعة والقوة والثراء فى عدته وإعدادته كما اعتاد باقى القادة الرومان الآخرين.

وعقب انتهاء معركة فيليبى، التى وصفناها فى الفصل السابق، ورغم كل أخطائه، كان أنطونيو فى بعض الأحيان خصما كريمًا، فبمجرد أن وصلته أنباء وفاة بروتس، انتقل إلى الموقع فى الحال، وبدا مصدومًا ومهتما برؤية جسده، وخلع عباءته العسكرية الرائعة التى كانت باهظة الثمن ومزركشة بحلى غالية، وغطى بها جسده، وأمر أحد الحرس الملكيين بإعداد مراسم جنازة تليق بشخصية جليلة تقديرًا منه لذكرى الفقيد. وفى أثناء هذه المراسم كان ينبغى

على الحارس أن يقوم بحرق العباءة العسكرية، والتى خصها أنطونيو لتكون غطاء للنعش، مع الجسد. ولكنه لم يفعل. ونظرا لقيمتها، قام بالاحتفاظ بها ومعها قدر لا بأس به من المال كان قد أعطاه له لينفقه على الجنازة. وظن أن أنطونيو لم يكن ليسأل بدقة عن تفاصيل ما تم إعداده لجنازة عدوه الأصيل. ومع ذلك، استعلم أنطونيو عن ما حدث، وعندما علم ما فعله الحارس، أمر بقتله.

ولا يمكننا هنا الحديث بالتفصيل عن التغيرات السياسية المختلفة التى وقعت، والتحركات التى حدثت بين الجيوش المتعددة عقب انتهاء معركة فيليبي. ويكفينا أن نقول إن أنطونيو واصل تقدمه شرقا عبر آسيا الصغرى، ثم اتجه إلى صقلية. ومنها بعث رسولا، يدعى دليوس، إلى مصر، يدعو كليوباترا للمثول أمامه. وأخبرها أن هناك اتهامات ضدها بأنها قامت بمساندة بروتس وكاسيوس فى الحرب الأخيرة بدلاً من إرسال المعونة لهم. ولا ندرى إذا كان هناك أى من هذه الاتهامات بالفعل أم اختلقها أنطونيو كحجة لرؤية كليوباترا، التى ذاع صيت جمالها بكل مكان. ومع ذلك، ربما كان هذا صحيحًا، فقد أرسل يدعو الملكة لتأتى إليه. وكانت فلوفيا زوجة أنطونيو بروما آنذاك.

ووصل دليوس إلى قصر كليوباترا بمصر. وكانت الملكة تبلغ الثامنة والعشرين من العمر وقتئذ، ولكنها أكثر جمالاً من ذى قبل، كما قيل، فصعق دليوس بجمالها وسحر صوتها وحديثها، الذى قال

عنه كتاب سيرتها القدامى أنه أحد مفاتنها التى لا تقاوم. ونصحها بالحضور إلى أنطونيو فى صقلية دون خوف. وألا تبالى بالاتهامات التى قد تكون ضدها. وستجد، فى غضون أيام قليلة عقب حضورها إلى أنطونيو، أنها ستكون فى رعاية شديدة. وأضاف أنها ستنال هيمنة غير محدودة، بسرعة شديدة، على القائد. وستتبين ذلك خلال أيام قليلة عند المثول أمامه، ولابد أن تظهر في أفضل ما يمكنها من أبهة وعظمة. وقال إنه سيأتيها بالنتيجة.

وقررت كليوباترا أن تعمل بنصيحة دليوس، فكان خيالها المتقد والمندفع يحترق بفكرة أن تقوم، للمرة الثانية، بغزو أعظم قائد وأرفع الحكام مقاما فى العالم. وعلى الفور، بدأت فى الإعداد للرحلة، وسخرت كافة موارد المملكة لإمدادها بأروع وسائل التباهى، مثل الثياب الرائعة الباهظة الثمن، وأفخم أدوات المائدة، والحلى المصنوعة من الأحجار الكريمة والذهب، وتشكيلة عظيمة من أفخر الأنواع كهدايا لأنطونيو. وعينت أيضا، العديد من أتباع الحاشية لمرافقتها فى رحلتها، ونوجز القول بأنها أتمت جميع الترتيبات اللازمة لبعثة من أروع وأجل الضروب. وبينما كانت تستكمل هذه الإعدادات، تلقت رسائل جديدة ومتتالية من أنطونيو يحثها فيها على الإسراع بالرحيل، ولكنها لم تبد اهتماما حيث كانت تشعر بأنها غير مقيدة بفترة زمنية، وتعتزم أن تأخذ وقتها كاملاً.

وعندما استكملت كل شيء، بدأت كليوباترا في الإبحار. وعبرت البحر المتوسط ودخلت مصب نهر سيدنوس. وكان أنطونيو بتارسوس، مدينة تقع على سيدنوس بالقرب من مصبه. وعندما دخل أسطول كليوباترا النهر، أمرت بإنزال زورق فائق الروعة من متن السفينة، كانت قد أنشأته لتلك المناسبة خصيصًا وأحضرته معها عبر البحار. وكان أروع زورق وأفخم مركب مزين لم يسبق له مثيل. فكان مزينا بأدق النقوش والزخارف ومطليًا بالذهب. وعلى متن هذا الزورق، ظهرت كليوباترا تحت ظلة من النسيج الذهبي وكانت ترتدي الزي الفخم الذي كانت ترتديه فينوس، آلهة الجمال، في تصويرها.

وكان يحوطها صحبة من أجمل الصبية، يرافقونها في هيئة كيوبيد، يضربون بأجنحتهم لتحريك الهواء لها، ومجموعة من الفتيات تمثل الحوريات والاهات الحسن الثلاث. وكان هناك فرقة موسيقية على ظهر القارب ترشد بعزفها الجدافون حيث يتركون لها الوقت أثناء تجديفهم؛ وحيث كان اللحن رقيقًا، فكان يسمع صوت الأوتار من مسافة على امتداد الشاطئ كلما تقدم المركب. وكان العازفون يستخدمون الفلوت، والقيثارة، والفيول، وجميع الآلات الموسيقية التي كانت تستخدم آنذاك لإصدار الموسيقى بصورة رقيقة ومؤثرة.

وفى الواقع، كان المشهد بأسره ساحرًا، وسرعان ما ذاعت أنباء اقتراب المركب فى جميع أرجاء المكان، واحتشد أهل البلاد على شواطئ النهر يحدقون بإعجاب وهى تمر بتريث. وأثناء وصولها إلى تارسوس، كان أنطونيو مشغولا فى إلقاء خطاب عام على أحد المنابر بقصره، ولكن الجميع انصرفوا لرؤية كليوباترا والمركب، وتركوا عضو الحكومة الثلاثية العظيم بمفرده، أو برفقة القليل من الأتباع المسئولين بالقرب منه. وعند وصول كليوباترا للمدينة، نزلت بالشاطئ، وبدأت فى نصب الخيام هناك. وبعث إليها أنطونيو رسولاً يقرئها السلام والترحيب، ويدعوها للمجيء وتناول الشراب معه. فرفضت دعوته، وأخبرته أنه كان من الأجدر به أن يأتى هو ليتناول الشراب معها. وقالت إنها تنتظره أن يأتى وستكون الخيام معدة فى أى ساعة يأتى فيها. وأذعن أنطونيو لعرضها، وأتى إلى ضيافتها. وتم استقباله بحفاوة وعظمة أذهلته. فكان السرادق والخيام التى بها الضيافة تضاء بعدد هائل من المصابيح التى كانت مرتبة بطريقة منمقة وبارعة لتصدر إضاءة لامعة وجميلة. وأيضا كانت الأعداد والأنواع الهائلة للحوم والخمور، والأوانى الفضية والذهبية المرتبة على الموائد، وعظمة وفخامة الثياب الذى كانت ترتديه كليوباترا ورفاقها، تتحد لتجعل المشهد بأكمله أحد المشاهد السحرية التى تفوق الوصف.

وفى اليوم التالى، دعاها أنطونيو للمجيء إليه ليرد إليها الزيارة. ولكن رغم أنه بذل كل ما يمكنه لإعداد مائدة مترفة مثل

التى أعدتها كليوباترا، باءت محاولته بالفشل تمامًا وأقر هزيمته بنفسه. وفى أثناء هذه اللقاءات كان أنطونيو مفتونًا بسحر كليوباترا. حيث جعله جمالها وذكاؤها والآلاف من إنجازاتها، وفوق ذلك كله، براعتها، ولباقتها، ورباطة جأشها التى أظهرتهم فى الحال، عند اتخاذها وتنفيذها ببراعة لفكرة رفعتها الاجتماعية عليه، يسلم قلبه على الفور لسلطانها الذى لا يقبل جدلاً.

THE ENTERTAINMENTS AT TARSUS.

متع تارسوس

وكان أول عمل استخدمت فيه كليوباترا سلطانها عليه هو أن طلبت من أنطونيو أن يأمر بذبح شقيقتها أرسينوى، فقد رحلت أرسينوى إلى روما لتشريف موكب انتصار قيصر، ثم عادت، بعد ذلك، إلى آسيا

حيث تعيش الآن فى المنفي. وترغب كليوباترا الآن، إما بدافع ثأر قديم، أو لخوفها من خطر مرتقب فى المستقبل، بقتلها. وسرعان ما وافق أنطونيو على طلبها. وأرسل جنديًا للبحث عن الأميرة البائسة. وقام بذبحها حيث وجدها، داخل فناء معبد قد احتمت به، ظنا منها بقدسيته، وأنه لا يمكن لأى درجة من العداء، مهما كانت شدتها، أن تنتهك حرمته.

ومكثت كليوباترا بمدينة تارسوس لبعض الوقت، تتعاقب عليها دائرة البهجة والسعادة دون توقف، وتعيش علاقة حميمية مفرطة لا تعرف القيود مع أنطونيو. واعتادت قضاء أيامٍ وليالٍ بأكملها وهى ترافقه فى الولائم والمرح الصاخب. وكانت هذه الحفلات الرائعة المترفة، خاصة تلك التى تقيمها كليوباترا، موضع تعجب العالم. فيبدو أنها وجدت متعة خاصة فى إثارة دهشة أنطونيو بإظهار الثراء والبذخ الشديد الذى كانت تنغمس فيها. فعلى أحد الموائد التى كانت تقيمها، أبدى أنطونيو إعجابه بذلك العدد الكبير من الأكواب الذهبية المرصعة بالجواهر التى توجد فى جميع الجوانب. فقالت: " إنها أقل شيء " وإذا كانت تعجبك فيمكنك الاحتفاظ بها جميعا". وعليه أمرت الخدم بحملها إلى بيت أنطونيو.

وفى اليوم التالى، دعت أنطونيو مرة أخرى، مع عدد كبير من قواد جيشه ورجال البلاط. وتم إعداد المائدة وعليها طاقم جديد من الأوانى الذهبية والفضية أشد روعة وجمالاً من تلك التى كانت

بالأمس ؛ وفى نهاية العشاء، والصحبة على وشك الانصراف، قامت كليوباترا بتوزيع كل هذه الكنوز بين الضيوف الذين حضروا الاحتفال. وفى وليمة أخرى من هؤلاء، وصلت بالتباهى والاستعراض إلى قمة الدهشة، فأخذت واحدة من حلقها اللؤلؤ ذي القيمة الهائلة وأذابتها فى كأس من الخل(*)، فصار شرابًا، مثلما يستخدم فى هذه الأيام، ثم شربته. وكانت على وشك فعل نفس الشيء باللؤلؤة الأخرى، عندما استوقفها بعض الرفاق، وأخذوا اللؤلؤة المتبقية.

وفى الوقت ذاته، كان أنطونيو أيضًا يضيع وقته فى الترف والمتع مع كليوباترا، فأهمل واجباته العامة، وسادت الفوضى كل شيء. وظلت فلوفيا بإيطاليا. ومنحتها شخصيتها ومكانتها نفوذا سياسيا قويا، وبذلت جهدا عظيما من أجل تدعيم موقف زوجها ومناصرة قضيته، فى ذلك الجزء من العالم. وتكبدت العناء والمخاطر التى لا نستطيع سردها هنا بالتفصيل. وكانت تكتب إلى أنطونيو باستمرار، وتتوسل إليه ليعود إلى روما مبدية له فى خطاباتها جميع هذه النقاط من الإثارة والقلق التى قد تشعر بها زوجة فى مكانها. وأثار تفكيرها فى زوجها الذى أغوته هذه المرأة بأساليبها

(*) إن اللؤلؤ، بطبيعته التى تشبه القشور فى التكوين والتركيب، قابل للذوبان فى بعض الأحماض.

الآثمة وأبعدته عنها، وقادته لهجر عائلته وزوجته وإهمال أمور هذه المكانة الهامة التى تطلبت اهتمامه فى وطنه، ثورة بعقلها تقارب الجنون. وبعد ذلك، شعر أنطونيو بخطورة الحال وقرر العودة. وهدم مسكنه فى تارسوس واتجه جنوبا نحو تاير التى كانت ميناءً وموقعًا بحريًا آنذاك. وذهبت كليوباترا معه، وكان عليهما أن يتفرقا فى تاير، وتتجه هى.إلى مصر، وهو إلى روما.

و كان ذلك تفكير أنطونيو وليس كليوباترا. فكانت تعتزم أن تأخذه معها إلى الإسكندرية. وكما كان متوقعا، عندما جاءت اللحظة الحاسمة، ربحت المرأة الجولة بالحيل والتملق والقبلات والدموع. وبعد صراع قصير بين مشاعر الحب من ناحية، والطموح والواجب من الأخرى، تخلى أنطونيو عن المعركة. وترك كل شيء وسلم نفسه إلى سلطان كليوباترا، وذهب معها إلى الإسكندرية. وقضى الشتاء هناك، مستسلما وإياها إلى كافة ضروب الملذات الحسية التى يمكن للفجور الشديد أن يجيزها والثراء الفاحش أن يبيحها.

وفى الواقع، يبدو أنه لم يكن هناك حدود للانفلات والمغالاة التى أبداها أنطونيو أثناء الشتاء فى الإسكندرية. وكرست كليوباترا نفسها له طوال الوقت، ليلا ونهارا، وملأت كل لحظة بشكل جديد من المتعة، حتى لا يجد وقتا للتفكير فى زوجته الغائبة، أو يستمع لصوت تأنيب ضميره. ومن جانبه، سلم أنطونيو نفسه ضحية واعية لهذه

الخدع، وأدخل قلبه فى آلاف الخطط من البهجـــة والقــصف الــذى ابتكرتها كليوباترا. وكان لكل منهما مسكن منفصل بالمدينـــة ينفــق مبالغ هائلة، وكانوا يقومون بالإعدادات ليكون كل منهما ضيفا للآخر بالتناوب. ويقضون هذه الزيارات فى الألعاب، والرياضة، والمشاهد المسرحية، والولائم، والشراب، وشتى أنـــواع القــصف والــشذوذية والتجاوزات.

وهناك مثال غريب يبرز الدور الــذى تلعبــه الــصداقة فـــى الحصول على أخبار تتعلق بالمشاهد والأحداث الخاصـــة فـــى هـــذه الآونة، فى حادثة وقعت بقصر أنطونيو. فيبدو أنه كان هناك شـــاب يدرس الطب بالإسكندرية فى هذا الشتاء يدعى فيلـــوتس، وحـــدث، بطريقة أو بأخرى، أنه تعرف على أحد خدم أنطونيو، وهو طبـــاخ، وتحت إشراف هذا الطاهى، ذهب فيلوتس ذات يوم ليرى مـــا كـــان ليراه. فأخذ الطاهى صديقه إلى المطبخ، وكانت دهشته الكبرى عندما رأى، من بين عدد ضخم وأنواع كثيرة مما تم إعداده، عـــدد ثمـــان خنازير برية تشوى على النار، وقد سبقها الكثيـــر والكثيـــر. فـــسأل فيلوتس عن الضيوف العظام الذين سيتناولون هـــذا العـــشاء، فتبـــسم الطاهى لهذا السؤال، وأجاب أنه ليس هناك ضيوف علـــى الإطـــلاق سوى رفاق أنطونيو المعتادين. وقال الطاهى مفسرًا: " لكننا دائمًا ما نلتزم بإعداد العديد من هذه الموائد، حتى تكون جـــاهزة تباعًـــا فـــى ساعات مختلفة، حيث لا يمكن لأحد أن يعلم فى أى ساعة ســـيطلبون تقديم المائدة. وفى بعض الأحيان، عند إعداد العشاء وتقديمـــه، فـــد

ينشغل أنطونيو وكليوباترا فى نوبة جديدة من اللهو، وينصرفون عن المائدة ولا يجلسون عليها، وعليه فلا بد أن نأخذ العشاء ونأتى بغيره فى الحال."

وفى ذلك الحين، كان لأنطونيو ابن يقيم فى الإسكندرية، وهو ابن فلوفيا ويدعى، مثل والده، أنطونيو. وكان كبيرًا بما يكفى كى يشعر بشيء من الخزى تجاه انصراف والده عن واجباته، وأن يبدى اهتماما بحقوق وشرف والدته. وبدلا من ذلك، سار على نهج والده وحذا حذوه، ولكن على طريقته الخاصة، فكان مندفعا ومبذرا مثله. وكان قد تم تعيين فيلوتس، الذى سبق الإشارة إليه، فى أحد الوظائف فى منزل أنطونيو الصغير، وكان معتادا على الجلوس معه على مائدته ومشاركته فى حفلاته المخمورة التى تتسم بالقصف والإسراف فى الشراب. ويروى أنه ذات مرة أثناء احتفالهم بولائمهم معا، حضر ضيف وكان طبيبا يتسم بالغرور والغطرسة، وكان ثرثارًا لدرجة أنه لا يعطى أحدًا غيره الفرصة للحديث، فأفسد عليهم كل متع الحديث بثرثرته المغالى فيها. ومع ذلك، أثار فيلوتس حيرته الشديدة بسؤال فى المنطق - يشبه هذه التى كانت محل جدل وإثارة فى الأيام القديمة - جعله يصمت لفترة. وأسعد أنطونيو الصغير ذلك الفعل، حتى أنه أعطى فيلوتس كافة الأطباق الذهبية والفضية التى كانت على المائدة، وأرسل جميع الأصناف لمنزله عقب انتهاء الاحتفال. وأخبره بأن يضع عليها ختمه وطابعه ويحتفظ بها فى صندوق مغلق.

وكان السؤال الذى حير الطبيب المتغطرس هو. رغم أنه يفترض منطقيًا أنه فى مثل هذه الأيام، أن الماء المثلج فى الحمى يعد خطيرًا جدًا، عدا فى بعض حالات محددة، يكون تأثيره فيها جيدًا. وجادل فيلوتس كما يلي: فى حالات لنوع محدد من الأفضل إعطاء الماء المثلج لمريض حمى الملاريا. وكل حالات حمى الملاريا من نوع محدد؛ ولذلك فمن الأفضل إعطاء المريض الماء فى كل الحالات. وعندما جادل فيلوتس الطبيب بهذه الطريقة، تحدى الطبيب فى اكتشاف المغالطة بها؛ وبينما جلس الطبيب حائرا يحاول فك اللغز، نعمت المجموعة بفترة راحة مؤقتة من ثرثرته الزائدة.

ويضيف فيلوتس فى سرده لهذا الأمر، أنه قام بإعادة الأطباق الفضية والذهبية إلى أنطونيو الصغير مرة أخرى، خشية أن يحتفظ بها. وقال أنطونيو إنه كان عليه أن يقوم بذلك، لأن العديد من هذه الأوانى ذات قيمة كبيرة نظرا لندرتها والأعمال اليدوية الفريدة بها، وربما يفتقدهم والده ويود الاستفسار عن أمرهم.

وحيث إنه لم يكن هناك حدود للمتع الرفيعة الفخمة التى انصرف إليها أنطونيو وكليوباترا من جهة، فلم يكن هناك أى منها بالنسبة للمتع الدنيئة والوضيعة التى تميزوا بها من الجهة الأخرى. ففى بعض الأحيان، فى منتصف الليل، وبعد قضاء ساعات طويلة من القصف والعربدة بالقصر، كان أنطونيو يتنكر فى زى عبد، ويخرج إلى الشوارع، وهو ثمل، يبحث عن مغامرة يقوم بها. وفى

بعض الأحيان، كانت كليوباترا نفسها تتنكر مثله وتخرج معه. وفي أثناء هذه المغامرات، كان أنطونيو يستمتع بخوض كافة أنواع المصاعب والأخطار - بالعربدة فى الطرقات، وممارسة رقصة البرولة وهم سكارى، وإثارة المعارك مع العامة - وكل ذلك من أجل أن تستمتع كليوباترا وهو أيضًا. وكان يتداول الناس قصص هذه المغامرات، فيعجب البعض بشخصية الزائر غير المألوفة الحرة الجامحة، ويحتقره البعض لكونه أميرًا يحط من قدره لمستوى البهائم.

واتسمت بعض المتع ووسائل اللهو التى مارسها كل من أنطونيو وكليوباترا بالبراءة فى ذاتها، رغم أنها لا تستحق أن تكون عملا جديرا بالذكر فى حياة شخصيات يقع على عاتقهم واجبات عظيمة بصفة شرعية. فكانوا يقومون برحلات نيلية، وينظمون حفلات ممتعة للخروج إلى مياه الميناء والمناطق الريفية المختلفة بأرجاء المدينة. وذات مرة، خرجوا فى قارب للصيد فى الميناء. ولم يحالف أنطونيو الحظ ؛ وشعر بالحزن لأن كليوباترا ستشاهد سوء حظه، فعقد اتفاقا سريا مع بعض الصيادين بأن يقوموا دون أن يراهم أحد بالغوص تحت الماء وتثبيت الأسماك في صنارته تحت الماء. وبهذه الخطة قام بصيد سمك كبير وجيد بطريقة سريعة. ومع ذلك، كانت كليوباترا يقظة جدا لدرجة أنه لا يمكن خداعها بسهولة بمثل هذه الحيلة، ولاحظت الخطة، ولكنها تظاهرت بعدم ملاحظتها؛ وعبرت عن دهشتها وسرورها الشديد بحظ أنطونيو الجيد ومهارته الفائقة.

وفى اليوم التالى، أرادت كليوباترا الذهاب إلى الصيد مرة أخرى، وعليه تم إعداد العدة كما سبق فى اليوم السابق. ومع ذلك، اتفقت سرًا مع صياد آخر ليقوم بالذهاب إلى السوق وشراء سمك مملح ومقلى، وينزل تحت القارب ويعلقه بالصنارة، قبل أن يأتى الصيادون الذين اتفق معهم أنطونيو. ونجحت الخطة، وسحب أنطونيو صنارته، وهو وسط جماعة كبيرة كانت تشاهده فى بهجة، وكان بها سمك مستورد مملح ومقلى، وعلم الجميع أن هذا الصنف تم شراؤه من السوق. وكان من نوع يتم استيراده من آسيا الصغرى، وعلا صوت الضحك والمرح بجميع القوارب، والمياه المحيطة بهم، أثر الواقعة.

و فى الوقت ذاته، بينما كان أنطونيو يقضى وقته فى الملاحقة الوضيعة والحقيرة للمتع الآثمة فى الإسكندرية، وبعد أن استنفذت زوجته فلوفيا كافة الوسائل لإقناع زوجها بالعودة إليها وأصبحت يائسة، اتخذت إجراءات لإثارة حرب، اعتقدت أنها ستجبره على العودة. وتمكنت فلوفيا بالقوة الرائعة والنفوذ والمهارة التى تتسم بها من إنجاز هذا العمل بطريقة فعالة. فأعدت جيشا، وأقامت معسكرًا، وتولت قيادة الجنود، وأرسلت إلى أنطونيو تخبره بالمخاطر التى تهدد قضيته كما أنذرته بشدة. وفى الوقت نفسه، جاءت أنباء بكارثة كبيرة بآسيا الصغرى تنذر بعصيان المقاطعات الخاضعة لقيادته. ورأى أنطونيو أنه لابد أن ينتشل نفسه من التعويذة التى أسرته، وينفصل

عن كليوباترا، وإلا سيندمر تمامًا بشكل يتعذر معالجته. وعليه، بـذل جهدًا شديدًا ليكون حرا. وودع الملكة وركـب سـفينة علـى رأس أسطول من السفن الشراعية، وأبحر إلـى تـاير، تاركـا كليوبـاترا بقصرها تشتاط غضبا، وتنتابها خيبة الأمل والغم.

الفصل الحادى عشر

موقعة أكتيوم

افتقدت كليوباترا أنطونيو، منذ رحيله عنها كما أشرنا في الفصل السابق، لمدة عامين أو ثلاثة. وفى أثناء هذه الفترة، اجتاز أنطونيو العديد من المصاعب والمخاطر والمشاهد الحاسمة، ورغم ذلك، لايمكننا وصفها هنا بالتفصيل. وامتلأت حياته، أثناء هذه الفترة، بالإثارة والأحداث المتتالية، وعلى الأرجح أنه قضاها في تناوب الفكر ما بين الندم على ما مضى والقلق من ما هو آت.

فعندما نزل بتاير، كان متحيرا، فى بادئ الأمر، فى الاختيار بين الذهاب إلى آسيا الصغرى أو إلى روما. فكانت الحاجة إلى وجوده فى كليهما أمرا ملحا. فالحرب التى أثارتها فلوفيا إنما نجمت عن منافسة أوكتافيوس وتعارض مصالحه مع مصالح زوجها. وأغضب أنطونيو ما فعلته من التدخل فى شئونه بمثل هذه الطريقة والتسبب فى إثارة حرب. وبعد ذلك التقى أنطونيو بفلوفيا فى أثينا. وكانت قد تراجعت إلى هذه المدينة، وكانت تعانى من إعياء شديد هناك، إما نتيجة لمرض عضوى، أو من تأثير قلقها وحزنها الذى دام

طويلاً والأخطار التى تعرضت لها. ودار بينهما لقاء عاصف. فلم يكن أى منهما يميل للتغاضى عن أخطاء الآخر أو إبداء الرحمة تجاهه. فتركها أنطونيو بوقاحة وقسوة، بعد تعنيفها بشدة. وبعد فترة وجيزة، غمرها حزن وأسى شديد حتى توارت فى التراب.

وأظهرت حادثة وفاة فلوفيا النفع الذى عاد على أنطونيو. ففتحت طريقا للتصالح بينه وبين أوكتافيوس. حيث كانت فلوفيا تعارض أهداف أوكتافيوس، وتعد خططا لمقاومته. وعليه كان يشعر بالعداء تجاهها. وبالتالى، تجاه أنطونيو. وقد توفيت الآن فتمهد الطريق للتصالح.

وكانت أوكتافيا، شقيقة أوكتافيوس، زوجة لقائد رومانى يدعى مارسيلس. وكانت تتميز بجمالها وكياستها، وروحها التى تختلف عن فلوفيا. فكانت رقيقة، وعاطفية، وحنونة، ومحبه للسكينة والتوافق، ولم تكن تسعى، مثل فلوفيا، لبسط هيمنتها على الآخرين بسلوكها المستبد العنيف. وقد توفى زوجها فى هذة الفترة، وأثناء التفاوض بين أنطونيو وأوكتافيوس، تم اقتراح مشروع زواج إنطونيو وأكتافيا، اعتقادا بأنه سوف يدعم ويوطد التصالح. وأخيرا تمت الموافقة على هذا الاقتراح. وبلغت سعادة أنطونيو ذروتها بأن وجد طريقا سهلا لتذليل مصاعبه. وحيث إن شعب روما، أيضا، والسلطات هناك، يعلمون أن السلام فى العالم يعتمد على التوافق بين هذين الرجلين، فكانت هناك رغبة شديدة فى إتمام هذا الزواج. وكان هناك قانون

بالكومنولث ينص على تحريم زواج الأرملة لفترة محددة من وفاة الزوج. ولم تكن هذه الفترة قد انقضت بعد بالنسبة لأوكتافيا. وكانت هناك رغبة شديدة بألا تحول أى عقبة دون إتمام هذا الاتحاد أو حتى تأجيله، فتم تعديل هذا القانون من أجل هذه الحالة، وتم زواج أنطونيو وأوكتافيا. وانقسمت الإمبرطورية بين أنطونيو وأوكتافيوس، وتسلم أوكتافيوس الجزء الغربى، وحصل أنطونيو على الجزء الشرقى.

ولم يكن من المتوقع أن يشعر أنطونيو بأى عاطفة قوية تجاه زوجته الجديدة رغم جمالها ولطفها . فلابد لرجل خاض حياة كهذه مثل أنطونيو، أن يصبح غير قادر على خوض أى علاقة عفيفة قوية فى ذلك الوقت. ومع ذلك، فكان سعيدا بالشيء الجديد الذى حصل عليه، وبدا عليه نسيان كليوباترا لفترة من الوقت. ومكث مع أوكتافيا لمدة عام، ثم رحل بعد ذلك لمهمة عسكرية أبعدته عنها لبعض الوقت، ثم عاد ورحل مرة أخرى. وطوال هذة الفترة، كانت أوكتافيا تلعب دورا مفيدًا وبارزًا فى علاقته بأخيها، فأزالت ما بينهما من عداء وهدأت من الشك والغيرة داخلهم. وذات مرة، بينما أشرفا على اندلاع حرب بينهما، فلم تأل أوكتافيا جهدًا من أجل إتمام تصالح بينهما، بكل ما تمتلك من شجاعة وقوة، ومن لطف وتواضع فى نفس الوقت. ففى أثناء هذا الخطر، كانت مع زوجها فى اليونان؛ ولكنها أقنعته بأن يرسلها إلى أخيها فى روما، قائلة إنها يمكنها تسوية

الخلافات الوشيكة الوقوع. فسمح لها أنطونيو بالذهاب، وتوجهت إلى روما، وأعدت للقاء أخيها فى حضور وزيرى الدولة. وأخذت تدافع عن موقف زوجها والدموع بعينيها ؛ فدافعت عن أفعاله، وبررت ما كان ضده. وتوسلت إلى أخيها بألا يسلك هذا الطريق الذى من شأنه تحويلها من امرأة سعيدة إلى أخرى تعيسة. وقالت: " ضع ظروفى نصب عينيك، وتذكر أننى موضع أنظار العالم، فأقوى رجلين فى العالم، أحدهما زوجى والآخر أخى. فإذا ما فتحت الطريق للمداولات وقمت بمواصلة الحرب، فأنا من سيدفع الثمن، فأى منكما سيهزم، زوجى أم أخى، فستهزم معه سعادتى للأبد".

وكان أوكتافيوس شديد الحب والإخلاص لأخته، فهدأ ولان بتوسلها إليه حتى أنه وافق على تحديد موعد لمقابلة أنطونيو لإعادة النظر فيما بينهما، وبحث إمكانية تسوية الأمور. وعليه، انعقد اللقاء، ووصل كلاهما إلى نهر، وصعد كل منهما على قارب، من عند أحد ضفتيه المتقابلتين، وأخذ يجدف نحو الآخر حتى التقيا بمنتصف النهر. وبدأ اللقاء، الذى تم فيه تسوية كافة الأمور، لمرة على الأقل، بسعادة.

ومع ذلك بدأ أنطونيو يمل زوجته ويشتاق إلى كليوباترا مرة أخرى. فترك أوكتافيا فى روما واتجه إلى الشرق بحجة أنه ذاهب لمباشرة شئون هذا الجزء من الإمبرطورية ؛ ولكن، بدلا من أن يفعل ذلك، ذهب إلى الإسكندرية، وهناك أعاد الود السابق مع ملكة مصر.

وأسخط هذا الأمر أوكتافيوس بشدة. وتجدد عداؤه لأنطونيو، الذى كان قد هدأ نوعا ما بفضل أوكتافيا، وازداد غضبه لشعوره بظلم شقيقته. وثار الرأى العام فى روما أيضا على أنطونيو. وكتب فيه هجاء لاذع لتحقيره هو وكليوباترا، وتم إدانة تصرفه بقسوة. وأحب العالم أوكتافيا، فزاد شعور التعاطف معها فى كل مكان من السخط العام تجاه ذلك الرجل الذى أساء إلى هذه الحلاوة، واللطف، والإخلاص لمثل هذة المرأة.

وبعد قضاء فترة من الوقت بالإسكندرية، وتجديد علاقته وقربه من كليوباترا، رحل أنطونيو مرة ثانية، وعبر البحر إلى آسيا، عاقدا العزم على القيام ببعض المهام العسكرية التى تتطلب رعايته بصورة ملحة هناك. وكانت خطتة أن يعود إلى مصر على وجه السرعة عقب إنجاز الهدف من حملتة. ومع ذلك، وجد أنه لايتحمل حتى الغياب المؤقت عن كليوباترا. وانشغل باله بها بشدة، وبالمتع التى عاشها معها بمصر، واشتاق لرؤيتها مرة أخرى، حتى أنه صار لا يقدر على أداء واجباته بالمعسكر. وأصبح جبانًا، وكسولاً، وغير كفء، وكل عمل يباشره ينتهى بكارثة. وصار الجيش، الذى يعى سبب خمول قائده وعدم محالفة الحظ له، ناقما على تصرفاته، وامتلأ المعسكر بالهمهمة والشكاوى. ومع ذلك، أغمض أنطونيو عينيه، كأى شخص فى موقفه، عن كل هذه الإيماءات التى تدل على عدم الرضا؛ وتظاهر بأنه لا يبالى، إذا ما لاحظها. وعندما اكتشف أنه لم يعد

يتحمل غيابه عن عشقيته، زحف عبر البلدة، فى ذروة الشتاء، إلى شاطئ البحر، عند مكان كان قد أرسل إلى كليوباترا لتلحق به هناك. وتحمل الجيش مصاعب لا توصف، وتعرض لعوامل جوية قاسية ومخاطر فى هذه المسيرة. وعندما بدأ الرحلة، كان لا يصبر على السير حتى أنه أمر جنوده بالتقدم بسرعة تفوق ما تتحمله قوتهم، إلى جانب عدم إمدادهم بالخيم المناسبة أو بالمؤن الملائمة. وعليه، فكانوا غالبا ما يضطرون للمبيت بالعراء بين الجبال ليلا بعد مسيرة مضنية وطويلة أثناء النهار، ومعهم القليل من الموارد لتهدئة جوعهم، ووقاء ضئيل من برد الشتاء أو من العواصف الجليدية. وتوفى فى هذه المسيرة ثمانية آلاف رجلٍ بسبب البرد القارس والتعرض للعوامل الجوية والأخطار ؛ تضحية أعظم، ربما، من أن تكون قد سبق حدوثها من قبل لمجرد حماس وشوق لعاشق متلهف للقاء عشيقته.

وعندما وصل أنطونيو إلى الشاطئ، تقدم إلى ميناء بحرى، بالقرب من سيدون كان قد اتفق مع كليوباترا على النزول به. وقد بقى معه جزء صغير من الجيش وكانوا فى حالة معدمة وبائسة. وكلما اقترب الموعد، ازداد شوق أنطونيو لرؤية كليوباترا. ولم تأت بالسرعة التى توقعها، وأثناء ذلك بدا عليه الضعف والهزل وهو ينتظرها فى حالة من الحب والحزن. وكان صامتا، وشارد الذهن، وحزينًا. ولا يشغل باله بأى شيء سوى مجيء كليوباترا، ولا يولى اهتماما لأى شيء غير ذلك. فكان يرتقبها طوال الوقت، وفى

بعض الأحيان، كان يترك مكانه على المائدة أثناء تناول العشاء، ويذهب بمفرده إلى الشاطئ حيث يقف محملقا فى البحر، وهو يقول لنفسه بحزن شديد: "لماذا لم تأت؟". وأثارت هذه الأشياء البغض والسخرية الشديدة تجاهه، من قبل الجيش ؛ ولكنه كان متيما تماما لدرجة أنه لم يكترث بما يبديه الرأى العام من حوله. واستمر فى تعظيم فكرة واحدة داخل ذهنه وهى مجيء كليوباترا.

و أخيرًا وصلت. وأحضرت معها مخزونًا كبيرًا من الملبس والأشياء الضرورية الأخرى اللازمة لجيش أنطونيو، ولذلك لم يكن مجيئها تمجيدًا لحبه فقط، بل نجدة ضرورية أيضا للمصاعب العسكرية التى تعرض لها.

وبعد أن قدمت له كليوباترا جرعة السعادة ليرتشف منها لبعض من الوقت الذى قضته برفقته، بدأ أنطونيو يفكر مرة أخرى فى شئون حكومته، التى كانت تطلبت اهتمامه بصورة ملحة شهرا تلو الآخر. وبدأ يتلقى استدعاءات من مواقع مختلفة، تحثه على التحرك. وفى الوقت ذاته، قررت أوكتافيا - التى كانت وهى تنتظره فى قلق وحزن بروما، تستمع للقصص المشينة لعلاقات زوجها طوال الوقت، والأخبار المخزية بشأن حبه وتعلقه الشديد بكليوباترا - أن تقوم بمحاولة أخيرة لإنقاذه. وتوسلت إلى أخيها أن يسمح لها بتعبئة الجنود والتجهيزات، والاتجاه شرقا من أجل تعزيز موقفه. ووافق أوكتافيوس على ذلك. وعاونها فى إعداد عدتها. ومع ذلك، قيل إنه

ساهم فى هذه الخطة لإيمانه القوى بأن هذه المحاولة الشريفة من جهة شقيقته لإصلاح زوجها ستبوء بالفشل، وعندئذ يكون أنطونيو المخطئ، فى تقدير الشعب الرومانى، بصورة مطلقة ولا أمل فى إصلاحه للأبد، مما يمهد الطريق لتدميره النهائى والتام.

وأسعد أوكتافيا معاونة أخيها لها فى مهمتها، أيا كان دافعه الذى أقنعه للقيام بذلك. وعليه، قامت بحشد جمع كبير من الجند، وجمع مبالغ هائلة من المال، إلى جانب الملبس، والخيم، وتجهيزات عسكرية أخرى للجيش. وعندما أعدت كل شيء، غادرت روما واتجهت إلى البحر. وبعثت رسولا إلى زوجها يخبره بمجيئها فى الطريق.

وبدأت كليوباترا تخشى من أن تفقد أنطونيو مرة أخرى، وسرعان ما بدأت تلجأ إلى الحيل المعتادة التى تستخدم فى مثل هذه الحالة، من أجل إحكام سيطرتها عليه. ولم تقل شيئا، ولكنها تظاهرت بالهزل نتيجة حزن ومعاناة غامضة. وجاهدت فى أن تبدو دائما شاردة وسط دموعها. وفى مثل هذه الحالات كانت سرعان ما تمسح دموعها، وتتظاهر بالابتسامة والسعادة، كما لو كانت تحاول أن تبدو سعيدة رغم حزنها الدفين وما تتحمل من عبء ثقيل من القلق والأسى. وعندما يكون أنطونيو بجوارها تغمرها البهجة، وتحملق به بتعبيرات من الولع والهيام. وعندما تغيب عنه، تقضى وقتها بمفردها صامتة ومكتئبة وهى تدمع ؛ وكانت تعى جيدا أن الحزن والمعاناة

التى لا يراها أحد سوف يعلم بها أنطونيو فى حينها. وأنــه لابــد أن يدرك أن ذلك كله بسبب حبها له والخطر الذى تخشاه من أن يفارقها.

وإلى جانب هذا، كان أصدقاء كليوباترا ومعاونوها الـسريون، الذين ينقلون هذه الأشياء لأنطونيو، يقومون بنقل صورة حية له عما يجرى أثناء غيابه، بهدف استمالة عقله إليها. وكانوا يمتلكون جــرأة مذهلة فى مجادلته وإقناعه بأن حقّ كليوباترا فى المطّالبة باسـتمرار أنطونيو فى حبه لها أسمى من حق أوكتافيــا. ويعللــون ذلــك بــأن أوكتافيا تزوجته وقضت معه فترة قصيرة جدا. وقد امتدت أواصــر علاقته بكليوباترا لسنوات عديدة. وأن زواجه من أوكتافيا لــم يكــن بدافع الحب بل لاعتبارات سياسية فقط، ومن أجــل إســعاد أخيهــا وإقرار وترسيخ التحالف السياسى معه. أما كليوباترا فقد وهبت نفسها له بصورة مطلقة وغير مشروطة، فقط بدافع من المشاعر الشخصية التى لم تستطع كبحها. وقد تنازلت وضحت بكل شيء مــن أجلــه. وفقدت سمعتها الطيبة، وانصرفت عن أحوال رعاياها، وجعلت نفسها موضع استهجان وتوبيخ عام، والآن تركت أرضها وجاءت لتشاركه مصيره غير المعلوم. وأنه عند النظر إلى ما قامت به من تضحيات، ومعاناة من أجله، ستكون قسوة وظلما شديدًا منه أن يهجرهــا الآن. فلن تستطيع أن تحيا بدونه، لأن روحهــا تقطــن بداخلــه. وســتذبل وتموت إن هجرها الآن.

وانزعج أنطونيو وضاق صدره بدرجة عالية عندما وجد نفسه بمأزق لا يعلم له مخرجًا. فكان واجبه، وربما رغبتـه، وبـلا شـك طموحه، وكل ما تمليه الحنكة والسياسة، تقتضى أن يضع حدا لهـذا الشرك فى الحال وأن يتجه للقاء أوكتافيا. ولكن التعويـذة الـسحرية التى كانت تقيده كانت قوية جدا لدرجة أنه لا يقوى على الفرار منها. فاستسلم لأحزان ودموع كليوباترا. وبعث رسولا إلى أوكتافيا، التـى كانت قد وصلت إلى أثينا باليونان فى ذلـك الحـين، يبلغهـا بـأن لاتواصل تقدمها أكثر من ذلك. وأرسلت أوكتافيا، التى أبـدت عـدم قدرتها على الغضب أو الحنق من زوجها، تسأله عن أمـر الجنـود، والأموال، والتجهيزات العسكرية التى أحـضرتها معهـا. فأبلغهـا أنطونيو أن تترك كل شيء باليونان. ففعلت أوكتافيا ذلك، وعادت إلى وطنها فى غاية الأسى.

وبمجرد عودتها إلى روما، أرسل أوكتافيوس، الـذى أثـارت وضاعة أنطونيو سخطه الشديد، إلى شقيقته يبلغها بأنها لابد أن تترك منزل أنطونيو وتأتى إليه. وأخبرها أن ثمة شيئًا من احتـرام الـذات يمنعها من البقاء أطول من ذلك تحت سقف مثل هذا الرجل. وأجابت أوكتافيا بأنها لن تترك بيت زوجها. وأن هـذا المنـزل هـو موقـع واجبها، مهما يفعل زوجها، وأنها ستبقى هناك. وعليه، عـادت إلـى نطاق منزلها القديم، وكرست نفسها بأسـى وصـبر ودون شـكوى لرعاية الأسرة والأبناء. ومن بين هؤلاء الأبناء كان الابن الأصـغر

لأنطونيو من زوجته السابقة فيلوفيا. وفى الوقت الذى كانت تقوم فيه أوكتافيا بواجباتها كزوجة وأم فى بيت زوجها بروما بإخلاص وتفان رغم حزنها، كان أنطونيو قد ذهب مع كليوباترا إلى الإسكندرية، وترك العنان لنفسه مرة أخرى للانغماس فى الملذات الآثمة هناك. ونالت هذه الزوجة المخلصة الجميلة إعجاب وتقدير العالم بأسره لعظمة عقلها. ومع ذلك، عادت عليها بأثر آخر استنكرته أوكتافيا بشدة. حيث أثارت شعورا قويا عاما بالسخط تجاه الكائن الوضيع الذى أبدت تجاهه هذه الشهامة الفائقة.

وفى الوقت ذاته، استسلم أنطونيو لهيمنة وسطوة كليوباترا، وأدار جميع شئون الإمبرطورية الرومانية فى الشرق بالطريقة التى تلائم الارتقاء بعظمتها وشرفها. وجعل الإسكندرية عاصمة له، واحتفل بموكب انتصاراته هناك، وأعد حملات للتباهى والتفاخر فى آسيا وسوريا بكليوباترا وموكبها، ومنحها مقاطعات بأكملها كهدايا، ورفع ولديها الإسكندر وبطليموس- اللذين أنجبتهما فى فترة معرفته الأولى بها - لأعلى المناصب والمراتب، كولديه المعترف بهما. وكان لهذه الإجراءت وما ماثلها عواقب وخيمة لشخص أنطونيو وموقفه بروما. وأخطر أوكتافيوس مجلس الشيوخ والشعب بكل شيء، وجعل من سوء إدارته وتصرفاته المختلفه قاعدة للاتهامات القصوى ضده. وعندما علم أنطونيو بهذه الأمور، أرسل وكلاءه لروما وقام بتوجيه اتهامات لأوكتافيوس؛ ولكن هذه الاتهامات

المضاده كانت بلا جدوى. فكان الرأى العام قويا وحاسما ضده بالعاصمة، وبدأ أوكتافيوس فى الإعداد للحرب.

وأيقن أنطونيو أن عليه الدفاع عن نفسه. وقام بإعداد الخطط، وانضمت كليوباترا إليه بحماس بالغ. وبدأ أنطونيو فى تعبئة الجنود، وجمع وإعداد السفن الشراعية وسفن الحرب، وقام بطلب المال والتجهيزات العسكرية من المقاطعات والممالك الشرقية. ووضعت كليوباترا كافة الموارد المصرية تحت تصرفه. وأمدته بمبالغ طائلة من المال، ومخزون لا ينضب من الحبوب التى حصلت عليه لهذا الغرض من الأراضى الخاضعة لسيطرتها بوداى النيل، وتم إعطاء الأوامر للفيالق المختلفة للقوى الحربية الهائلة لتلتقى بافسوس، حيث كان أنطونيو وكليوباترا ينتظران وصولهم، وتوجهوا إلى هناك عندما انتهوا من إعدادهم بمصر، واستعدوا لبدء الحملة.

وعندما استعدت الحملة للإبحار من أفسوس، رأى أنطونيو أنه من الأفضل أن تعود كليوباترا إلى مصر، وتتركه يتقدم بالأسطول للقاء أوكتافيوس بمفرده. ومع ذلك، قررت كليوباترا ألاّ تغادر. ولم تكن لتتركه لنفسه على الإطلاق، خشيه أن يعقد سلامًا بينه وبين أوكتافيوس، مما يضطره للعوده إلى أوكتافيا وهجرها. وعليه، جاهدت لإقناع أنطونيو ببقائها معه عن طريق تقديم الرشوة لكبير مستشاريه حتى ينصحه بفعل ذلك. وكان يدعى كانيديوس. وعندما تلقى المال من كليوباترا، رغم تظاهره بعدم الرغبة فى نصحه،

أوضح لأنطونيو أنه لن يكون حصيفا أن يبعد كليوباترا، ويحرمها من المشاركه فى مجد الحرب بعد تحملها لذلك القدر الكبير من النفقـــات. إلى جانب أنّ جزءًا كبيرًا من الجيش يتألف من جنـــود مـــصريين، سيشعرون بتثبيط الهمة والعزم إذا ما غادرتهم كليوباترا، مما سيؤثر سلبا على أدائهم فى المعركةه بينما سيختلف الأمر إذا تواجدت ملكتهم معهم. ثم إنه لايمكن اعتبار امرأه مثل كليوباترا، كالعديد من النساء، عائقًا ومصدر قلق للحملة العسكرية التى تشترك بها، ولكن مستشارة كفئًا وعاملاً مساعدًا له. وأخبره بأنها حصيفة، ونشيطة، وملكة قوية، اعتادت قيادة الجيش وإدارة شئون الدولة، ومن المتوقـــع أن تـــؤدى مشاركتها فى إدارة هذ الحملة إلى نجاحها بشكل أساسى.

واقتنع أنطونيو بهذا الرأى بسهولة، وعليه قـــرر أن تراافقـــه كليوباترا.

وأعطى أنطونيـــو أوامـــره للأســـطول بـــالتحرك لجزيـــرة ساموس[*]. ووصل إلى مرسى ومكث هناك بعض الوقت ينتظر قدوم بعض التعزيزات الجديدة، واكتمال التجهيزات الأخرى. وكما لـــو أن أنطونيو يزداد هياما كلما اقترب من الهاوية فبينما مكثت الحملة فـــى ساموس، لم يكن يمضى وقته فى إكمال خططه وإتمـــام اســـتعدادته للمعركة الهائلة التى أشرفوا عليها، بل فى اللهو، واللعب، والقصف،

(*) انظر إلى الخريطة للتعرف على موقع افسوس وساموس.

والعربدة، والمرح الصاخب. ومع ذلك، لم يكن ذلك مثيرًا للدهشة. فغالبا ما يهرع الرجال فى مثل موقفه، إلى وسائل مماثلة، بدرجة أقل، لحماية أنفسهم من وخز الندم، والهواجس التى تقف لتخيفهم وتعذبهم فى كل لحظة تطاردهم فيها هذه الأشباح العابسة عن طريق السكر واللهو. وعلى الأقل وجدها أنطونيو كذلك. وعليه، أمر مجموعة من العازفين، والزمارين، والمهرجين، والبهلونات، والدجالين بالتجمع فى جزيرة ساموس، وتكريس أنفسهم بكل ما لديهم من عزم لتسلية حاشية أنطونيو. وصارت الجزيرة مسرحا عاما للهو والقصف. وأذهلت الناس مثل هذه الاحتفالات والعروض، حيث لم تكن ملائمة على الإطلاق، كما اعتبروها، للمناسبة. وتساءلوا فيما بينهم: إذا كان هذا هو حال الابتهاج الذى يقيمه قبل خوض المعركة، فما بال ذلك عند عودته منتصرًا ؟

وغادر أنطونيو وكليوباترا جزيرة ساموس وسط موكب عظيم من الحراس، واجتازوا البحر الإيجى، ونزلوا باليونان وتقدموا إلى أثينا ؛ بينما مضى الأسطول، أثناء تقدمه غربا من ساموس، حول تناروس، القنة الجبلية الجنوبية لليونان، ثم تحرك شمالا على امتداد الساحل الغربى لشبه الجزيرة. وتمنت كليوباترا الذهاب إلى أثينا لغرض خاص فى نفسها. ففى ذلك المكان توقفت أوكتافيا فى رحلتها لإمداد زوجها بالتعزيزات ؛ وأشفق شعب أثينا على حالها البائس، وأعجبهم روح العقل الطيبة التى أبدتها فى سوء حظها، وأولوا لها

اهتمامًا كبيرًا، وأحسنوا استضافتها أثناء إقامتها بينهم، ومنحوها العديد من الألقاب الشرفية. والآن أرادت كليوباترا أن تذهب لنفس المكان، وتنتصر على خصمها هناك، عن طريق القيام باستعراض ثرائها الشديد وعظمتها، وهيمنتها على فكر أنطونيو، فلابد من إظهار تفوقها وبهائها على ادعاءات أوكتافيا. ويبدو أنها لم تكن ترغب أن تترك للزوجة التعيسة التى جنت عليها بقسوة مجرد الحصول على مكان فى قلوب أهل هذه المدينة الغريبة، فكان لابد أن تذهب وتناضل من أجل طمس الانطباع الذى تركته البراءة المعذبة، عن طريق إظهار النجاح المبتهج بالنصر لشرها المخزي. ونجحت خطتها. وأثارت العظمة الهائلة التى أبدتها كليوباترا أمام شعب أثينا الذهول والحيرة. وقامت بتوزيع مبالغ ضخمة من المال بين الناس. وفى مقابل ذلك، منحتها المدينة أرفع الألقاب. وأرسلوا إليها هيئة مميزة من الدبلوماسيين لتقديمها إليها. وكان أنطونيو، فى زى أحد مواطنى أثينا، أحد هؤلاء السفراء. وتسلمته كليوباترا بقصرها. وصاحب التسليم الاحتفالات الجليلة الرائعة. وربما يذهب البعض للاعتقاد بأن العداء غير السوى القاسى لأوكتافيا قد تم إرضاؤه.

ولكن من يظن أن عداء كليوباترا غير الآدمى لأوكتافيا قد انتهى، فهو مخطئ. فبينما كان أنطونيو بأثينا، وبتحريض من كليوباترا دون شك، بعث رسولاً إلى روما يحمل إنذارًا بطلاق

أوكتافيا ويأمرها بمغادرة منزله. وأذعنت أوكتافيا لطلبه وخرجت من بيتها، وأخذت معها أبناءها، وهى ترثى قدرها القاسى بشدة.

وبينما تجرى هذه الأحداث فى الشرق، كان أوكتافيوس يعد العدة للأزمة التالية، ويتقدم الآن بأسطول قوى عبر البحار. وكان مدعما بقوة من مجلس الشيوخ والشعب الرومانى، حيث حصل منهم على مرسوم يقضى بعزل أنطونيو من سلطته. وكانت جميع الاتهامات الموجهة إليه تتعلق بسوء تصرفاته وإساءاته الناجمة عن علاقته بكليوباترا. وجاهد أوكتافيوس من أجل الحصول على وصية كان قد كتبها أنطونيو قبل مغادرة روما، ووضعها بمكان ظن أنه مكان مقدس للودائع. وعندما طلبها أوكتافيوس، أخبره القائمون عليها بأنهم لن يعطوه إياها، ولكن إذا رغب فى أخذها فلن يعترضوه. وحصل أوكتافيوس عليها وقرأها على مجلس الشيوخ.

وكانت تنص، من بين أشياء أخرى، على أنه عند وفاته، إذا توفى بروما، أن يقوموا بإرسال جثمانه إلى الإسكندرية وتسليمه إلى كليوباترا؛ وهذا يبدى، بطرق أخرى، درجة انتمائه وخضوعه لملكة مصر الأمر الذى لا يليق بقائد رومانى على الإطلاق. وتم اتهامه أيضا بسرقة المدن والمقاطعات لإهداء كليوباترا ؛ بأن أرسل إليها مكتبة مكونة من مائتى ألف مجلد من برجاموس، لتعويض تلك التى أحرقها يوليس قيصر؛ ورفع أولادها، بوضاعة مولدهم، لمناصب رفيعه ذات

مسئولية ونفوذ بالحكومة الرومانية، والإنزال من شأن قائد رومانى بتصرفاته غير المسؤولة بعودته إليها. وعندما اعتلى كرسى المحكمة القضائية، على سبيل المثال، اعتاد تلقى خطابات الحب التى ترد إليه من كليوباترا، ثم ينصرف على الفور عن النظر فى الدعاوى القضائية المقدمة أمامه من أجل قراءة الخطابات(*). وفى بعض الأحيان، كان يفعل ذلك وهو جالس على كرسى الدولة يلقى خطابا للسفراء والأمراء. وربما أرسلت كليوباترا هذه الخطابات فى مثل هذا الوقت بدافع نزعة عابثة لتبدى مدى سطوتها. وقال أوكتافيوس فى دعواه أمام مجلس الشيوخ، أنه ذات مرة بينما كان أنطونيو يستمع إلى قضية ذات أهمية قصوى، وأثناء مجرى القضية، عندما كان يخاطبه أحد المدعين المسئولين بالمدينة، مرت كليوباترا، فنهض أنطونيو فجأة، وغادر المحكمة دون أى كياسة وجرى وراءها ليتبعها.

وأظهرت هذه وآلاف القصص المماثلة أنطونيو على حقيقته البغيضة، فتخلى أصدقاؤه عن مناصرة قضيته. وانتصر أعداؤه. وصدر مرسوم ضده وتولى أوكتافيوس سلطة تنفيذه؛ وعليه، بينما كان أنطونيو وجيشه وأسطوله يتجهون غربا من ساموس والبحر الإيجى، كان أوكتافيوس يتجه شرقا وجنوب الأدرياتى للقائه.

(*) كانت هذه الخطابات، طبقا لمقياس الترف والمغالاة التى قررت كليوباترا اتباعه فى أى أمر يربطها بأنطونيو، تنقش على لوحات مصنوعة من العقيق، أو الكريستال، أو أى نوع آخر صلب من الأحجار الكريمة.

وبمرور الوقت، وعقب تأجيلات ومناورات عديدة، اقترب الجيشان من بعضهما عند موقع يسمى أكتيوم، وتوجد على الخريطة على الساحل الغربى لأبيروس، شمال اليونان. وكان لكلا القائدين أسطولان عظيمان فى البحر، وجيشان هائلان على البر. وكان أنطونيو يتفوق على أوكتافيوس بجنوده البرية ويقل عنه فى أسطوله البحرى، لذلك كان يميل لخوض المعركة الرئيسية برا. ولكن لم توافقه كليوباترا على ذلك. وحثته على خوض معركة بحرية مع أوكتافيوس. وكان الدافع وراء ذلك هو رغبتها فى تأمين طريق موثوق للفرار فى حالة النتيجة غير المرغوبة للمعركة. وظنت أنه يمكن لسفنها الفرار فى الحال عبر البحار إلى الإسكندرية فى حالة الهزيمة، بينما لم تكن تعلم كيف ستنجو إذا هزمت على رأس جيش فى البر. وحث المستشارون المتمرسون وقواد الجيش أنطونيو على ألا يثق بقوته البحرية. ومع ذلك، كان أنطونيو أصم لا يسمع لجدالهم أو اعتراضهم. فلابد أن تسود آراء كليوباترا.

وفى صباح يوم المعركة، عندما اصطفت السفن ، تولت كليوباترا قيادة فرقة مكونة من خمسين أو ستين مركبا مصرية، مجهزة بالرجال ومعدة الصوارى والأشرعة. وكانت حريصة على إتمام كل شىء إذا ما اضطرت للفرار. وبهذه السفن، اتخذت موقعا مجابها، وظلت هناك تشاهد المعركة بهدوء. وتقدمت سفن أوكتافيوس لمهاجمة أنطونيو، وحارب الرجال بعضهم من على متن السفن

بالرماح، والسهام النارية، وكافة القذائف المدمرة التى ابتكرتها فنون الحرب حينئذ. وناضل أنطونيو قدر استطاعته. ولم يكن أوكتافيوس يتفوق عليهم فى العدد فحسب، بل فى كفاءة الرجال والعتاد أيضا. ولا زال الصراع من النوع العضال. ولم تنتظر كليوباترا حتى يتم حسمه. ولأن قوات أنطونيو لم تحقق النصر سريعًا، بدأت تستسلم لمخاوفها بشأن النتيجة، وأخيرا، شعرت بالهلع وقررت الفرار. وأمرت الرجال بالاستعداد للتجديف، ورفع الأشرعة، وانطلقت فى طريقها خلال جزء من الأسطول كان منهمكا فى المعركة متسببة فى إحداث اضطرابات للمراكب أثناء مرورها، حتى نجحت فى الوصول إلى البحر ثم أبحرت جنوبًا. وبمجرد أن أدرك أنطونيو أنها تغادر، تخلى عن أى فكرة أخرى، ودفعه تعلقه الجنونى بها، فقام على وجه السرعة بطلب سفينة شراعية ذي خمس صفوف من المجاديف، وقفز على متنها، وأمر الجدافين بالتجديف بأقصى ما لديهم من قوة خلف السرية الفارة لكليوباترا.

وعندما نظرت كليوباترا خلفها، وجدت هذه السفينة السريعة تندفع تجاهها. فقامت برفع إشارة على مؤخرة السفينة التى كانت على متنها، حتى يعلم أنطونيو إلى أى من الخمسين مركبًا سيتجه. وعندما رأى الإشارة، اتجه أنطونيو إلى المركب وعاونه الجنود فى الصعود. ومع ذلك، اختفت كليوباترا. وغلبها الخزى والاضطراب، فيبدو أنها لم تجرؤ على مواجهة نظرة الضحية البائسة التى قد

دمرته حيلها الآن وإلى الأبد. ولم يبحث أنطونيو عنها. ولم يتفوه بكلمة. وتوجه لمؤخرة السفينة، وطرح نفسه أرضا بمفرده، ضاغطا وجهه بين كفيه، مذهولاً فاقدًا صوابه، يغمره الفزع واليأس.

ومع ذلك، استيقظ من غيبوبته على صوت إنذار قادم من سفينته بأنهم متبعون. ونهض من مقعده، وأمسك بحربة، ولما صعد على ذلك الجزء المخصص للضباط فى المركب الحربي، رأى عددًا من المراكب الصغيرة محتشدة بالرجال والعتاد، جاءت خلفهم لتلحق بهم، وقد بلغوا سفينته بسرعة. وبينما هو الآن حر للحظة من سيطرة الساحرة، ويتحرك بدافع جرأته وقراره، فبدلاً من أن يحث الرجال على الإسراع في دفع مجاديفهم إلى الأمام من أجل الفرار، أمرهم بتغيير اتجاه دفة السفينة، وإدارة اتجاهها، وواجه ملاحقيه، وقاد سفينته حتى صارت وسطهم. ودار صراع عنيف، وازداد الضجيج والفوضى بتصادم وتضارب المراكب والسفن. وأخيرًا، تم سحق القوارب عدا واحدة كانت لا تزال تتأرجح فوق الماء وتحوم بالقرب منهم، وكان قائدها الذى كان واقفا على متنها يوازن رمحه وهو يصوبه تجاه أنطونيو، ويتلهف فى البحث عن فرصة لإطلاقه، وبدا من موقفه وتعبيرات ملامح وجهه أنه كان يحركه شعور مرير بالعداء والبغض. فسأله أنطونيو من يكون ذا الذى تجرأ بشدة على تهديده. وأخبره الرجل اسمه، وقال إنه جاء ليثأر لأبيه. وكان ابنا لرجل قد أمر أنطونيو فيما مضى، لسبب أو لآخر، بقطع رأسه.

ودار صراع شديد بين أنطونيو وذلك المغير القاسى، انتهـــى بهزيمة الأخير. ونجحت القوارب فى الحصول على بعض الغنائم من أسطول أنطونيو، ولكنهم لم يفلحوا فى أسر أنطونيو نفسه، فكفوا عن ملاحقته وتراجعوا. وعاد أنطونيو إلى مقعده مرة أخرى فى مــؤخرة السفينة، وأخفى وجهه بين كفيه، وغرق فى نفس الحالة السابقة مــن الأسى والالم.

فعندما يغمر البلاء والمعاناة زوجًا وزوجة، يبحث كل منهمـــا عن ملاذ فى المشاركة الوجدانية والعون عند الطرف الآخر. ومـــع ذلك، فهى تختلف كثيرا فى علاقة مثل هذه التى تجمع بين أنطونيـــو وكليوباترا. فالضمير الذى يظل هادئًا وســاكنًا فـــى ظــل الــسعادة والرخاء، يستيقظ بعنف وغير متوقع بمجرد مجيء ســاعة النكبـــة ؛ ولذلك، فبدلا من العون والراحة، يجد كل منهما أفكار الآخر مجـــرد وسيلة تضيف شعور الندم المرير إلى آلام خيبة الأمل واليأس. ولذلك كانت معاناة أنطونيو شديدة، فلم ير كليوباترا أو يتحدث أى منهما إلى الآخر على مدار ثلاثة أيام. وقد غلب كليوباترا الحزن والتوتر. وكان هو فى هذه الحالة من اتقاد الذهن حتى إنها لم تجرؤ على الاقتـــراب منه. ونوجز القول، إن العقل فقد السيطرة تمامًا - فعقله، فى نوبـــات جنونية، يبلغ أحيانا اهتياجًا مخيفًا، ونوبات من الغـــضب، لا يمكـــن كبحه، ثم يغرق مرة أخرى تحت تأثير اليأس.

وشقت السفن طريقها بأقصى سرعة أسفل الساحل الغربي لليونان. وعندما وصلت تيناروس، القنة الجبلية الجنوبية لشبه الجزيرة، كان لابد من التوقف للنظر فيما يجب فعله. وذهبت وصيفات كليوباترا إلى أنطونيو في محاولة لتهدئته وطمأنته. وأحضرن له الطعام. وأقنعوه بأن يرى كليوباترا. وتجمع عدد كبير من سفن التجار بالموانى الممتدة على الساحل حول أسطول أنطونيو القليل وعرضوا خدماتهم. وقالوا إن قضيته، بكل المقاييس ميئوس منها. فجيش البر لم يهزم، وليس يقينا أن أسطوله قد قهر. وهكذا حاولوا إحياء الشجاعة الغارقة للقائد المدمر، وحثه على القيام بمحاولة جديدة واستعادة مصائره. ولكن كان ذلك كله بلا جدوى. فقد غرق أنطونيو فى قنوط بالغ. وأصرت كليوباترا على الذهاب إلى مصر، ولابد أن يذهب هو أيضا. وقام بتوزيع ما تبقى تحت تصرفه من ثروات بين رفاقه المصريين وأصدقائه، ونصحهم بالوسائل لإخفاء أنفسهم حتى يتمكنوا من عقد تصالح مع أوكتافيوس. ثم تركهم جميعا كالتائه بعد فقد كل شيء، وتبع كليوباترا عبر البحار إلى الإسكندرية.

الفصل الثانى عشر

نهاية كليوباترا

يجسد لنا مارك أنطونيو في هذه الواقعة أحد النماذج الاستثنائية التى سجلها التاريخ فى قوة الحب غير المشروع، وكيف يقود هذا الحب ضحيته المتيمة المخدوعة للدخول إلى فك الدمار التام الذى لامناص منه. وقد تقع آلاف الحالات المماثلة فى الحياة اليومية ؛ ولكن أنطونيو، رغم أنه قد لا يكون أكثر الحالات إثارة للجدل فى ذاته عن العديد من الآخرين، يعد أبرز النماذج التى تعرضت لحكم الرأى العام.

ففى الفترة الأولى من حياته، كان أنطونيو يتسم، كما رأينا، بشخصيته الفظة غير المهذبة، وإرادته الشديدة التى لا تقهر، لدرجة جعلته يبدو مستحيلاً لأى قوة بشرية أن تمتلك القدرة على ترويضه. وكان يهيمن عليه طموح رفيع وعظيم لا يعرف حدودًا. ومع ذلك، نجده، فى الفترة الوسطى من حياته، وهو فى أوج ازدهاره ونجاحه، يقع فى أسر امرأة تهيمن عليه بحيلها وسحرها، فيهب نفسه لسطوتها، ويطوع ذاته للانقياد تبعا لإرادتها. فانتزعت كل ما يمكن أن يوصف بالنبل والكرم من قلبه، واستبدلته بمبادئها الخاصة من الحقد والقسوة.

وأخمدت لهب الطموح الذى كان عظيما فى أهدافه لدرجة أن العالم كاد يكون محدودا لاستيعابه، وبدلا من الحب النبيل، ملأت روحه بحب الشهوات الدنيا البغيضة والأشد وضاعة. وجعلته يخون الأمانة العامة، وينصرف عن مراعاة أبناء وطنه، ويقاوم عطف وإخلاص زوجته الجميلة الوفية بقسوة، ويقوم بطردها هى وجميع أفراد عائلته الحقيقية من منزله ؛ والآن، وأخيرا تقوده إلى فرار شديد الوضاعة والجبن من موقع واجبه كجندى فى المعركة – ورغم أنه كان يعلم، طوال الوقت، أنها تعجل بصعوده لقمة الهاوية وتقوده للدمار والخزى، إلا أنه كان مسلوب الإرادة تماما لا يملك القوة للفرار من سطوة القيود المكبل بها ولا يكاد يراها.

وأثار الموقف المشين لأنطونيو فى تخليه عن أسطوله وجيشه بموقعة أكتيوم السخط العام فى ذلك الجزء الخاضع لولايته من الإمبراطورية. ولم يكن هناك ما يمكن أن يبرر مثل هذا الفرار. فلم يلحق بجيشه، ذى القوة الهائلة، أى ضرر، ولم يهزم أسطوله بعد. ورغم خيانة قائدهم، استأنفت السفن المعركة حتى دخول الليل. ومع ذلك، تم قهرهم. وأيضا ثبطت همة الجيش، ولم يعد هناك ما يحفزه على المقاومة، وخضع مستسلما هو الآخر. وفى فترة وجيزة جدا، سقط البلد بأكمله وآل إلى أكتافيوس.

وعند عودة كليوباترا وأنطونيو إلى مصر، مكثا سويا يملؤهما الرعب. وأعدت كليوباترا خطة للحصول على كافة الثروات التى

يمكنها جمعها، وعددا محدودًا من السفن الشراعية تكفى لنقل هذه الثروات وجماعة من الرفاق عبر برزخ السويس ثم تنطلق إلى البحر الأحمر، حتى تتمكن من الفرار فى هذا الاتجاه، وتجد مكانا نائيًا على الشواطئ العربية أو الهند تختبئ به بعيدا عن سطوة أكتافيوس المروعة. وبالفعل شرعت فى تنفيذ خطتها، فأرسلت اثنين من سفنها الشراعية عبر البرزخ ولكن العرب قاموا بالإمساك بهم فور وصولهم إلى المكان المقصود، وقتلوا وأسروا الرجال الذين كانوا على متنهما. وباءت خطة كليوباترا بالفشل. وأخيرا، توصلت بالاتفاق مع أنطونيو إلى ضرورة ترسيخ أنفسهم بالإسكندرية. وإعداد أنفسهم، قدر المستطاع، فى حالة هجوم أكتافيوس هناك.

وعندما زالت آثار هلع أنطونيو، بدأ يجن جنونه ويشتاط غضبا وحنقا تجاه جميع البشر. ووجد أنه ليس لديه ما يقوم به مع كليوباترا أو مع أى من أقرانها، فاستسلم لنوبة من الغضب الشديد، وأقام صومعة فى مكان منعزل بجزيرة فاروس، وعاش بها لفترة، وهو يلعن حماقته ويسب قدره البائس ويقذف كل من له صلة به. وكانت تأتيه الأنباء بصفة مستمرة، تخبره بارتداد جيوشه واحدًا تلو الآخر، وسقوط مقاطعاته باليونان وآسيا الصغرى، والتقدم الساحق لأكتافيوس لبسط نفوذه على العالم. مما زاده غضبا وحنقا.

و فى النهاية، صار أنطونيو متعبا من عزلته وبغضه للبشر، وحدث نوع من التصالح بينه وبين كليوباترا فعاد إلى المدينة والتحق

بكليوباترا مرة أخرى وأخذا يجمعان ما تبقى من مواردهما المشتركة، وفى محاولة عابثة منهما للتخلص من المخاوف التى انتابتهما مما يخفيه القدر والندم الشديد الذى تملك منهما، عادا للانغماس فى حياة الملذات والرذيلة مرة أخرى. وانضم إليهما جماعة من المعربدين يتسمون، مثلهم، بالانحلال، وجاهدوا بشدة لإخفاء قلقهم فى بهجتهم الاضطرارية المصطنعة. ورغم ذلك، لم يتمكنا من تحقيق هذا الغرض. حيث كان أكتافيوس يواصل تقدمه تدريجيا، وهم يعلمون جيدًا أن وقت تصفية حسابه الثقيل معهما آت لا محالة. ولا يوجد مكان على سطح الأرض يمكنه أن يعصمهما من عدائه الانتقامى.

وانتاب كليوباترا شعور داخلى مخيف بما يمكن أن يؤول إليه مصيرها. فأخذت تلهى نفسها بدراسة طبيعة السموم - ليس نظريا ولكن عمليا - وتقوم بإجراء التجارب على الأسرى والسجناء البؤساء، لترى - هى وأنطونيو - الآثار التى تنجم عنها. وقامت بعمل توليفة من جميع السموم التى تمكنت من الحصول عليها واختبرت جرعات منها جميعا، حتى تعلم أيها أبطأ وأيها أسرع وأيًّا منها يسبب معاناة وآلامًا أكثر، ومن ناحية أخرى أيها يخدر وأيها يصعق الجسد، وبالتالى ينهى الحياة بأقل معاناة من الألم. ولم تقتصر هذه التجارب على السموم النباتية وغير العضوية التى يمكن خلطها بالطعام أو اختبارها بجرعات. حيث انتبهت كليوباترا إلى الآثار

السامة للدغ الأفاعى والزواحف. وحصلت كليوباترا على نماذج من هذه الحيوانات وقامت بتجربتها على السجناء طرفها، فجعلتهم يلدغون بها لترى آثارها الفعلية. ولم تكن تجرى هذه الأبحاث للقيام بأى تجربة عملية مباشرة من المعرفة التى اكتسبتها، ولكن لتشغل بالها وتسلى أنطونيو وضيوفه. ولكنها أيضا كانت تجد المتعة فى اختلاف الشكل والتعبير الذى يصدره الضحايا الذين يتعذبون بالسم – الالتواء والصراخ والتشنج وتشويه ملامحهم عند مجابهة الموت – فكان ذلك يمدها بالنوع ودرجة الإثارة التى تحتاجها لتشغل وتسلى بالها.

ومع ذلك، لم يكن أنطونيو مطمئنا أثناء قيامها بإجراء هذه التجارب البشعة، وامتزج غرامه الطفولى الأحمق لكليوباترا بالغيرة والشك وعدم الثقة ؛ وكان يخشى أن تدس له السم سرا حتى أنه قرر ألا يتناول أى طعام أو شراب دون أن تتذوقه أمامه. وذات يوم، قامت كليوباترا بدس السم ببعض بتلات الأزهار ونسجتها فى الإكليل الذى كان سيرتديه أنطونيو على رأسه أثناء تناول العشاء. وفى منتصف الوليمة قامت بسحب أوراق الزهور من الإكليل الذى على رأسها ووضعتها فى الخمر وعرضت على أنطونيو أن يفعل ذلك بالزهور التى كانت مشبعة بلونها وعطرها المعهود على رأسه وأن يشربا الخمر سويًا. ووافق أنطونيو على ذلك العرض، وعندما أوشك

على تناول شرابه، أمسكت بيده وأخبرته أنه مسموم. وقالت: " أتعى الآن، أنه لعبث منك أن تراقبنى، فإذا كان يمكننى العيش دونك فإنه من السهل لى أن أبتكر الطرق والوسائل لقتلك ". ولكى تؤكد له صدق ما قالت، أمرت أحد الخدم أن يحتسى كأس أنطونيو. ففعل، ومات أمام أعينهم وهو يتعذب من شدة الألم.

وبذلك لم تكن التجارب التى أجرتها كليوباترا على طبيعة وآثار السموم دون نتائج عملية على الإطلاق. وتوصلت كليوباترا إلى أن لدغة الأفعى الصغيرة هى الأسهل والأقل فى الألم عند الموت. ورأت أن تأثير سم هذا الحيوان هو تسكين مركز الإحساس بالدماغ والدخول به فى سبات أو نعاس سرعان ما ينتهى بالموت دون ظهور آلام. ويبدو أنها حملت هذه المعلومة بذهنها لحينها.

وفى هذه الفترة، بدت أفكار كليوباترا تتجه فى مسارات مظلمة، فهيمنت عليها فكرة بناء نصب تذكارى وضريح لها بموقع مقدس بالمدينة. وفى الحقيقة، كان العمل فى هذا الأثر قد بدأ منذ سنوات عديدة، وفقا للعادات السائدة بين ملوك المصريين فى قيامهم بتخصيص قدر من أموالهم لبناء وتشييد مدافنهم الخاصة أثناء حياتهم. والآن شغلت كليوباترا ذهنها من جديد بالاهتمام بضريحها الخاص. وانتهت منه، وزودته بأقوى الأنواع التى تمكنت من الحصول عليها من المزاليج والقضبان، وهيئته بكل السبل للاستخدام.

وبعد أن نصب أكتافيوس نفسه سيدًا على جميع البلاد التي كانت خاضعة لسيطرة أنطونيو فيما سبق، واصل تقدمه الآن، ولم يقاومه أحد من آسيا الصغرى إلى سوريا، ومن سوريا إلى مصر. وبينما يواصل تقدمه إلى الإسكندرية، قام أنطونيو وكليوباترا بمحاولة واحدة لتجنب العاصفة التي أوشكت على الإطاحة بهما، فبعثا رسولا يطلب منه عقد اتفاقية سلام. وعرض أنطونيو، في رسالته، أن يتنازل عن كل شيء للفاتح شريطة أن يسمح له بالعودة مع كليوباترا إلى أثينا دون أن يصابا بأذى، وقضاء ما تبقى من أيامهما هناك في أمان ؛ وأن تؤول مملكة مصر إلى أبنائهما. وأجابه أكتافيوس بأنه لا يمكنه عقد أي اتفاقات مع أنطونيو، رغم أنه كان يرغب في الموافقة على أي شيء يكون مقبولا لكليوباترا. ومكث الرسول الذي عاد من عند أكتافيوس بهذا الرد لبعض الوقت في لقاء خاص مع كليوباترا. فأثار ذلك غيرة وغضب أنطونيو. وعليه، أمر بجلد الرسول البائس بالسياط وأعاد إرساله إلى أكتافيوس مرة أخرى، وجسده ممزق بالجروح من آثار السياط، ليخبره بأنه إذا كان لا يسره أن يتم معاقبة أحد أتباعه بهذه الطريقة، فيمكنه أن يثأر لنفسه بجلد أحد أتباع أنطونيو، الذي كان حينئذا، كما حدث، في سلطة أوكتافيوس.

وجاءت إلى الإسكندرية أنباء تفيد ظهور أوكتافيوس عند بلسيوم، وسقوط المدينة بقبضته. والشيء الآخر الذي كان على أنطونيو وكليوباترا استيعابه جيدًا، هو أنهم سيرونه على مشارف

أبواب الإسكندرية. ولم يكن لديهما أى وسائل لمقاومته، أو أى مكان للفرار منه. فليس ثمة شيء يفعلانه سوى الانتظار، فى رعب وذعر، للقدر المحتوم المؤكد الذى لا مناص منه الآن.

وجمعت كليوباترا كل ثرواتها وقامت بإرسالها إلى ضريحها. وكانت هذه الثروات تتألف من قدر وافر وثمين من الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، والثياب الباهظة الثمن، والأسلحة، والأوانى القيمة المتقنة الصنع، والثروات التى توارثها ملوك مصر السابقون. كما أرسلت كمية هائلة من الكتان، وما شابهه من منسوجات، ومصابيح، ومواد قابلة للاحتراق. وأودعت هذه الأشياء فى الغرف السفلى من البناء، وهى تعتزم بيأس حرق نفسها وثرواتها معا عن أن تقع بأيدى الرومان.

وواصل جيش أوكتافيوس زحفه عبر الصحراء من بلسيوم إلى الإسكندرية. وعلم أوكتافيوس، من عملائه داخل المدينة، بالإعدادات التى قامت بها كليوباترا وعزمها على تدمير نفسها وكنوزها عند الشعور بخطر وشيك للإيقاع بها. وكان لأوكتافيوس رغبة شديدة فى الحصول على هذه الكنوز الثمينة. فإلى جانب قيمتها الفعلية، فكان يود نقلها إلى روما كغنيمة عظيمة الأهمية ضمن موكب انتصاراته. وعليه، أرسل إلى كليوباترا سرًا، فى محاولة للتفريق بينها وبين أنطونيو، لكى يتسلل إلى عقلها بفكرة الصداقة وأنه لا يعتزم إيذاءها، وأنه يقوم بملاحقة أنطونيو فقط. واستمرت هذه المفاوضات من يوم

لآخر بينما يواصل أوكتافيوس تقدمه. وأخيرًا وصل الجيش الرومانى الإسكندرية وحاصرها من جميع الجهات.

وبمجرد أن قام أوكتافيوس بترسيخ نفسه بمعسكره داخل أسوار المدينة، أعد أنطونيو هجمة، وقام بتنفيذها بقوة ونجاح منقطع النظير. حيث انطلق بسرعة شديدة من أبواب المدينة، على رأس قوة كبيرة، وهاجم فرقة من فرسان أوكتافيوس، ونجح فى تشتيتهم وإبعادهم عن موقعهم. ولكن تم صد هجماته، واضطر للانسحاب إلى المدينة، وأخذ يحارب أثناء فراره حتى يرد ملاحقيه. وغمرته السعادة الشديدة لنجاح هذه المناوشة. وعاد إلى كليوباترا وملامحه تبتهج بالسعادة والحيوية، وعانقها وأخذ يقبلها، وهو بعدة الحرب ولباس المعركة، ويتفاخر بالعمل البطولى الذى قام به. وأشاد أيضا ببسالة أحد الجنود الذى خرج معه للحرب، وقد اصطحبه معه الآن للقصر ليقدمه إلى كليوباترا. فقامت بمنحه زيًا مدرعًا مصنوعًا من الذهب مكافأة له على بسالته. ورغم هذه المكافأة، ترك الرجل أنطونيو فى هذه الليلة ذاتها، وانضم للعدو. وكان ذلك ما يجول بعقول جميع أنصار أنطونيو تقريبا. حيث كانوا يرغبون فى الانضمام إلى معسكر أوكتافيوس إذا ما سنحت لهم الفرصة.

وعندما دارت المعركة الحاسمة، انسحب قدر كبير من الأسطول وانضم لجبهة أوكتافيوس مما حسم المعركة لصالحه. فبينما كان أنطونيو يرتب العمليات العسكرية ليوم المعركة، ويراقب

تحركات العدو من على ربوة عالية قرب الميناء وهو على رأس فرقة من جنود المشاة - وهى كل ما يملكه الآن من القوات البرية - لاحظ تحرك السفن الشراعية. ووجدها تتجه للقاء سفن أكتافيوس، التى كانت تقف بمرسى بالقرب منهم. وظن أنطونيو أن سفنه ستقوم بمهاجمة العدو، وانتظر ليشاهد المأثرة التى سيقومون بها. فوجدهم يتقدمون تجاه سفن أوكتافيوس.وعند لقائهم، شاهد أنطونيو بذهول تام ما لم يكن يتمناه أبدا، فبدلا من وقوع اشتباك عنيف كما توقع، أخذوا يتبادلون التحيات الودية عن طريق استخدام الإشارات البحرية المعتادة ؛ ثم التفت سفنه بهدوء واتخذوا موقعهم فى صفوف الأسطول الآخر. وهكذا اندمج كلا الأسطولين وصاروا أسطولاً واحدا.

وعلى الفور قضى أنطونيو بأن كليوباترا قامت بخيانته. واعتقد أنها قد عقدت سلاما مع أوكتافيوس، وقامت بتسليمه الأسطول فى المقابل. فانطلق يجرى فى أرجاء المدينة وهو يصيح أنه قد تمت خيانته، واتجه إلى القصر وهو فى نوبة شديدة من الغضب. وفرت كليوباترا إلى ضريحها. وأخذت معها اثنين من الأتباع، وأغلقت الأبواب وأحكمتها بالمزاليج، وقامت بتأمين الأقفال بالنوابض والمواسك التى أعدتها مسبقا. وأمرت وصيفاتها أن يذيعوا خبر وفاتها من خلف الأبواب وأنها قد قتلت نفسها داخل الضريح.

وانتقل نبأ وفاة كليوباترا إلى أنطونيو. وتحول غضبه إلى حزن ويأس. وفقد صوابه تماما واختل توازنه وقدرته على السيطرة على انفعالاته. وصاح بأشد تعبيرات الحزن والأسى، وقال، أنه لا يندب موت كليوباترا فقط، لأنه سيلحق بها على الفور، ولكن لأنها أثبتت رفعتها وشجاعتها حتى النهاية، فى انتظاره له ليلتقى بها للأبد.

وفى ذلك الحين، كان أنطونيو يقف بأحد غرف القصر، فر إليها فى يأسه، بجوار لهب من النار، حيث كان الصباح باردًا. واستدعى خادمه المقرب ويدعى آروس، وكان قد أخذ عليه عهدًا من قبل بأنه عندما يصبح قتله أمرًا لا مناص منه، فعلى أروس أن يقوم بهذه المهمة وينهى حياته. وهذا هو الأمر الذى استدعاه من أجله فقد حان الوقت، وأمره أن يشهر السيف ويقتله.

وأخذ أروس السيف بينما كان أنطونيو يقف أمامه. وأدار رأسه جانبا كما لو كان لا يريد أن تقع عيناه على ما سترتكبه يداه. ومع ذلك، وبدلا من أن يطعن سيده، قام بوخز السيف فى صدره، وسقط قتيلا عند أقدام أنطونيو.

وحدق أنطونيو بالمشهد المروع للحظة ثم قال: " أشكرك أيها النبيل آروس على هذا، وأنت كنت مثالاً لى، فلابد أن أفعل بنفسى ما لم تتمكن أنت من أن تفعله بي". ولذلك أخذ السيف من يد خادمه،

ووخزه فى جسده، وتهادى إلى مضجع صغير بالقرب منه وهو يترنح، وسقط عليه فى نشوة. وكان قد أحدث بجسده جرحا مميتا.

ومع ذلك، أحدث الوضع الذى استلقى به أنطونيو على الفراش نوعا من الضغط الذى كتم الجرح قليلا وأوقف نزيف الدم. فعاد أنطونيو لصوابه مرة أخرى وأخذ يتوسل ويستعطف كل من حوله، وهو يلفظ أنفاسه، أن يقتلعوا السيف من جسده ويخلصوه من آلامه. ولكن لم يُلَبِّ أحد رغبته، وظل يعانى من شدة الألم ويتأوه لفترة من الوقت، حتى حضر أحد الجنود إلى غرفته وأخبره أن قصة وفاة كليوباترا لم تكن حقيقية ؛ وأنها لازالت على قيد الحياة داخل ضريحها، وتود رؤيته هناك. وكان هذا النبأ مصدر سعادة بالغة لأنطونيو، والتمس من الملتفين حوله أن يحملوه إلى كليوباترا حتى يراها للمرة الأخيرة قبل أن يفارق الحياة. فجزعوا لهذه الأمر ؛ ولكن بعد شيء من التردد والتأجيل، قرروا أن يقوموا بنقله إليها. وأخذوه بين أذرعهم، وحملوه، فاقدا للوعى يحتضر، وجرحه يدمى، ويتساقط النزف ليصنع طريقا، حتى الضريح.

ولم تقم كليوباترا بفتح الأبواب والسماح لهم بالدخول. حيث كان يسود المدينة بأسرها الاضطراب والقلق بسبب الفزع من الذى أحدثه الهجوم الذى قام به أوكتافيوس، ولم تكن تعلم ما يدبر لها من مكائد. فصعدت إلى شرفة عالية، وقامت بإنزال الحبال والسلاسل، وطلبت منهم أن يشدوا وثاق الجسد الذى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة،

حتى تتمكن هى ووصيفاتها من سحبه لأعلى. ففعلوا ذلك. وقال الذين شاهدوا هذا الحدث إنه مشهد يرثى له - فكانت كليوباترا ووصيفاتها يقومون بسحب الجريح الدامى لأعلى وقد استنفذوا قوتهم، وعندما اقترب من النافذة قام بمد ذراعيه إليهن بهزل شديد حتى يمكنهن رفعه للداخل. ولم يتمكن النساء من الأخذ بذراعيه فكانت قوتهم تكفى بالكاد لسحب الجسد لأعلى. وفى لحظة كادت أن تفشل المحاولة؛ ولكن كليوباترا بسطت نفسها من
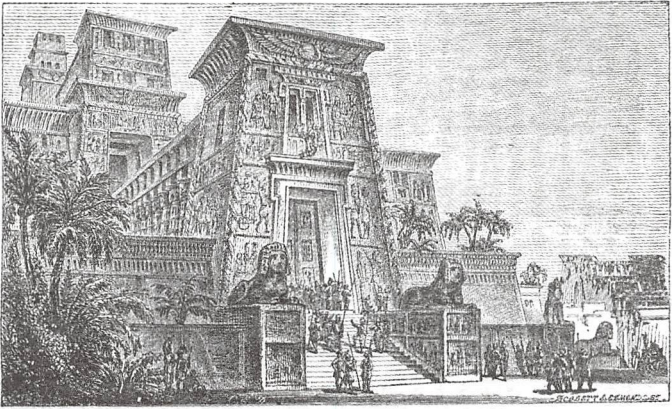
THE RAISING OF ANTONY TO THE UPPER WINDOW OF THE TOMB.

رفع أنطونيو لشرفة الضريح

النافذة بقدر ما استطاعت لتمسك بذراع أنطونيو، وبجهد بالغ تمكَّنَ من سحبه للداخل. وحملوه إلى أريكة بالغرفة العليا التى بها الشرفة، وأرقدوه هناك، بينما كانت كليوباترا تعتصر يديها المتشابكتين، وتمزق شعرها، وتتفوه بأشد كلمات العويل والنواح الثاقبة المريرة. وانحنت فوق أنطونيو وهو يحتضر وصراخها يدوى وحزنها لا يتوقف. وأزالت الدماء التى كانت تلطخ وجهه، وحاولت أن تضمد جرحه، ولكن دون جدوى.

وتوسل إليها أنطونيو أن تهدأ، وألا تنعى قدره، وطلب منهم أن يقدموا إليه بعضًا من النبيذ فأحضروه له، وشربه. ثم توسل إلى كليوباترا بأن تحافظ على حياتها، قدر المستطاع، وأن تعقد اتفاقا مع أوكتافيوس لتأمن على حياتها، وبعدها لفظ أنفاسه الأخيرة وسكن للأبد.

وعقب ذلك، علم أوكتافيوس بالجرح المميت الذى أحدثه أنطونيو بنفسه ؛ حيث قام أحد المشاهدين للموقف بأخذ السيف الذى قتل به أنطونيو نفسه وأسرع بحمله إلى أوكتافيوس ليزف إليه خبر وفاة غريمه. وعلى الفور، تمنى أوكتافيوس أن يخضع كليوباترا لسلطته. فبعث رسولاً إلى الضريح للتفاوض معها، فتحدثت إليه كليوباترا من موضع ثقب المفتاح، ولم تقتنع بفتح الباب، وعاد الرسول وأبلغ أكتافيوس بهذا الصنيع، فأرسل معه شخصًا آخر،

وبينما حاول أحدهما جذب انتباه كليوباترا ووصيفاتها من أسفل من جهة الباب، حصل الآخر على سلم، وتمكن من الصعود أعلى إلى الشرفة، وعندما شاهدته الوصيفات، تعالى صياحهن لينذرن كليوباترا بالجندى الذى ينزل من أعلى. ونظرت حولها فوجدت أنه قد تم خداعها، وأن الجندى قد جاء للإمساك بها، فقامت بسحب خنجر صغير من ردائها، وكانت على وشك وخزه فى صدرها، فأمسك الجندى ذراعها فى الوقت المناسب حتى يمنع حدوث كارثة محققة. وأخذ الخنجر من يدها، وتفحص ثيابها ليتأكد من عدم وجود أسلحة أخرى قد تكون أخفتها بها.

وعندما علم أوكتافيوس نبأ أسر الملكة، قام بتكليف جندى بتولى أمر نقلها إلى سجن قريب، وأمره أن يعاملها بكياسة، وأن يضعها تحت رقابة دقيقة ومستمرة، وأن يكون حذرا فى ألا يسمح لها بأى وسائل أو فرص تعينها على الانتحار.

وبعد ذلك استولى أوكتافيوس علي المدينة، وسار فى موكب مهيب وخيلاء على رأس جنوده. وجلس على كرسى الولاية الذى تم إعداده له على ربوة عالية بميدان عام، ويحوطه حلقات من الحراس، بينما احتشد أهل المدينة أمامه فى ثوب المتضرعين، وهم راكعون، يطلبون منه العفو والصفح عن المدينة. وتعطف الفاتح العظيم بكرم ومنحهم ما طلبوه.

وجاء إليه العديد من الأمراء والقواد الذين كرسوا أنفسهم لخدمة أنطونيو يستأذنونه فى الحصول على جثمان قائدهم، حتى يكرموا مسواه ويقيموا له جنازة تليق به. ومع ذلك، لم يقبل أوكتافيوس هذه الطلب قائلا إنه لن يأخذه من كليوباترا. وإنه قد أجاز لها أن تقوم بالإعداد للجنازة كيفما تشاء، وأذن لها أن تأخذ من أموالها وثرواتها ما تشاء من نفقات لهذا الغرض. وعليه، قامت كليوباترا بالإعدادات اللازمة ؛ وأشرفت على تنفيذها ؛ ومع ذلك، لم تتحل بالسكينة والهدوء، ولكن على النقيض، تملكتها الثورة والأسى الشديد. فقد عاشت طويلا تحت تأثير الهوى والنزوة الجامحة التى لا تعرف حدودًا، وقد انتهى كل شيء الآن وذهب بلا رجعة. وهى تبلغ الأربعين من العمر. ورغم احتفاظها بآثار من الجمال التى يتعذر الاستدلال عليه الآن، فقد اندثر ريعانها، وأصبحت ملامحها شاحبة من آثار البكاء والهم واليأس. ويمكن القول إن العقل والجسد صارا مجرد أطلال وحطام لما كانت عليه من قبل.

وعندما انتهت مراسم الجنازة، ووجدت أن كل شيء قد انتهى، وأن أنطونيو قد ذهب للأبد، وأنها قد تحطمت دون إمكانية للإصلاح أو أمل فى العودة، فاستسلمت لجنون الغضب الشديد. وأخذت تلطم وجهها على نحو موجع وتمزق جسدها بأظافرها بصورة مخيفة فى محاولات عابثة لقتل نفسها، فى نوبات اليأس التى انتابتها، حتى أصيبت بكدمات وجروح أحدثت التهابات وتورمًا، جعلت رؤيتها

مثيرة للاشمئزاز، وأدخلتها فى حمى. وجاءتها الفكرة بأن تتظاهر بأنها أشد إعياء، وأن ترفض تناول الطعام والشراب حتى تموت جوعًا.

وشرعت كليوباترا فى تنفيذ حيلتها، فرفضت أى محاولات للعلاج، وامتنعت عن الطعام لعدة أيام، وقام الخدم بإبلاغ أمرها إلى أوكتافيوس الذى كان يتولى أمر أسيرته بعناية، وانتابه شك فى تخطيطها. وكان لا يرغب فى موتها، ويعقد آماله على تقديمها إلى شعب روما عند عودته للعاصمة فى موكب انتصارته. فأصدر إليها أوامره بأنها ينبغى عليها أن تخضع للعلاج الذى يصفه الطبيب، وأن تتناول طعامها، وكانت لهجته تحمل شيئًا من التهديد ظن أنها ستؤثر فيها. وأى تهديد هذا الذى يمكن أن يصل لعقل فى شدة الانهيار واليأس والبؤس كما فى حالتها. فقد فقدت كل شيء عدا الحياة، وأصبحت الحياة وحدها تمثل عبئًا لا يطاق. فأى شيء كان لديها الآن يرتكز عليه فى تهديده لها.

وبحث أوكتافيوس عن مدخل يمكنه من الوصول إليها، وتذكر أنها أم . وأن قيصرون، ولد قيصر، والإسكندر وكليوباترا وبطليموس، أبناء أنطونيو، لا زالوا على قيد الحياة. وظن أوكتافيوس أنه ثمة شىء مازال فى أعماقها الدفينة المحطمة من الشوق لعاطفة الأمومة يمكنه تحريكه لتحفيزها على الحياة. فبعث إليها برسالة

فحواها أنها إذا لم تنصع للطبيب وتتناول طعامها، فسيقتل جميع أبنائها.

ونال أوكتافيوس مقصده من التهديد. وهدأت ثورة المريضة الهائجة. وتسلمت طعامها. وامتثلت لأوامر الطبيب. فقام بتضميد جراحها، وبدأت الحمى تنحسر، وتماثلت للشفاء تدريجيا.

وعندما علم أوكتافيوس بأن كليوباترا صارت هادئة، وبدأ يظهر عليها شيئا من النقاهة، قرر أن يقوم بزيارتها. وعندما دخل الغرفة التى كانت محتجزة بها، والتى يبدو أنها ما زالت بالطابق العلوى من ضريحها، وجدها مستلقية على مضجع بائس، فى حالة من اليأس، ويبدو عليها السقم والهزل، فصعقه ما رأى. وكانت تبدو فاقدة لرشدها تماما. وعندما اقترب منها أوكتافيوس، نهضت بسرعة من فراشها، وهى شبه عارية كما كانت، وتغطى الجروح والكدمات جسدها، وزحفت ببؤس حتى وصلت إلى قدم الفاتح، وهى فى وضع المتضرع. وكان شعر رأسها ممزقا، وأطرافها متورمة ومشوهة، وتتناثر الضمادات على جسدها هنا وهناك، مما دل على وجود إصابات أشد من هذه أسفل منها. وفى وسط هذه الحالة المثيرة للاشمئزاز والبؤس كان لا يزال هناك بصيص من شعاع يصدر من عينيها الغائرتين يحمل قدرا كبيرا من جمالها السابق، ولايزال صوتها يحتفظ بالسحر الذى ميزه بشدة فى فترة ريعانها. وأذن لها أوكتافيوس أن تذهب إلى فراشها مرة أخرى وتستريح هناك.

وبدأت كليوباترا تتحدث وتعتذر عما اقترفته، وتلقى كل اللوم فى أفعالها على أنطونيو. ومع ذلك، استوقفها أوكتافيوس، ودافع عنه فيما نسبته إليه قائلا إن خطأه لم يكن أشد منها. فتغيرت نبرة صوتها فجأة، واعترفت بخطاياها، وتوسلت إليـــه وطلبـــت منـــه الرحمـــة. والتمست منه الصفح والعفو عنها، كما لو كانـــت تخـــشى المـــوت وتخافه الآن، بدلا من أن تتمناه كنعمة لها. فعقلها، الذى كان ضـــحية وفريسة للهوى المتقلب، غلبه الخوف الآن. ولاسترضـاء أوكتافيوس، أظهرت له قائمة بجميع ثرواتها الخاصة، وسلمتها له كبيان مفـــصل بكل ما تملك. ورغم ذلك، أخبر زيليكس، أحد خازنيها الـــذى كـــان واقفا بالقرب منهما، أكتافيوس أن هذه القائمة ليست كاملة. وقـــال إن كليوباترا قد احتفظت بالعديد من الأشياء الثمينة، ولم تقم بتدوينها بها.

وأثار هذا القول، الذى أظهر نفاقها فجأة، حنقها الشديد. فقفزت من فراشها وهاجمت الخازن بطريقة عنيفـــة. وتـــدخل أوكتـــافيوس والحضور، وأرغموا كليوباترا على العودة لفراشـــها مـــرة أخـــرى، فامتثلت لهم وهى تشكو طوال الوقت من الانحطاط الـــذى آل إليـــه حالها. وقالت إنها إذا كانت تحتفظ بشىء من ثرواتها الخاصة، فهـــى مجرد هدايا لبعض أصدقائها المقربين لاستمالتهم للتدخل من أجلهـــا لدى أوكتافيوس. فحثها أوكتافيوس على ألا تعطى اهتماما للموضوع مهما كان. وأخبرها أن كل ما احتفظت به فهو لها، ووعدها بأن تـــتم معاملتها بلطف وكياسة.

وأسعد أوكتافيوس هذا اللقاء حيث اطمأن إلى أن كليوباترا أحجمت عن فكرة التخلص من حياتها، وصار لديها رغبة فى الحياة الآن، وبذلك فسوف تتحقق أمنيته فى أخذها معه لتشريف موكب انتصاراته بروما. وعليه قام بالإعداد للرحيل. وحيث كان أوكتافيوس شديد الحرص على ألا يثير انتباه كليوباترا بالحديث عن روما، فتم إخطارها بأنها سوف تنطلق برفقة أبنائها إلى سوريا فى غضون ثلاثة أيام. ومع ذلك، أدركت كليوباترا مقصد الرحلة، وأنها إذا ما بدأت فلابد أن تنتهي. وقررت، داخل نفسها، ألا تذهب إلى هناك أبدا.

وطلبت السماح لها بأن تقوم بزيارة لقبر أنطونيو قبل رحيلها. وتمت الموافقة على طلبها ؛ وذهبت برفقة القليل من الأتباع، وهى تحمل أكاليل وصحبات الزهور. وعند قبره تجددت أحزانها، وبلغت ذروتها كما كانت من قبل. وأخذت تندب وفاة حبيبها بصراخ وعويل يدوى فى أرجاء المكان، ووضعت أكاليل الزهور على القبر، وقدمت القرابين والبخور، العادات التى كانت سائدة فى ذلك الحين. وهى تقول:" هذا هو آخر ما يمكننى تقديمه لك من الهوى، يا حبيبى العزيز. فلا يمكننى اللحاق بك لأنى سجينة وأسيرة، ولن يدعونى أموت. فهم يراقبوننى طوال الوقت، وسيحملوننى بعيدا، لكى يقوموا بتقديمى لأعدائك، كغنيمة ودليل على انتصارهم عليك. اطلب لى الرحمة، حبيبى أنطونيو، من الآلهة حيث إن من يحكمون الأرض

تخلوا عنى، واشفع لى عندهم لإنقاذى من ذلك القدر، وأن يتركـــونى أموت هنا فى موطنى، وأدفن هنا بجوارك فى هذا القبر".

وعندما عادت كليوباترا لغرفتها عقب هذه الطقوس المأساوية، بدا عليها الهدوء أكثر من ذى قبل. وذهبت إلى الحمام، وارتدت ثيابًا مهندمة للعشاء وطلبت أن يقدم لها عشاء فاخر فى هذه الليلة. وكانت تتمتع بقدر من الحرية يبيح لها أن تقوم بهذه الإعـــدادات، حيـــث إن القيود التى كانت مفروضة على تحركاتها فى بادئ الأمر قد تغيرت، وأوحى مظهرها وأفعالها، أثناء هذه الفترة، إلى أوكتافيوس أنه لم يعد هناك أى خطر فى إقدامها على الانتحار. وتم إعداد عـــشاء ملكـــى، طبقا للتقاليد وعادات الكياسة التى اعتادت عليها عندما كانت ملكـــة. وكان يرافقها العديد من الأتباع، ومن بينهم اثنـــان مـــن وصـــيفاتها. وكانتا من الأتباع المخلصين والأصدقاء المقربين.

وعندما كانت على العشاء، أتى رجل يحمل سلة، وطلب الإذن بالدخول. وسأله الحراس عن ما بداخل السلة. ففتحهـــا ليـــروا مـــا بداخلها، ورفع بعضًا من أوراق الأشجار الخـــضراء كانـــت علـــى سطحها، ورأى الجنود أن السلة مليئة بثمار التين. وأخبرهم الرجـــل أن كليوباترا طلبتها من أجل العشاء. وأعجب الجنود شـــكل الثمـــار وقالوا إنها رائعة وجميلة. فعرض الرجل على الجنـــود أن يتنـــاولوا بعضا منها، فرفضوا، ولكنهم سمحوا له بالمرور. وعنـــدما انتهـــت كليوباترا من تناول العشاء، طلبت من جميع الخدم الانصراف عـــدا

وصيفتيها. ومكثا معها. وبعد قليل، خرجت إحداهما وهي تحمل خطابًا، قد كتبته كليوباترا، إلى أكتافيوس، وأرادات تسليمه له في الحال. وحمله إليه أحد الحراس القائمين على البوابة. وعندما فتح أوكتافيوس الخطاب الذى كان مكتوبا، بالطريقة التى كانت شائعة فى هذه الآونة، على لوحة صغيرة من المعدن، قام بقراءته فى الحال. فوجده التماسًا موجزًا وهامًا من كليوباترا، قد قامت بكتابته فى عجالة واهتياج، تتوسل إليه أن يتغاضى عما اقترفته من إساءات، وأن يجيز لها أن تدفن مع أنطونيو. وعلى الفور، أدرك أوكتافيوس أنها قامت بالانتحار. وعلى الفور، بعث بعض الرسل إلى مكان احتجازها ليتحققوا من الأمر، معتزما اللحاق بهم بنفسه.

وعندما جاء الرسل إلى الأبواب، وجدوا الجنود والحراس يؤدون عملهم على الأبواب فى هدوء كما لو كان كل شيء بالداخل على ما يرام. ومع ذلك، عندما دخلوا غرفة كليوباترا شاهدوا منظرا مروعا. حيث وجدوا كليوباترا تستلقى على أريكة وقد فارقت الحياة. وإحدى وصيفاتها أيضا جثة هامدة على الأرض. بينما الأخرى، وتدعى شارميون، جلست بجوار جثمان سيدتها، تقبلها، وترتب لها الزهور بشعرها وتزين لها تاجها. وصعق رسل أوكتافيوس، عند مشاهدة هذا المنظر، وطلبوا من شارميون تفسير ما جرى. فأجابت: " كل شيء على ما يرام، فقد تصرفت كليوباترا بطريقة تليق بملكة

انحدرت من سلالة ملكية نبيلة". وبينما هـــى تتحـــدث، بـــدأت تفقـــد الوعى، وخرت ساقطة على الفراش، وفارقت الحياة فى الحال.

ولم يصعق الواقفون المشهد الذى عرض على أعينهم فقط، بل ما أذهلهم وحيرهم هو محاولة اكتشاف الوسيلة التى مكنت كليوبـــاترا ووصيفاتها من تنفيذ خطتهن بنجاح. وقاموا بفحص أجسادهم، ولكنهم لم يكتشفوا أى آثار لحدوث عنف. وبحثوا فى الغرفة، ولم يجـــدوا أى أسلحة أو سموم. ولكنهم وجدوا شيئا يشبه مسارًا لزجًا لحيوان علـــى الجدار، تجاه النافذة، والتى اعتقدوا أنها آثار حية صغيرة ؛ ولكنهم لم يجدوا أثرا للحيوان نفسه. وقاموا بفحص الجثمان بعناية، ولم يجـــدوا أى أثر لدغة أوعضة، عدا اثنين من الثقوب الخفيفة لا تكاد ترى على أحد ذراعيها، وذهب البعض إلى أنها قد تكـــون الـــسبب. وأضـــحت الوسيلة والطريقة التى أدت إلى وفاة كليوباترا لغزًا مستحكمًا لا سبيل إلى فهمه.

ودارت شائعات مختلفة حـــول الموضـــوع فـــى كـــل مـــن الإسكندرية وروما، رغم أنه لم يتمكن أحد على الإطلاق مـــن حـــل اللغز. فقال البعض إنه كان يوجد بين ثمار التـــين التـــى أحـــضرها الخادم حية صغيرة داخل السلة ؛ ولذلك أحضرها بهذه الطريقة، بناء على اتفاق مسبق بينه وبين كليوباترا، أنها، وعندما تسلمتها، قامـــت بوضع الحية على ذراعها. ويقول آخرون أنها كانت تحـــتفظ بـــأداة صغيرة مصنوعة من الصلب تشبه الإبرة ذات رأس مـــسموم، وقـــد

أخفتها فى شعرها، وقتلت نفسها بها دون إحداث أى جروح مرئيـــة. وتروى قصة أخرى، أنها كانت تحتفظ بحية صغيرة داخل صـــندوق فى مكان ما بغرفتها لهذا السبب، وعندما جاء الموعد، قامت بوخزها بمئزر أو دبوس ذهبى لتثير غضبها، ثم قامت بوضعها على لحمهــا، وتلقت لدغاتها. ولا أحد يعلم مدى صدق أى من هذه الروايات.

ومع ذلك، فإن الاعتقاد السائد بين البشر يفيد بـــأن كليوبـــاترا قامت بطريقة أو بأخرى، بسم نفسها بلدغة حية صغيرة. وتم صـــنع التماثيل والرسوم التى لا حصر لها لتصف ذلك المشهد.

وقد دعم أوكتافيوس هذا الافتراض، بشأن الطريقة التى أودت بحياتها، بما قام به عند عودته إلى روما. فعندما خاب أمله ولم يتمكن من تقديم الملكة نفسها فى موكب انتصارته، قام بصنع تمثـــال مـــن الذهب يمثلها، وصورة لحية على ذراعها، وطلب حمل هذا التمثـــال أمامه فى موكب انتصارته العظيمة عند دخوله العاصـــمة، كغنيمـــة ودليل على سقوط ملكة مصر البائسة إلى الأبد.

المؤلف فى سطور:

جاكوب آبوت

(نوفمبر ١٨٠٣- أكتوبر ١٨٧٩) كاتب أمريكـــى ولـــد فـــى هالوويل، ولاية ماين، الولايات المتحدة الأمريكية. وكان الثانى فـــى الترتيب بين سبعة أبناء لجاكوب وزوجته ليديا ابوت. واهـــتم والــداه بالنواحى الدينية، وبرز ذلك فـــى أعمالـــه الأدبيـــة التـــى تـــشبعت بالمعتقدات الدينية والأخلاقية والعلمية.

تخرج من كلية بودوين عام ١٨٢٠ وعمـــل بالتـــدريس فـــى أكاديمية بورت لاند عقب تخرجه ثم عمل مدرسا فى كلية أمهرســـت عام ١٨٢٤ ثم أستاذا فى الرياضيات والفلـــسفة الطبيعيـــة مـــا بـــين ١٨٢٥- ١٨٢٦ ثم عين إلى جانب التدريس واعظًا بكنيسة الكلية.

كان كاتبًا غزير الإنتاج وقدم العديد من التقنيـــات والـــسمات الأساسية لكتابة سلاسل الكتـــب، وأصـــدر أدب الأحـــداث، والـــسير الذاتية، والكتب الدينية، والتاريخية الموجزة، وغددًا قليلاً من الأعمال فى مجال العلوم العامة.

ومن أشهر مؤلفاته: سلسلة كتب رولو"، مثل رولو فى العمل، رولو يلهو، رولو فى أوربا... إلخ

مجموعة كتب جوناس، مجموعة كتب لوسي، وسلـــسلة مركـــو بول، سلسلة الشخصيات التاريخية أمثال كليوباترا والإسكندر وهانيبال... إلخ

المترجم فى سطور:

مها عبد الحليم القاضى

(١٩٧٩م) من مواليد محافظة البحيرة، جمهورية مصر العربية.

عملت بعد تخرجها فى مجال تدريس مادة اللغة الإنجليزية للمراحل التعليمية المختلفة فى مدارس اللغات والأزهر والمعاهد الخاصة.

قامت بتدريس دورات اللغة الإنجليزية العامة والتخصصية بالمراكز الخاصة.

كما عملت فى مجال تدريس علوم الحاسب ومادة تكنولوجيا المعلومات باللغة الإنجليزية لطلاب معاهد الحاسب الآلى الخاصة.

عملت فى مجال الترجمة بمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بديوان عام محافظة البحيرة منذ عام ٢٠٠٥م حتى الآن وأسند إليها ترجمة العديد من الأعمال الفورية والتتابعية ، كما قامت بترجمة الموقع الرسمى لمحافظة البحيرة على شبكة الإنترنت وتم تكريمها فى مسابقة المتميزين لعام ٢٠٠٨م ضمن فريق عمل موقع المحافظة.